غـزو ثقـافي ام غـزو وجـود ؟

على الرغم من ان العالم كله قد ادرك ، منذ الحرب العالميـة الثانية ، بكل ما جرت من ويلات واوقعت من ضحايا ، ان السلام هو الطريق الوحيـد للحيـاة على وجه هـذه الارض وان اخوّة الشعوب وصداقة الأمم هي الحل الأمثل لمشكلات الشعوب والأمم ، فقد ظل هناك من يؤمن ايماناً لا يتزعزع بالحرب والغزو وبافضلية هذا وتلك على كل سبيل آخر من سبل الصداقة والسلام .

لكن ، بما أن استخدام البندقية والمدفع بات موضع استنكار الشرائع كلها واستهجان البشرية اجمع فقد بحث هؤلاء عن سبل أخرى للحرب والغزو دون بندقية ومدفع فكان الغزو الثقافي ، وكان الهدف وما تزال الأمم الفقيرة والشعوب النامية ، تلك التي ترزح تحت كلكل التخلف والجهل .

إن الفجوة الحضارية التي تفصل بين اولئك الذين يمسكون بناصية الحضارة والتكنولوجيا من جهـة ، واولئك الذين يلهثون خلف ركب الحضارة والتكنولوجيا من جهة اخرى ، جعلت الأوّل يزعمون لأنفسهم حق التفوق وامتيازات الصفوة بل ويدعون أنهم شعب الله المختار وكل ما عداهم غوييم ...

قلة من دول العالم تقبض على مصير العالم فتفرض هيمنتها عليه وتنهب ثرواته وتتحكم بمقدراته ، ليس بامتلاكها السلاح والمال والاقتصاد المزدهر فحسب بل بالهيمنة الاعلامية والثقافية . انها تسخر العلم والتقدم التكنولوجي كله من اجل هدف واحد هو : صب حممها الاعلامية على رؤوس الشعوب مغرقة إياها في تيارات جارفة مـن ثقافة استهلاكية ومفاهيم استلابية تجعلهـا تستسلم يائسة حتى من الدفاع عن النفس .

الثقافة ليست قصيدة تلقى أو كتاباً يقرأ بل هي سلوك اجتماعي متكامل ، لحمته مفاهيم وأفكار وسداته قيم ونظم وما تريده الهيمنة الامبريالية هو أن تغرس في كل ذهن مفاهيمها وافكارها ، قيمها ونظمها ، وعميقاً عميقاً حتى ليتعذر على اي كان واينما كان ، ان يتخلص من قبضتها ، غاسلة الادمغة ، محققة بالغزو الثقافي ما تعجز عن تحقيقه بالغزو العسكري .

لقد شهدت نهاية الحرب العالمية الثانية بداية النهاية للاستعمار الكولونيالي والمد الهائل لحركة التحرر والاستقلال ، لكن انى للامبريالية أن تستسلم هي التي تريد أن يبقى العالم نهبة لها ، مزرعة تفعل فيها ما تشاء ؟ المسالة منذ البدء مسالة استعمار او استقلال ، تبعية او تحرر واذا كان الاستعمار قد اضطر للخروج من باب العالم النامي المنهوب فما ذلك إلا لكي يعود اليه من النافذة، قيماً ومفاهيم ، افكاراً وثقافة .

كذلك إذا كانت الامبريالية ما تزال ترفع سيف ديموقليس فوق رأس العالم مهددة إياه بالفناء ، وتبرع في استخدام شتى الأساليب والفنون لإحكام غزوها الاقتصادي له ، ممتصة ثرواته ، ناهبة خيراته ، تاركة إياه عظماً بلا لحم ، فانها في غزوها الثقافي اشد شراسة وأكثر ضراوة ... إنها تستهدف اللب منه ، تستهدف النفس والعقل ، وذلك بغاية محددة هي : تكريس علاقة العبد / بالسيد والتابع / بالمتبوع ، ترسيخ الدونية وتكريس الفوقية ومن ثم دحض الآخر لاثبات الذات ، فتتحقق بذلك التبعية التامة والخضوع المطلق .

إنها ، كما ترى نفسها ، بداية كل شيء ونهاية كل شيء ، هي المحور وهي المركز ، لا دور حضاري لسواها ولا وجود لغيرها ، وهنا الخطر ، فالغازي كتلة من الأنا المتضخمة المتنرجسة التي تنفي كل ما عداها . لهذا لا نملك إلا أن نتساءل : أهو غزو ثقافي يا ترى ام غزو وجود ؟

إن الخطر الذي يتهددنا لأكبر من ان نواجهه باللامبالاة وإننا لمدعوون لتأكيد وجودنا ، للدفاع عن ذاتنا ولا يتم ذلك إلا بالتمسك بهويتنا الثقافية وترسيخها .

وإذا كان الكفاح من اجل الاستقلال هو الجهاد الأصغر فالدفاع عن هويتنا الثقافية وترسيخها والتصدي للغزو الثقافي وصده إنما هو الجهاد الأكبر .

رئيس التحرير

فهلا اعددنا له كل ما نستطيع من قوة !!

الدراسات والبحوث

دور المرأة في الديانات والحضارات القديمة

العلم يواجه تخوم المعرفة

ندرة اليازجي

العدوى في تشكل الفكر العربي المعاصر

غريغوار مرشو

القوة في المفاوضات الدولية

أبو بحر الخش

زهرة الكيمياء في مواجهة المناهج النقدية

د. عبد الكريم حسن

دور المـرأة في الـديـانـات والحضارات القديمة

منذ ان انبثق الانسان من المملكة الحيوانية كان في صراع مع عوامل البيئة من اجل اثبات نفسه كجنس متميز يبتكر تاريخه الخاص ، وقد جاءت حضارتنا الحديثة ثمرة لذلك السعي الدائب الذي استمر مئات الالوف من الاعوام وتتويجا له .

وقد تميز التاريخ الانساني باربعة تحولات اساسية :

آ ـ التحول الاول : حدث في مطلع العصر البليستوسيني الاعلى حيث امتد من ١٠٠٠٠٠ ق.م الى ١٠٠٠٠ ق.م حيث ان الانسان احس انفصاله عن عالم الحيوان وادرك امكانيات الطبيعة حيث استغلها ووجهها لمصلحته ، وقد اصطلح على تسمية تغيرات هذه الفترة بالثقافة الباليوليتية (العصر الحجري القديم) .

* تعتذر المجلة عن عدم ذكر اسم الكاتب فقد وردها المقال غفلا من الاسم .

ب ـ التحول الثاني : حدث في اواخر الالف التاسع واوائل الالف الثامن ق.م بتاثير ثلاثة عوامل حاسمة :

١ ـ الاستقرار وبناء المستوطنات .

٢ ـ اكتشاف الزراعة .

٣ ـ تدجين الماشية .

فخرج الانسان من كهوفه واخذ ببناء الحضارة وامتلاك مصيره ؛ ولقد اطلق على هذا التحول الهام اسم (الثورة النيوليتية) . وامتد هذا العصر من ٨٥٠٠ ـ ٤٥٠٠ ق.م .

جـ ـ حدث التحول الثالث مع تكون المدن الاولى وقد اطلق عليه(الثورة المدينية) وقد كان بداية لعصر مازلنا نعيش فيه حتى الان .

د ـ اما التحول الرابع فهو آخر التحولات وهو مايعرف باسم (الثورة الصناعية) في القرن التاسع عشر . والذي احدث انتقالا جذريا في كل اساليب الانتاج وفي الواقع فان الثورة النيوليتية هي البداية الحقيقية للحضارة وقد انطلقت من سورية ، حيث اثبتت الحفريات الاثرية ان اولى التجمعات البشرية المستقرة واولى القرى المبنية قد قامت في سورية الجنوبية خلال الالف العاشر والتاسع ق.م . وان اولى التجارب الزراعية قد تمت في المناطق الداخلية من سورية على طول الشريط الممتد من جنوب حلب الى صحراء سيناء ، ويُعتقد ان قصب السبق في هذا المضمار كان لموقعين رئيسيين هما موقع تل المريبط في الشمال عند شاطىء الفرات ، وموقع اريحا في الجنوب بوادي الاردن ، وذلك نحو الالف التاسع والثامن ق.م ، ولم يأت الالف السادس ق.م حتى كانت الثورة النيوليتية قد آتت ثمارها في جميع انحاء الشرق القديم .

وانطلقت منها نحو آسيا وجنوب اوربا ، ويأتي بذلك علم الآثار ليدعم نظرية البؤرة الحضارية الاولى وانتشار الحضارة من مركز واحد وقد كان الهلال الخصيب موطنا لهذه البؤرة ، وظهرت المدينة الاولى في قرنه الشرقي وقد بدأ التبادل التجاري في شكله المتواضع ولعب دورا مكملا في اقتصاد تلك المدن والقرى البدئية .

وخلال الالف السابع ق.م بلغت الثورة النيوليتية غايتها حيث صارت الزراعة العامل الاساسي ، ومع بداية الالف السادس ق.م ينتهي العصر النيوليتي ليبدأ عصر الفخار الذي ابدع فيه الانسان ارقى فنونه التشكيلية غير ان الالف السادس تميز بالتحول لمركز الثقل الحضاري من سورية باتجاه وادي الرافدين . واهمها حضارة تل حلف .

ومع انهيار حضارة تل حلف ٤٥٠٠ ق.م تنتهي الثقافة النيوليتية وينفسح المجال لعصر المدينة الذي كان موقع تل العبيد جنوب وادي الرافدين مقدمة له . مهيئا لظهور الحضارة السومرية . الذي كان موقع تل العبيد جنوب وادي الرافدين مقدمة له . مهيئاً لظهور الحضارة السومرية . الذي ابتدأ معها تاريخ الانسان المكتوب .

وما إن يأتي ٣٥٠٠ ق.م حتى تكون الثورة المدينية قد اكتملت وبدأت بالانتشار نحو الشمال والغرب حتى غزت العالم القديم ثم الجديد .

الاسطورة الاولى :

اذا كانت الثورة الحضارية قد قدمت الاسس التقنية والمادية الاولى التي قامت عليها الحضارة من زراعة وتدجين ماشية وعمارة وفن وكتابة ونظم مدينية وما اليها فانها بلا شك كانت الرقعة التي نضجت فيها تأملات الانسان البدئية وتصوراته الدينية واساطيره . فقد كان الدين عبر تاريخ الانسان مرآة لتطوره ، فجميع تأملات ذلك الانسان فلسفته وقيمه الاخلاقية وتصوراته الماورائية ، كانت تصب في الدين وتعبر عن نفسها من خلاله . لذلك لايمكننا فهم الانسان القديم اذا اهملنا دراسة ديانته ،والمؤسسة الدينية التي كانت في القديم عامل تطور لا عامل تخلف ، فمنذ ان صنع الانسان ادواته الحجرية الاولى ، صنع تماثيل لآلهته ، ومنذ ان بنى بيئته الاولى بنى معابدا لها .

لذا فالبحث في العوامل غير المادية للحضارة يجب ان يأخذ نقطة انطلاق له من المكان الاول الذي نشأت فيه هذه العوامل فيدرسها في بيئتها الاولى ليلاحظ كيفية انتشارها خارج هذه البيئة ، اي ان نقطة الانطلاق : من ديانة الثقافة النيوليتية واساطير زارع القمح الاول .

ان النظرية السائدة تقوم على القول بنشوء ديانة مركزية واحدة واسطورة اولى في العصر النيوليتي ، كانت ذات تأثير مباشر على الاشكال الدينيــة والاسطورية لدى جميع الثقافات اللاحقة .

لم يترك العصر النيوليتي نصوصا مكتوبة ولكن ترك رسوما وتماثيــل ومعابد ومدافن ، فوصلت الينــا رسائله عبــر فنونــه وجمالياته وابداعاته التشكيلية والمعمارية ولقد كانت كافية لفهم حياته الروحية وتصوراته الدينية وطبيعة طقوسه وعباداته . وفي الحقيقة فقد ورثت الثقافة النيوليتية الزراعية المعطيات الثقافية للعصر الباليوليتي وطورتها في اتجاهات تتلاءم واسلـوب الحياة الجديد . وقد ورثت عن العصر الباليوليتي تصوره للقوة الالهية في شكل وماهية انثوية هي الأم الكبرى للكون . غير ان الانسان النيوليتي قدبنى حول هذا الشكل الالهي القديم بنية جديدة من التصورات والاعتقـادات والاساطير ، ذات فحوى ومضامين تتصل بالزراعة التي غدت جوهر حياته واساس تنظيمه الاجتماعي والسياسي .

فالديانة النيوليتية الاولى هي ديانة زراعيــة في اعتقادهــا وطقسهــا والاسطورة الاولى هي اسطورة زراعية تتركز حول الهة واحدة هي سيدة الطبيعة.

كانت إلهة العصر الباليوليتي ومطلع العصر النيوليتي وحيدة تتربع على عرش الكون وكانت المراة كاهنة للأم الكبرى فوظيفة الكهانة كانت وقفا علـى النساء ويغلب الظن ان بعض الذكور كانوا يلعبون دورا مساعدا لا رئيسيا في المؤسسة الدينية النيوليتية ، فقد بقي الرجل خاضعا للمراة مادامت ممسكة بمفاتيح قوى الغيب . فهي اكثر حسا بالخفي والماورائي من الرجل واكثـر شفافية روحية ، فبينما يتجه عقل الرجل للتعامل مع ظواهر المادة تتجـه نفس المراة الى تحسس العوامل الروحانية تلمس القوى الباطنية ، لذلـك قادت المرأة الرجل من ايقاع المادة الرتيب الى ملكوت الروح الانسانية الرحيب، ولم تكن العلاقه بين انكيدو رجل البراري المتوحش في ملحمة جلجامش والمراة التي روضته ، الا رمزا للكدح الذي بذلته المراة من اجل تعريض الرجل للعوالم التي اكتشفتها قبله ، وجذبه من دارة الجوع والشبع المغلقة التي يشترك فيها مع الحيوان الى دارة الجمال المفتوحة على الابدية .

هذه الجلسة التي جلسها انكيدو يستمع الى حكمة المراة ، هي ما يجب ان تتعلمه اخيرا حضارة اليوم ، فلديها الكثير لتقوله لنا ، ولعل في بعضه خلاصنا

من الطريق المسدود الذي وصل اليه سعي حضارة الرجل وكما فتحت رسولة عشتار عين انكيدو على عالم المعرفة كذلك فتحت رسولة عشتار في هيئة الافعى عين آدم وحواء على المعرفة ، فاعطتهما ثمار شجرة المعرفة القائمة في وسط الجنة ونقلتهما من عالم يعيشان فيه شبحين بلا ظل ، الى عالم الطبيعة الحافل بافراح الجسد وجيشان الروح التي لا تدرك ماهيتها الا بولادتها في الجسد .

وشجرة المعرفة ايضا هي شجرة العالم الكبرى التي جلس تحتها بوذا واقسم الا يبرح مكانه حتى تأتيه الاستنارة وتنفتح بصيرته على الحقيقة .

ومع نضوج الثقافة النيوليتية واكتمال الشكل الاقتصادي الجديد وتزايد الدور الاجتماعي للرجل بعد ان كان المجتمع حتى ذلك الوقت اموميا في جوهره، نجد الى جانب الإلهة الكبرى ابنها الذي دعته عصور الكتابة بتموز او ادونيس ولا ندري بأي اسم دعاها عبدتها الاولون ، ولكننا نعثر على تماثيلها في كل موقع من مواقع العصر النيوليتي ، هذه التماثيل التي ابتدات طينية صغيرة على شكل دمى وانتهت حجرية ضخمة تسكن المعابد الكبرى ، وعندما تعلم الانسان الكتابة خبرنا باسمائها . وقدمتها لنا فنونه التشكيلية في صور شتى ترمز كل منها الى جانب من جوانبها . فنراها في هيئة امرأة حبلى او ام تضم طفلها الصغير ، او عارية الصدر تمسك ثدييها بكفيها في وضع عطاء ، او ترفع بيدها باقة من سنابل القمح باسطة ذراعيها في وضع من يستعد لاحتواء العالم او ممسكة بزوج من الافاعي ، او ممتطية ظهور الحيوانات الكاسرة .

وقد لعبت المكانة الاجتماعية للمرأة في تلك العصور دورا كبيرا في رسم التصور الديني والغيبي الاول وفي ولادة الاسطورة الاولى .

كانت المرأة بالنسبة لإنسان العصر الباليوليتي موضوع حب ورغبة ، وموضع خوف ورهبة في آن معا . فمن جسدها تنشأ حياة جديدة ، ومن صدرها ينبع حليب الحياة ، وخصبها وما تفيض به على اطفالها هو خصب الطبيعة التي تهب العشب معاشا لقطعان الصيد ، وثمار الشجر غذاء للبشر .

وعندما تعلم الانسان الزراعة ، وجد في الارض صنواً للمرأة ، فهي تحبل بالبذور وتطلق من رحمها الزرع الجديد ، لقد كانت المرأة سرا اصغر مرتبطا بسر اكبر ، سر كامن خلف الطبيعة والاكوان ، فوراء كل ذلك انثى كونية عظمى، هي منشأ الاشياء ومردها عنها تصدر الموجودات الى رحمها يؤول كل شيء .

لقد كانت سيطرة المرأة على الحياة الدينيـــة سيطرة على عالم يمـــوج بالاسرار ، فالى جانب المستوى الطبيعي للديانة العشتارية التي تعطي عشتار عنده ثمار الارض هناك مستوى روحي تعطي عنده الام القمرية راعية الليـــل ثمار الروح .

ففي المستوى الاول هي ام القمح تهب الناس قوت يومهم ، وفي المستوى الثاني هي ام الخمر تهبهم قوت قلوبهم وتفتح بصائرهم على الحكمة ، فمنـــد الخمر والمستحضرات المخدرة المستخلصة من النباتات (كنبات الخشخاش) ينقلب الطبيعي والمادي الى روحاني علوي . ففي نشوة الخمر نموذج لكـــل ما ستنتزعه المرأة من شعر وفن وعرفان والهام ومعراج واستنارة .

إن روحانية المرأة عكس روحانية الرجل تنطلق من المادة وكل تصعيـــد لديها يبدأ من حركة الجسد لا من حركة الذهن المجرد ، وكل ارتقاء نحو الاعلى يبدأ في نزول نحو عتمة النفس عن طريق الرقص والموسيقى والسكر والجنس اي انه يصل الى سكون النفس بصخب الجسد . (وما يقوم بـــه دراويش المتصوفة المسلمين اليوم من رقص دوراني على ايقاع الموسيقى ، يصلنا بالتصوف العشتاري القديم حيث يستنير الجسد بانوار الرحمن وهو في ذروة افراحه الارضية) . وهناك حديث شريف يقول « من عرف نفسه عرف ربه » فتحريض طاقة الجسد الحبيسة تدفع في نفس الوقت حركة الجسد الظاهرة نحو أسرار الطبيعة الخافية التي لا يستطيع العقل الا أن يمس اطرافها .

ففي البدء لم يخرج الكون من لجة العمل بواسطـــة العقل بل بحركـــة الجسد ، فالام الكبرى لم تخلق مظاهر الطبيعة بكلمتها ، بل بتحول جسدهـــا الذي نشأت عنه السماء والارض . فها هي الإلهة (نمو) في سومر إلهة الميـــاه تعطي الجيل الاول من الآلهة بحركة جسدها وينتج عنها اله الســـماء (آن) والهة الارض (كي) اللذان تزوجا بدورهما وانجبا إله الهواء (انليل) .

وهاهي الإلهة (تعامة) في بابـــل إلهة المـــاء تعطي مـــن جسدها السماء والارض بعد أن قتلها أحد احفادها الاله (مردوخ) .

غير ان الانظمـــة الدينيـــة النيوليتية فيما بعـــد تتزعزع من بزوغ عصر الكتابة وظهور المدن الكبيرة ذات التنظيمات المدنية والسياسية والاقتصادية المعقدة التي عكست واقعها على الحياة الدينية الجديدة ، فمع انتقال السلطة في المجتمع نهائيا الى الرجل وتكوين دولة المدينة القوية ذات النظـــام المركزي

والهرم السلطوي والطبقي التسلسلي الصارم ، الذي قام على انقاض النظام الزراعي البسيط ، يظهر الآلهة الذكور ويتشكل مجمع الآلهة برئاسة الاله الاكبر ، ذلك المجمع الذي يعكس تقسيم العمل في المجتمع الجديد وتمركز السلطة في يد الملك ؛ هنا تجد الإلهة الكبرى للعصر النيوليتي نفسها وقد غدت احدى آلهة المجمع ، بعد ان كانت الالهة الواحدة ؛ لا يشاركها في السلطان سوى ابنها الذي نشأ عنها ، وكان مقدمة لظهور بقية الآلهة الذكور .

غير أن هذا التحول في مكانة الام الكبرى ، لم يتم الا على النطاق الرسمي، بينما بقيت مكانتها القديمة على حالها في ضمير الناس عامة ؛ ممن لم يتوجهوا الا اليها عند الخوف واليأس وازمنة الشدة .

ومن ناحية اخرى فان الكتابة التي ابتكرها الانسان في مطلع العصر المديني، قد ساهمت في تظليل صورة الام الاولى ، فالكهنة المتفرغون للنشاط الديني، والذين كانوا أول من استعمل الكتابة وحفظ اسرارها المقدسة ؛ اخذوا يطلقون على الام الكبرى أسماء متعددة يشير كل منها لوظيفة من وظائفها . ثم استقلت الأسماء فصارت ذواتا منفصلة بتأثير الاتجاه الديني الجديد ، ولكن دون أن يفقد الانسان احساسه بالوحدة الصميمية لهذه الذوات وتطابقها ، بكونها تنبع وتصب في ذات واحدة . ومن الاسماء التي صارت ذواتا .

نجد في سومر الالهة (نمو) الإلهة البدئية والمياه الاولى . و (إنانا) الهة الطبيعة والخصب والدورة الزراعية .

وفي بابل نجد (ننخرساج) الام ـ الارض ـ و (عشتار) المقابلة لإنانا .

وفي كنعان (عناة) و (عشتارت) .

وفي مصر (نوت) و (ايزيس) و (هاتور) و (ستحمت) .

وعند الاغريق (ديمتر) و (جيا) و (ارتميس) و (افروديت) .

وفي فرجيا بآسيا الصغرى (سيبيل) .

وفي روما (سيريس) و (ديانا) و (فينوس) .

وفي جزيرة العرب (اللات) و (العزى) و (مناة) .

وفي الهند (كالي) .

وفي حضارة السلت الاوربية (دانو) و (بريجيت) .

انها اسماء متنوعة لإلهة كانت واحدة قولا وفعلا في العصر النيوليتي فصارت متعددة قولا وواحدة فعلا في عصور الكتابة .

وها هي ايزيس تقول عن نفسها في احد النصوص من الفترة الرومانية :

(انا ام الاشياء جميعا ، سيدة العناصر وبادئة العوالم ، حاكمة ما في السماوات من فوق ، وما في الجحيم من تحت ، مركز القوة الربانية . انا القوة الكامنة وراء الآلهة والآلهات ، عندي يجتمعون في شكل واحد وهيئة واحدة) .

ونرى في عشتار البابلية نموذج لشبيهاتها عشتارات الثقافات الاخرى . فما نكاد نمسك بها في صورة حتى تنحل الى اخرى .

فهي : اصل الكون ، مبدأ الاشياء ، ربة الحياة وخصب الطبيعة ، وهي الهلاك والدمار وربة الحرب ، في الليل عاشقة ، وفي النهار مقاتلة ترعى المواقع وتغشى المذابح ، هي الام الرؤوم الحانية ، راعية الحوامل والمرضعات ، الحاضرة ابداً قرب سرير الميلاد ، وهي البوابة المظلمة الفاغرة لالتهام جثث البشر . هي ربة الجنس ، وهي من يسلب الرجال ذكورتهم ، هي القمر المنير وهي كوكب الزهرة ؛ هي النور ورمزها الشعلة الابدية ، وهي العتم والظلمة وما يخفى . هي القاتلة وهي الشافية ، هي العذراء الابدية ، وهي الام المنجبة ، هي البتول وهي البغي المقدسة ، هي ربة الحكمة وهي سيدة الجنون . التقت عندها المتناقضات وتصالحت المتنافرات .

ومن الجدير بالذكر ان الرجل قد بوّأ المرأة مكانها واسلم قياده لها احتراماً وتقديراً لا خنوعاً . ولا لتفوقها الجسدي بل لتقدير اصيل وعميق لخصائصها الانسانية وقواها الروحية وقدراتها الخالقة ، لايقاع جسدها المتوافق مع ايقاع الطبيعة وشفافية روحها التي تجعلها اقدر على التوسط بين عالم البشر وعالم الآلهة فكانت الكاهنة الاولى والعرافة الساحرة الاولى .

ولقد عزز الدور الاقتصادي للمرأة مكانتها هذه فلقد كانت بحق المنتج الاول في الجماعة لكونها المسؤولة الاولى عن حياة الاطفال وتأمين سبل العيش لهم ، حيث كانت مسؤولة عن تحضير جلود الحيوانات وتحويلها الى ملابس فكانت النساجة والخياطة الاولى ، وأول من صنع الاواني الفخارية ؛ وبسبب قضائها وقتاً في البحث عن النباتات الصالحة للأكل تعلمت خصائص الاعشاب في شفاء الامراض فكانت الطبيبة الاولى . وكانت تاجرة تقايض بمنتجاتها منتجات الآخرين . ولقد اوقدت المرأة شعلة النار الاولى ومن ثم الشعلة المقدسة في معابد الحضارات المتأخرة ، وقامت عذراوات المعبد بحراستها .

واخيراً توجت المرأة دورها الاقتصادي باكتشاف الزراعة ونقل الانسـان من مجتمع الصيد والرعي الى انتاج الغذاء .

في ذلك المجتمع القديم المتمركز حول الام تأسست روح العدالة والمساواة الاجتماعية وذلك لابتعاد سيكولوجية المرأة عن كل ميـل نحو التسلـط والاستبداد ، فحب المرأة لاطفالها هو النموذج الاساسي للعلاقات السائدة بين افراد ينظرون لبعضهم على انهم اخوة في اسرة كبيرة . ذلك ان عاطفـة الام نحو أولادها وعاطفة الاولاد نحو أمهم هي العاطفة الاصلية الوحيدة وكل ما عداهـا يأتي بالاكتساب والتعلم ، لا يستثنى من ذلك عاطفة الآب نحو ابنائه وعاطفة الابناء نحو ابيهم التي تأتي بالصقل الاجتماعي ومعرفـة الواجب الاخلاقي ، فبالولادة تزدوج المرأة جسداً ونفساً وتوسّع آفاق كيانها الطبيعي والروحي ، اما الرجل فبالمولود الجديد يشد ازره ويدعم وضعه الاجتماعي ويحافظ على ممتلكه في مقابل ممتلك الآخرين ، ويتمرآى امام ذاتـه .

فالمبدا الاومي يجمع ويوحد ، والمبدا الابوي يفرق ويضع الحواجـز والحدود . المبدا الاومي مشاعة وعدالة ومساواة ، والمبدا الابوي تملك وتسلط وتمييز . الاومية توحد مع الطبيعة وخضوع لقوانينها ، والابوية خروج عن مسارها وخضوع لقوانين مصنوعة ، وقد مر المجتمع الاومي عبر تاريخـه بمراحل متعددة انتهت بالانقلاب الكبير الذي قام به الرجل مستلما دفـة القيادة من المرأة ومؤسسا المجتمع الذكري ونستطيع تتبع وفهم تلك المراحل، بتتبع اشكال العائلة الاومية ونمط العلاقة القائمة بين المرأة والرجل .

ففي البدايات السحيقة للتجمعات الانسانية كانت العلاقات حرة تماما دون ضابط او قانون حيث كانت كل امرأة لكل رجل وكل رجل لكل امرأة ، ومن ثم كانت اطوار حل فيها نوع من التنظيم المتطور ، وذلك لضبط حالـة الفوضى ، ولعل نظام عائلة قربى الدم هو الشكل الاول الذي ورث وضـع الفوضى البدائية . تنقسم الجماعات الزواجية حسب الاجيال وفق هـذا النظام فنجد جميع الجدود والجدات ازواج فيما بينهم كذلك فيمـا يتعلـق بابنائهم اي الآباء والامهات بينما يشكل اولاد هؤلاء الحلقة الثالثة من الجماعات الزواجية ، وهكذا نجد ان هذا النظام حرم الزواج بين الآباء والابناء ، وهي الخطوة الاولى ، اما الخطوة الثانية : كانت في تحريم الزواج بين الاخوة والاخوات مما ادى الى ظهور عائلات زواجية اضيق .

وبما انه في كل هذه الجماعات الزواجية لايمكن معرفة والد الطفل فقد كان الاولاد ينتسبون الى امهاتهم وهذا ما اطلق عليه الباحثون اسم (حق الام).

اما الشكل الرابع من اشكال العائلة فهو العائلة الثنائية التي تكونت داخل الشكل السابق ، حيث كان لكل رجل زوجة رئيسية ضمن الزوجات يساكنها فترة قد تطول او تقصر ، وكان بالنسبة لها ايضا الزوج الاساسي بين ازواج كثيرين ، حيث تحول ذلك الى زواج ثنائي وعائلة صغيرة تتألف من زوجين وابنائهما المباشرين ، ولكن المراة بقيت محافظة على وضعها المتميز وكانت حرة في فصل الزواج متى شاءت . فيعود الاولاد اليها لانهم لا يزالوان ينتسبون لها. وبناء على هذا فقد كان الابناء يرثون عن امهاتهم . اما تركة الاب فقد كانت تذهب الى اخوته الا انه مع تزايد الثروات بتأثير حياة الاستقرار والزراعة كان مركز الزوج الاقتصادي يتقدم على حساب مركز الزوجة الامر الذي ادى الى قلب نظام الوراثة من الآباء لصالح ابنائهم . حيث افلح الرجل اخيراً في القضاء على (حق الأم) واحلال (حق لاب) . وظهرت العائلة الاحادية التي تقوم على سيادة الرجل وابوته الثابتة لاولاده من اجل توريثهم . فكان إسقاط حق الام هزيمة تاريخية الجنس النسائي . تبدأ معه تاريخ استذلال المراة واستعبادها ، الا ان الجنس النسائي لم يهزم دون مقاومة ولكن التاريخ لم يحفظ لنا آثار الصدام المباشر بين الجنسين والذي حصل ولا شك على اعتاب التاريخ المكتوب .

الا ان المجتمع الاومومي لم يندثر تماما بحلول المجتمع الابوي بل استمر الكثير من قيمه سائدة الى فترة متأخرة .

ـ ففي المجتمع المصري بقيت الثقافة الاومومية واضحة طيلة تاريخه الطويل ، حيث كان كرسي الملك ينتقل عبر سلسلة النسب الاومومي وكل اميرة هي وارثة للعرش لذا كان على الفرعون الجديد ان يتزوجها لتثبيت حقه فيه . وكانت الممتلكات المادية تنتقل الى البنات لا الى الابناء ، وهذا ما رسخ زواج الاخـوة .

ـ وفي جزيرة كريت استمرت القيم العشتارية محركاً في المجتمع من الالف الخامس ق.م الى الالف الثاني ق.م ، فالاعمال التشكيلية كانت غالبيتها تتخذ المرأة موضوعاً رئيسياً ؛ فبالاضافة الى رسوم وتماثيل الأم الكبرى التي لم يعبد الكريتيون غيرها كانت الاعمال التشكيلية تصور المرأة في ابهى وضع فهي

اما سيدة او اميرة اما الأعمال التي كان الرجال موضوعاً لها فكانت تصورهم كجنود او حصادين أو سقاة ولم يتم العثور على اعمال تصورهم كحكام .

وصل النسب ايضاً هنا كان مرتبطاً بالأم ، فاذا انفصم الزواج عاد للمرأة اولادها واموالها .

ـ وكذلك يقدم لنا المجتمع الاسبارطي صورة جلية عن (حق الام) وكانت المرأة تملك الحرية قبل الزواج وكان الاطفال المولودون خارج مؤسسة الزواج يتمتعون بالوضعية الاجتماعية نفسها مع الأطفال الآخرين .

ـ وكذلك الأمر في المجتمع الاغريقي .

ـ وفي بابل وفينيقيا ايضاً بقيت المرأة حرة قبل الزواج حيث كانت تهب نفسها لمعبد عشتار قبل التزامها حياتها الزوجية .

ـ وهناك امثلة لا تحصى من اليابان شرقاً الى مجتمعات الهنود الحمر غرباً على الاساسات الامومية التي قامت عليها المجتمعات الذكرية الحديثة .

وان فهم الثقافة الامومية هو نقطة الانطلاق لفهم الالهة الأم الكبرى .

الأم الكبرى :

منذ ان اعتدل جسد الانسان منسلخاً من شكله النياندرتالي ذي القامة المنحنية كانت عشتار ـ الام الكبرى إلها له وقد صنع لها تماثيل انتشرت من اقاصي سيبيريا الى شواطىء المحيط الاطلسي . وهذه التماثيل رموز لكائنات فوق طبيعية اعتمدت على تحوير فني مبالغ فيه ، كانت محل عبادة الانسان الأول .

وتظهر تماثيل الأم الكبرى سمات متشابهة في جميع مراكز الثقافة الباليولتية . فالراس غير متميز الملامح يرتكز مباشرة على الجذع او بواسطة رقبة قصيرة والكتفان دقيقتان ، الذراعان نحيلتان ، توحيان بعدم جدواهما والساقان في جزئهما الاسفل ضعيفتان وقصيرتان وتنتهيا بقدمين صغيرتين .

اما المنطقة الاساسية فمنطقة الثديين والبطن والحوض واعلى الفخذين . التي تشكل معاً كتلة ممتلئة تظهر ما لها من اهمية قصوى . (الشكلين ١ و ٢) فالثديان ككتلتين هائلتين والبطن منتفخ في اشارة لحمل ابدي ، والردف ثقيل

والوركان قويان يشكلان مع اعلى الفخذين وحدة متماسكة تتجمع فيها الرموز في بؤرة واحدة هي (مستودع الخلق) .

في هذه الاشكال يثبت الفنان كل ما له علاقة بالخصب الطبيعي التلقائي ، ويهمل كل ماله علاقة بالفعل الارادي . وهــو يعطي بذلك خلاصة تأملاته في القوة الالهية التي تصدر عنها الاشياء دون قصد ، كما تصدر الحياة عن المرأة وعليها تتغذى وتستمر ، فكأن ماصدر عنها جزءاً منها متطابق مــع نظــام الطبيعة ، لامتعالية عليه ، فاعلة فيه عن بعد ، كما هو شأن الاله الذكر فيما بعد حين تخيل العالم فكرة ، وقبع وراءه منفصلا عنه ، مسيراً له .

وكما كانت الأم الكبرى سيدة مطلقة للعصر الباليوليتي كذلك ستغدو سيدة مطلقة للعصر النيوليتي في حقبته الاولى ما قبل الفخارية ، خلال الالفين الثامن والسابع ق.م . وحافظت تماثيل العصر النيوليتي على خصائص تماثيل العصر الباليوليتي من حيث التركيز على مناطق الخصوبة وابرازها ، كما ظهرت الوضعية الكلاسيكية وهي وضعية عشتار الممسكة بثدييها العاريين كمركز للخصب والعطاء (الشكل ٣) وقد ارتبطت بالأم الكبرى رموز تجريدية في الديانة النيوليتية منها الصليب المعكوف (السواستيكا) . والصليب العادي اللذان استمرا رمزين مقدسين . في الديانات الامومية والذكرية على السواء وصولا الى السيد المسيح وامه مريم ، آخر أم كبرى في الديانات البشريــة .

والى جانب الرموز التجريدية ارتبطت بالأم الكبرى رموز حيوانية اهمها الحمامة والافعى والثور .

ومنذ ان تعلم الإنســان النيوليتي صناعة الجرار الفخارية انضم الاناء الفخاري الى جملة رموز الأم الكبرى ، لأن الجسد الانثوي شبيه بالوعاء السحري ، المستودع الذي تختمر في ظلماته بذور الحياة ، واصبحت الجرة تصنع على شكل جسم ذي عنق قصير ويليه ثديان وسرة . والسرة هنا ذات قيمة رمزية كبيرة لان سرة عشتار هي مركز الكون ومعبدها هو سرة الارض .

وفيما بعد صار للسرة الالهية شأن في الديانات الذكرية حيث صار كل شعب ينظر الى معبد الهه انه سرة الارض . كذلك كان معبد (آبوللو) بالنسبة لليونان وهيكل سليمان بالنسبة للعبرانيين ، والكعبة بالنسبة للعرب .

هذا ونجد ايضا عشتار في العديد من منحوتاتها تحمل بيدها جـرة فخارية يميل عنقها نحو الامام . والتمثال المعروف باسم ربة الينبوع والذي يمثل عشتار مدينة ماري السورية خير مثال على ذلك .

ومن الجدير بالذكر ان القيمة الرمزية للجرة الفخارية اثرا في عادات دفن الموتى ، فالجرة الفخارية هي الرحم الذي يطلق الانسان للحياة والرحم الذي يستعيده ثانية بعد الممات . وقد شاعت عادات الدفن في الجرار في مناطـق عـديدة .

ولعل اهم مظاهر الكون تجسيداً للأم الكبرى هي الارض ، من بطنها تخرج زرعاً حيـاة للانسان ، ومن اعماقها تتفجر المياه . ومن هنا كانت تماثيـل عشتار توضح صلتها بهذه الارض ، وخصوصا تماثيلها في وضعية الجلوس ، حيث يشكل الردف والساقان تحته تكوينا على هيئة قاعدة مستقرة .

في الحقبة التالية من العصر النيوليتي استمرت تماثيـل الأم الكبـرى في خط متواصل مع بعض التطورات ، فجسم الإلهة اصبح اكثر رشاقة وتناسقا واختفت المبالغات مع استمرار التاكيد على مناطق الخصوبة . بحيث تشد هذه المناطق النظر دون تنافر مع بقية اجزاء الجسم (الشكل ٤) .

الا انه خلال الالف السابع ق.م . بدات التماثيل الذكرية المقدسة بالظهور على نطاق ضيق ، وبشكل مترافق مع التماثيل الانثوية التي بقيت سائدة . وبذلك يبدا التمهيد تدريجيا بظهور الثنائي الالهي : الام الكبرى وابنها الذي سياخذ اولى صوره الواضحة مع مطلع الالف السادس ق.م في ثقافة شتال حيوك جنوب الاناضول . وهذا الاله الذكر هو ابن الام الكبرى وزوجها في آن معاً . وقد يظهر الاله الذكر في بعض المنحوتات في هيئة الرجل الناضج ولكن دون أن يعطي انطباعاً برهبة الالوهة ، مما يدل على الدور الثانوي للاله الذكر وتبعيته للالهة الأم .

لم يكن انشطار عشتار الى ذكر وانثى بالفكرة الجديدة فلقد بقيت عشتار تحمل في جوهرها بذرة الذكورة والانوثة . ان كمال الالوهة في جمع الضـدين .

لقد ولدت الام العذراء ابنها ثم تزوجته لتعيد الى ذاتها قوتها . وهـذا الإله هو : (دوموزي) في سومر ، و (تموز) في بابل ، و (ادونيس)في سوريا و (أوزوريس) في مصر ، و (ارتميس) في روما ، و (ديونيسيوس)عندالاغريق.

ولقد بقي في علاقة السيد المسيح بامه العذراء اثر من هذا التقليد القديم ، بعد ان ارتقت العلاقة المزدوجة الى مستويات روحانية سامية .

اما الملامح العامة لهذا الإله الابن . فانه لم يكن موضع عبادة بمعزل عن امه فهو وجهها الآخر وشقها الذكري الذي كان كامنا فيها منذ الازل . وقد انفصل عنها شكلا فقط .

الا انه رغم التفتت الذي عانته صورة الام الكبرى على نطاق الدين الرسمي للدولة فقط حافظت على سماتها القديمة في قلوب الناس الذين تعبدوا الآلهة الذكور تعبد خوف ، وتابعوا تعبدهم للام الكبرى تعبد محبة .

ففي سومر التي شهدت اول مجمع للآلهة الذكور برئاسة إله السماء (آن) الذي ادعى لنفسه معظم خصائص الام القمة ، بقيت اساطير الام الكبرى وصلواتها تشير الى مقامها الذي لا يعلى عليه .

ففي البدء كانت الإلهة (نمو) اصل الكون وام الجيل الاول من الآلهة ، وكان امتدادها البدئي كمياه اولى تملأ المكان قبل بدء الزمان ، ثم انجبت اول كتلة متمايزة عن الماء وهي السماء والارض ملتصقتين في جبل بدئي وبداخله ولد الجيل الاول من الآلهة ثم انقسم هذا الجبل حيث اعطى السماء والأرض .

ان ما فعله النظام الميثولوجي للمجتمع الديني الاول فصل الخصائص الكونية للام الكبرى عن خصائصها المتعلقة بالخصب وحركة الطبيعة . فترك الخصائص الكونية للإلهة (نمو) وجعلها إلهة مرحلة تعيش في عالم المجردات بلا ظل ولا معبد ولا ديانة منظمة ، وترك خصائص الطبيعة والخصب للإلهة (إنانا) التي وضعها تحت رئاسة (آن) وجعل لها اما وابا في العائلة الذكرية .

اما في بابل نجد الشيء نفسه فالإلهة الكونية (تعامة) المياه الاولى . اصل الكون وام الجيل الاول من الآلهة ، وتناسلت الآلهة الى أن ظهر جيل متمرد من الآلهة الفتية كان اقواهم الإله (مردوخ) الذي دخل في صراع مميت مع تعامة فقتلها وقسم جسدها بالاكراه الى نصفين الاول رفع منه السماء ومن الثاني ثبت الارض .

وصحيح أن اسطورة التكوين البابلية هذه تعترف بدور الام الكبرى في اخراج الكون للوجود ولكنها تجعل هذا الدور سلبيا لانها مادة لفعل الإله الذكر لا مصدرا تلقائيا للاشعاع . وكان جسدها خميرة الخلق ولكن الخلق بقسوة الرجل لا بمحبة المرأة فقتل الام في هذه الاسطورة يعكس رغبة الرجل سيد

الحضارة الجديدة في توجيه الطبيعة لمصلحته والتحكم فيها بعد تاريخ طويل من العيش في كنفها .

كما اننا نجد عند البابليين اضافة الى تعامة شكلا آخر من اشكال الام الكبرى يتمثل في الام ــ الارض (ننتو) و (تنخرساج) . لكن الإله الذكر جعلها منفعلة لا فاعلة . فخصبها يأتي من خارجها عن طريق الماء الذي يسقيها لانه يتبع إلهاً آخر هو (انكي) إله الماء العذب الذي تجعله الاساطير زوجاً لها . وبتعاونهما خلق الانسان ايضا من الطين .

وهكذا ، فقد تضاءل دور الام الكبرى امام الآلهة الذكور في الشرق الادنى القديم وكذلك في الغرب .

ففي الثقافة الاغريقية بقيت الام الكبرى قائمة في شخصية الإلهة (جيا/الام ــ الارض الا انها بقيت بلا ظل ولا عبادة ؛ أول مواليد جيا كان كرونوس إله السماء ، ثم انجبت بقية الالهة ، وقد تقاسمت ديمتر وافروديت وارتميس الخصائص الطبيعية للام القديمة .

غير ان الديانات الذكرية المتطرفة حاولت ان تقلص من صورة الام الكبرى كما هي ديانة العبرانيين بشكلها التوراتي المتأخر . فهنا لا نكاد نجد ما يذكر بالام الكبرى سوى اثر باهت باق في شخصية حواء التي حولتها الاسطورة التوراتية من مبدا الكون الى مجرد ام للجنس البشري ، وحتى امومتها ليست اصلية لانها هي نفسها مولودة من ضلع الذكر آدم ، وبذلك حصل آدم على فضل الابوة والامومة معا .

ولكن التقاليد المسيحية اعادت للام الكبرى سلطانها حيث تبدا مريم العذراء رحلتها من ام يهودية تقية كما تبدو في الاناجيل الى ام كونية ووالدة للإله الذي اقترب من البشر بدخوله في تاريخهم وتجسده في عالمهم ، ومروره عبر جسد الام الكبرى طفلا لها .

ولقد كانت السيدة مريم العذراء آخر رمز للألوهة المؤنثة في ضمير الانسان ويبدو انها باقية معه على مر الزمان .

ولعل أهم فكرة هنا هي وحدة التجربة الروحية للانسان عبر الزمان واختلاف المكان . وان كل دين ونظام ميثولوجي ليس الا قطعة ملونة صغيرة من فسيفساء بديعة زاخرة بالاجزاء التي تبدو مستقلة عن قرب ، متوحدة عن بعد ؛ في نظام متكامل يعطي معنى لكل جزء من اجزائه ، ويستمد معنى من هذه الاجزاء جميعا . اذا فان عبادة الآلهة المتعددة ليست في جوهرها الا عبادة الإله الواحد .



الشكل ـ ١ ـ

عشتار العصر الباليولتي
ويلندورف ـ النمسا



الشكل – ٢ –

عشتار العصر الباليولتي
ليسبوغ – فرنسا



الشكل ـ ٣ ـ

الام السورية الكبرى ـ تل المريبط
على الفرات ٨٠٠٠ ق.م



الشكل ـ ٤ ـ

عشتار البابلية
٢٠٠٠ ق.م

العلم يواجه تخوم المعرفة

نَدرة اليازجي

في الفترة الواقعة بين الثالث والسابع من آذار عام ١٩٨٦ ، اجتمع في مدينة البندقية « ايطاليا » عدد من العلماء والباحثين ، حاولوا أن يبيّنوا الحدود التي بلغها العلم في عصرنا هذا ، وفي العصور السابقة التي اتسمت بالحكمة والفلسفة .

يجدر بنا ، قبل ان نخوض في مضامين ذلك المؤتمر او الاجتماع،ان نذكر اسماء بعض العلماء والباحثين المجتمعين:

١ ـ البروفسور أكيبا مبونغ (غانا) ـ فيزيائي ـ رياضي ، جامعة غانا .

٢ـ البروفسور اوبيراتان (البرازيل) ـ رياضي ، جامعة كامبيناس .

٣ ــ البروفسور رينه برجيه (سويسرا) ــ استاذ فخري ، جامعة لوزان .

٤ ــ البروفسور نيكولو دالابورتا (ايطاليا) ــ استاذ فخري في المعهد الدولي للدراسات العليا في تريستا .

٥ ــ البروفسور جان دوشنه (فرنسا) ــ حامل جائزة نوبل في الفيزيلوجيا والطب عام ١٩٨٠ .

٦ ــ دكتور سانتياغو جنوفس (المكسيك) ــ باحث في معهد البحث الانثروبولوجي ، الاكاديمية الوطنية للطب .

٧ ــ البروفسور دافيد اوستون (السويد) ــ رئيس لجنة نوبل للفيزيولوجيا او الطب، استاذ ومدير قسم الفيزيولوجيا في معهد كارولينسكا.

٨ ــ البروفسور عبد السلام (باكستان) ــ حامل جائزة نوبل بالفيزياء عام ١٩٧٩ ، مدير المركز الوطني للفيزياء النظرية ، تريستا .

٩ ــ دكتور روبرت شلدراك (المملكة المتحدة) ــ دكتور في الكيمياء الحية ، جامعة كامبريدج .

١٠ ــ البروفسور هنري ستاب (الولايات المتحدة) ــ فيزيائي ، مختبر لورانس بركله ، جامعة كاليفورنيا .

١١ ــ دكتور دافيد سوزوكي (كندا) ــ عالم وراثة ، جامعة بريتيش كولومبيا .

١٢ ــ دكتور باساراب نيكولسكو (فرنسا) ــ فيزيائي C.N.R.S

١٣ ــ السيدة متراي دافي (الهند) ــ شاعرة وكاتبة .

١٤ ــ البروفسور جيلبر دورار (فرنسا) ــ فيلسوف ، مؤسس مركز البحث عن الخيال والتصور .

١٥ ــ البروفسور افيشاي مارجالت ــ فيلسوف .

١٦ ــ البروفسور يوجيرو ناكامورا (اليابان) ــ فيلسوف وكاتب ــ أستاذ في جامعة مايجي .

المساهمون والمؤلفون لوثائق العمل :

١٧ ــ دكتور سوستانشا غونا تيلاكه (سري لانكا) باحث في الانثروبولوجيا الثقافية .

١٨ ــ دكتور باساراب نيكولسكو (فرنسا) ــ فيزيائي C.N.R.S

المراقبون المتدخلون :

١٩ ــ السيد ميشيل راندوم (فرنسا) ــ كاتب وناشر .

٢٠ ــ السيد جاك ريكاردسون (فرنسا ــ الولايات المتحدة) ــ كاتب في فلسفة العلوم .

مقـدمـة :

يحتل مؤتمر البندقية صدر حركة الافكار التي تشكل تصورا جديدا للطبيعة ، وتكون المعنى المتضمن في عالمنا عبر الانسان ، والوعي الكامن في قلب مادة الكون .

لم يستطع المجتمعون في هذا المؤتمر ان يقدموا اجابة شاملة عن تساؤلاتهم . لكن المناقشة الختامية فتحت الابواب التي اغلقتها انواع معينة من اليقين . وعلى هذا الاساس ، طور المجتمعون الموضوعات التي تحكم العلاقات القائمة بين العلوم والفلسفة ، بين المادة والوعي ، وذلك لان تنظيم هذه العلاقات يحدد تشكيل أو تكوين امثلة او نماذج الحضارة .

تلزمنا هذه الخطة الاولية لنظام متداخل جذري بين أشكال الفكر على تأمل الحالات التي ظهرت فيها رؤى جديدة للمادة ، للانسان ، وللكون ، تواجه الافكار الغربية التي تقوم على ثنائية الفكر والموضوع ، الروح والمادة ، النفس والجسد ، الإله الخالق والعالم ، بأفكار تعتمد وحدة حقيقة واحدة تحتوي في ذاتها عناصر او مبادىء هذه الثنائية .

عندما نمعن النظر في الفكرة القائلة بالانفصال والفكرة القائلة بالوحدة نشاهد العالم الجديد للتفاعلات والروابط اللامنظورة التي تصل كل الاشياء مع بعضها ، وتجعل من العالم المرئي جوهرا اوكيانا كاملا ، متماسكا ومحسوسا ، لا تتفرد فيه الاجزاء بذاتها ولا تنفصل عن الكل الذي يكونها .

تقتضي الفكرتان المعروضتان طرح السؤال التالي: هل يزود الكون الاجزاء التي تشكله بالمعنى والقيمة ، ام ان الاجزاء تجعل منه ما هو عليه ؟

يمكننا أن نقول أن هذه المقولة العلمية وتلك المقولة الميتافيزيائية لا تدركان في موضوعية مشتركة . هذا لان الموضوعية العلمية تسمح بتحقيق الثنائية التي تضع بين قوسين قضية وحدة العالم وحقيقة هي اعمق من « الظاهرات » المتمثلة بالموضوعات ، والاشياء اللامتناهية في الصغر والكبر . فاذا كانت هذه

الظاهرات الاخيرة القاعدة او الاساس للاولى ، فان موضع تمفصل الواحدة مع الاخرى يتطلب البحث الدقيق في المستقبل .

وثيقة المؤتمر

تدارس العلماء والباحثون المجتمعون في مؤتمر البندقية الذي دعت اليه منظمة اليونسكو بالتعاون مع مؤسسة جيورجيوسيني ، القيم السائدة في عصرنا واتفقوا على النقاط التالية :

١ ـ نعتبر انفسنا شهوداً لثورة هامة جداً في نطاق العلم ، تولدت عن العلم الاساسي ـ الفيزياء والبيولوجيا بشكل خاص ـ ، ونتجت عن الثورة التي احدثتها في المنطق ، في الابستمولوجيا ، وفي حياتنا اليومية عبر التطبيقات التكنولوجية . ولكننا في الوقت ذاته ، نشهد على وجود تفاوت او اختلال كبير بين النظرة الجديدة الى العالم المنبثقة من انساق او منظومات طبيعية وبين القيم او المدلولات التي ما زالت تهيمن في الفلسفة ، في العلوم الانسانية وفي حياة المجتمع الحديث . هذا لان هذه القيم ما زالت قائمة ، بدرجة كبيرة ، على الحتمية الميكانيكية ، وعلى الوضعية التحليلية (العدمية) . وبناء عليه ، نشعر بالاذى السائد في هذا التفاوت او الاختلال الذي يحمل في تضاعيفه تهديداً رهيباً ينذر بالقضاء على النوع البشري .

٢ ـ بلغت المعرفة العلمية ، وفق ما تقتضي حركتها الداخلية ، الحدود او التخوم التي تمدها بقوة البدء بحوار مع الاشكال الاخرى للمعرفة ولما كنا نسلم بالفروق الاساسية القائمة بين العلم والتقليد ، فإننا نقر بتكاملهما الذي يتجاوز كل تعارض بينهما . لذا ، فان اللقاء الطارىء والمفيد بين العلم وتقاليد العالم المختلفة يتيح لنا المجال لكي نفكر بظهور رؤيا جديدة للانسانية ، وعقلانية جديدة ، قادرة على قيادتنا الى منظور ميتافيزيائي جديد .

٣ ـ لما كنا نرفض كل نزوع مجموعي أو تجمعي ، وكل منظومة فكرية مغلقة ، وكل طوباوية جديدة ، فإننا ، في الوقت ذاته ، نعترف بالحاجة الماسة الى بحث متداخل التنظيم يقوم على تبادل ديناميكي بين العلوم « الرياضية » والعلوم « الانسانية » ، الفن والتقليد . والحق أن مثل هذه المعالجة او النظرة المتداخلة والمتبادلة التنظيم مسجلة في دماغنا ، وتتجلى في التفاعل الديناميكي القائم بين نصفي كرة الدماغ . وهكذا ، تستطيع الدراسة المقارنة للطبيعة والتصور ، للكون والانسان ، تقريبنا من الواقع ، وتسمح لنا ، على نحو افضل ، بمواجهة تحديات عصرنا المختلفة .

٤ ـ ان العرض الخطي للمعلومات يخفي التصدع او القطيعة بين العلم الحديث والتصور السابق للعالم . وعلى هذا الاساس ، نعترف بضرورة البحث عن طرائق جديدة للتعليم تاخذ في الحسبان منجزات العلم التي تنسجم الآن مع التقاليد الثقافية الكبرى ، التي تجعل حفظها ودراستها المعمقين امرا اساسيا .

٥ ـ تتكشف تحديات عصرنا ـ تحدي التدمير الذاتي لجنسنا ، التحدي المعلوماتي ، التحدي الوراثي الخ ـ باسلوب جديد عن مسؤولية العلماء الاجتماعية ، في مبادرة وتطبيق البحث . فلئن كان العلماء قاصرين عن اتخاذ القرار بصدد تطبيق مكتشفاتهم الخاصة ، فمن واجبهم الا يساعدوا على نحو سلبي في التطبيق الاعمى لهذه المكتشفات . وفي رأينا ، تتطلب ضخامة التحديات المعاصرة الاعلام المكثف ، الدائم والمثابر للرأي العام ، وخلق اجهزة للتوجيه واتخاذ القرار ، تتصف بطبيعة متعددة ومتداخلة التنظيم .

٦ ـ تؤكد نهاية النظرة التقليصية وبداية حقبة ترفع فيها العالم رأسه ليطل على ما يقع وراء مجهره وذلك من اجل اقامة صلة بين ما يرى وما يعرف باعتباره كائنا ارضيا متماليا يجمع السماوي والارضي في آن واحد .

حقيقة وجوهر مؤتمر البندقية

تعد وحدة الكون ، وهي الرؤية الكلية للوجود ، الرباط القائم بين العلم والتقليد . وفي هذه الوحدة ، او الرؤية الكلية ، يحتفظ كل من العلم والتقليد باسلوب معالجة خاص ، ويظل كل منهما في نطاقه الخاص .

تحققت هذه الرؤية الكلية في مؤتمر البندقية ، وتجلت وحدة الضدين الظاهرية على غرار ما حدث في مؤتمر تسوكوبا الذي انعقد في اليابان عام ١٩٨٤ في لقاء ندعوه « برج الوحدة » وقد عالج المؤتمرون الوثيقة التي صدرت عنهم في حوار دقيق متقن .

يمكننا ان نقول ان مؤتمر البندقية بدا وكانه المنعطف والتحول الأكبر في تاريخ العلم والفلسفة . فهو يتوجه باستنتاجاته الى الازمنة الحديثة ، والى اولئك الذين يهيئون المستقبل الذي تحدث عنه اندريه مالرو اذ قال : « المستقبل .. اما أن يكون ميتافيزيائيا ، او يفضل الا يكون . ويؤدي هذا القول الى الاعتراف بأن الحقيقة ليست كمّاً فحسب ، بل كيفا ونوعا ايضا . ولا نبالغ

اذا قلنا بأن بحثنا عن القيمة يمدنا بمعرفة « الباقي » .. والواقع أن كلمة « الباقي » ترمز الى التكامل أو التاليف او التركيب الذي يقابل كلمة التفكك او التحليل . ونحن نعلم أن التحليل او التفكك يتناغم مع الرعب المطلق ، وان التوحيد يتناغم مع الانسجام . وعلى هذا الاساس ، نستطيع ان نتساءل : هل اننا نشهد ولادة فردوس جديد لا يتصل بجحيم مقابل ، ونهاية علم خال من الوعي ؟ ذلكم هو املنا .

لما كنا نعيش النتائج الفكرية التي نعتنقها ، فمن واجبنا ان نبذل جهداً لاحداث تعديل او تغيير في مجرى الاشياء وفي مسيرة التاريخ . ولا شك ، ان الفكرة التقليصية التي خلقت العالم على صورتها تتبوأ المركز الاول في نطاق التعديل وتفسح المجال لاحلال تصور كلي هولستي . ولما كان موضع العلم يشتمل على تعيين حدوده ، فان العلماء يجدون انفسهم دائما ، وقد بلغوا حد المعرفة ، في وضع تبرز فيه الاسئلة والقضايا الكبرى التي تكسبهم رؤية جديدة للحقيقة والواقع ، لانفسنا وللعالم ، رؤية تتجلى في هيئة وحدة عميقة وفعالة فاعلة في كل الاشياء والكائنات . وفي هذه الرؤية تتلاشى وضعية القرن التاسع عشر ، هذا ، لأن الانسان ــ الموضوع والشيء ــ يكتشفان بأنهما يمتلكان تصورا وخيالا لا حدود لهما ، وان الكون ، على غرار الرياضيات ليس الا حقلا من الاحتمالات . فليس ثمة لبنات اساسية ، بل هنالك « كل » هو في ذاته لبنة « الكل » اعظم . وهذا ما ندعوه ، في وقتنا الحاضر ب : الرؤية الهولستية ــ الكلية .

تشير الواقعية الجديدة التي ينادي بها الفيزيائيون الى حقيقة لا تنفصل فيها الطبيعة الداخلية للاشياء عن طبيعتها الخارجية . ووفق هذا المنظور ، يعد الكون صورة للمنظار الذي من خلاله نراقبه . ومع ذلك ، يحيا الكون حقيقته الخاصة الواقعة الى ما وراء ملاحظاتنا التي تحل تصوراتنا محل طبيعة الحقيقة .

لا نبالغ اذا قلنا ان الروح العلمية الجديدة التي كشف عنها مؤتمر البندقية تتحدد في وفاق مع كل التخوم : تخوم الملاحظة ، تخوم التحديد ، تخوم تصورات الزمان ــ المكان ، تخوم ما هو قابل للمعرفة وما هو قابل للملاحظة ، وما هو قابل للفهم والادراك . ونحن نعلم ان اكتشاف الحقيقة ، ونحن نسير في هذا الطريق الرائع ، يتجاوز الانسان الذي لا يمتلك عينين للرؤية .. والحق ،

ان العينين اللتين تريان ، تدركان أن الكون يعيدنا الى انفسنا ويتكشف لنا بوضوح .

اكد مؤتمر البندقية على وحدة الطبيعة ، وهذا يعني أن الطريقة العلمية والفلسفية قابلة للتغيير او التعديل . وعندما يقول هنري ستاب ان الفكر فعل وعمل ، فانما يعني ان قوله هذا يتساوى او يتطابق مع الطبيعة الفيزيولوجية والنافذة او الثاقبة للفكر . بالاضافة الى هذا ، يشير قوله الى عدم وجود اي فرق بين تفاعل الجزئيات التي ترسم حقول الطاقة وتفاعل افكارنا . وبالفعل ، نجد بين الكون الحسي وكون الذات او النفس ذات التماثل الذي نجده بين الكون المقاس او القابل للقياس وبين المظهر الكوانتي لهذا الكون ذاته . وكما أن جانوس يمتلك راسين وجسداً واحداً ، كذلك يكون المكان والزمان كوناً يرسم مستويات عديدة للحقيقة والواقع دون أن يفصل بينها .

تشير العبارات السابقة الى اننا نجتاز مستوى الحقيقة الى مستوى آخر ، تماماً كما نجتاز من حالة وجود الى حالة أخرى . ولما كانت حالات وجودنا غير محدودة ، فانها ، مع ذلك ، تخص ذواتنا . وعلى هذا الاساس ، لا نخضع كالعلم ، لحدود . فالانسان صانع ، او خالق ، يخاف لا نهايته الخاصة . وهكذا ، تكون اللانهاية القضية الاولى في الرياضيات . فكل جزء من اجزاء الخط يستمر دون نهاية ويعيد تشكيل لا نهايته . ويمكننا أن نتتبع هذه اللانهاية في تعبير خطي واحد . والحق ، ان هذا الخط ليس الا خطاً افقياً يعبره خط آخر عمودي . وهذا يعني ان الخطين يتلاقيان على نحو تصالب صليب . ونتساءل : هل اغصان هذا التصالب الصليب وحيدة الاتجاه؟نجيب: كلا ، انها تتحد في كل الاتجاهات ، وتتنوع وتنعطف الى كل الاتجاهات ، من الماضي الى المستقبل ، ومن المستقبل الى الماضي . ويغدو مركز تصالب هذا الصليب نقطة لا اتجاه لها ، وهي على صورة اللانهاية او ما هو ابدي ،.. هي خارج الزمان ، واعني أنها حاضر ابدي .

نقول : هذا الحاضر كائن .

تحدث علماء الفيزياء ، خلال الخمسين سنة المنصرمة ، عن مستوى ثالث للحقيقة ، دعوه المستوى دون الكمي . واطلقوا مصطلح البوتستراب على الرؤية الجديدة للفيزياء . ولقد بيّن الفيزيائي جفري شيو ، من جامعة بركله ، أن عالم الجزئيات يبسط امامنا حقيقة واحدة ـ وليست هذه الحقيقة

خاصة بالجزئيات بقدر ما هي خاصة بتفاعلاتها . فاذا كانت هذه التفاعلات تتماثل مع بعضها ؛ فلا بد لها ان تتجاوب مع قانون رياضي واحد . ثمة كليات فلكية للاحداث المتماثلة تعد واقعة او حادثة واحدة . والحالة هذه ، نعلم ان هذه الواقعة النهائية لا تقبل الوصف بزمان ايا كان . وببساطة نقول : هذه الواقعة كائنة . ويسمي جفري شيو هذا الكيان ، او هذه الحالة المتميزة بوجود وحيد واقعة مباغتة او فجائية . والحق ، ان الديمومة الزمنية ، مهما تكن في حدها الادنى ، تعجز عن وصف هذه الواقعة . واذا اوجزنا راينا قلنا : ان كلية الكون تكون ، اي انها كائنة . . . ذلكم و البوتستراب؛ المصطلح الذي يعني ان الحذاء المعقود على القدمين لا ينفك عنهما وهكذا ، تبدو امامنا حقيقة الرؤية الكلية الشاملة .

في هذا المنظور ، يمثل مؤتمر البندقية واقعة هي افتتاحية جديدة . وتحدثنا هذه الافتتاحية عن انبثاق رؤية جديدة للعالم ، **وامكان البحث . . حرية البحث .**

ولئن كان الفيزيائيون الحديثون لا ينضوون تحت مقولة الحكمة او الصوفية ؛ لكنهم يواجهون وضعا متافيزيائيا هو بعد : بعد التفاعلات التي تعكس وتنتشر على نحو متساو ، وتعد القلب والمقدس . **فاذا كان الانسان ينتمي الى الكون ، فانه ملتزم للنظر اليه من خلال مبدا التماثل او التطابق الذي هو الذات العميقة . وعلى هذا الاساس ، يواجه الانسان حبا آخر عجائبيا وخارقا يجهله . ويتخذ التيقظ تنوعا من الاشكال : اذ يستطيع الانسان ان يدحض كل ما هو قابل للملاحظة ، والاستنباط والتحليل . لكن هذا الدحض لا يعكس عجزي الخاص عن طرح سؤال هام هو : ما تماثل الحقيقة او الواقع ، عندما تفلت من ملاحظة الانسان ؟**

هكذا ، يتناغم الحقيقي او الواقعي مع الحي . وليس هذا الحي الا كيانا او وجودا بيولوجيا ، فيزيائيا ونفسيا لا يقبل الانقسام . **فالحي ، وهو على نحو مستقل عني ، يضمن ويعدل قواه ، ويحسب لكل المعطيات حسابا وذلك لكي يتجانس ، ويتبع مجراه على نحو محدد . . وتتغلب الانتروبي السالبة النفتروبي على الانتروبي[١] . . . ولا يكون الكون سوى حركة . . ويكون تاليا**

---

١ ـ البنى الحية او المفكرة تشتمل على زمان ـ مكان للروح تتواجد مع زمان ـ مكان المادة. تزداد المعلومات مع الزمن . . وهذه المعلومات لا تقبل تراجع او نقصان الذاكرة ؟ .

«حادث يعقب حادثا آخر»، او حد النسبة الذي يذكر ثانيا . منطقيا، تناظريا، وحرا في ان يبدع دون توقف اشكالا جديدة للحي . وبهذا المعنى ، تعبر الحقيقة الكونية والمادة في كليتها عن حرية الكينونة ، التي هي حريتنا . فالانسان لم يعد محددا ، بل حرا في هذا العالم من التفاعلات التي تكشف عن حضوره . وكما يقول هنري ستاب « يتجلى فكره في العمل » . وفي الحقول المفعمة بالحياة ظاهريا ، من الولادة حتى الموت ، يقترن الانسان او لا يقترن مع هذه الحرية ، ويصبح ، او لا يصبح ، قوة فعالة او مانعة وقمعية لذاته وللاخرين . اما القدر فانه يحمل الينا مفاجآت . لكن هذا القدر ليس هو المصادفة او السببية المشبوهة . بل هو الرؤية التي تنمى على نحو دائم على ما نعتبره حقيقة . وتمتلك هذه الحقيقة التشبيهية ، اي المجسمة ، القدرة على تذكيرنا بأننا أبناء الارض والسماء .

انتهت الحتمية الميكانيكية في مؤتمر التدقية ، وبدا العلم يحيا حركته الداخلية الخاصة . وبالاضافة الى ما توصل اليه المجتمعون في هذا المؤتمر من مواجهة الحي وحرية الكائن ، فقد حاولوا ان يتفهموا كيف يعمل هذا الحي بدقة ونفى العلماء المجتمعون ان تكون الجزئيات معلومات اوتوماتيكية لها تأثيرات متكررة ، واكدوا انها تعبر عن صفة تشير الى انها ذكية وعاقلة ، وان الحياة تعبير عن كل ، وانها تحمل في ذاتها اهتماما متحد الاتجاه بالنسبة لهذا الكل . وبهذا الخصوص قال ادنيغتون : الكون عقل . وتمتلك الجزيئات زمانا ، مكانا وصيرورة خاصة ، فهي تشكل ما نحن عليه ، وتستقل عنا في الوقت ذاته ، ونستطيع ان نقول بانها تشكل شخصيتها الخاصة . ووفق ما يقول ادنيغتون : نمتلك صيرورة ، ادراكا ، وسهما للزمان وفق مستواها ، تماما كما نمتلك مثلها في عالمنا الخاص .

اقر العلم سابقا بوجود نموذج او نمط محدد للحقيقة مؤلف من القوانين المكتشفة عن طريق النظرية ، والخاضعة للتجربة ، تفصح عن نموذج ساكن وموضوعي للكون . لكن العلم ، في يومنا هذا ، ينكر مثل هذا النموذج ويعلن وجود نماذج او انماط للكون لا تحصى . تقول الحكمة القديمة : لا يوجد موضع في العالم تستطيع ان تسند راسك عليه . ويقول الفيزيائي الحديث : ليس ثمة مكان نستطيع ان نضع فيه نظرية . ويضيف قائلا : هنا يكمن تفسير العالم ولهذا السبب ، لا توجد فيزياء كتلك بل توجد انماط فيزيائية خاصة بالفيزيائيين . . هي فيزياء الفيزيائيين ، هي فيزياء الاحتمالات . وهكذا ،

لا تستطيع ان تحتجزنا في منظومة . هذا ، لاننا نعلم ان الانسان والمادة يتميزان بصفة مشتركة : هي الحرية . وعندما نتحدث عن حقول الاحتمال نستبعد التجريد ونعني انه ليس ثمة غيرنا من يختار وجهة المصير . فليس الكون الا لعبة من المرايا التي تعكس وترسل لنا قضايا واوضاع الكون التي نريد اخضاعها ونحن نوسعها . يقول هايزنبرغ : « يظهر الكون لنا شبكة معقدة من الاحداث تنعقد فيها علاقات وصلات طبيعة مختلفة متناوبة حيث تنتظم او تتحد لتحدد بنيـة الكـل » .

نحن نعلم ان الحقيقة لا تدرك . لا ترى ولا تقبل الحجز . وانها ، على نحو ظاهري . تعبير للطاقة او حركة لا منتهية تولد حركة لا منتهية على نحو سواء. ونحن . لسنا جزءا الا في صيرورة دائمة مثابرة . ولا هدف لنا الا ان نكون منطلقا ينمو حيث كان : ينمو بالمعلومات والوعي . وكما يقول ستاب : « ليس الجزيء البسيط كيانا موجودا على نحو مستقل . انه ، في جوهره ، كل من العلاقات التي تتحد مع خارج الاشياء الاخرى » .

اعترف علماء وفلاسفة المؤتمر بوجود بعض الفيزيائيين الذين لا يأخذون بهذا الراي . هذا ، لانه يصعب علينا ان نقيم الدليل الفيزيائي . إن النموذج الذي جعل منه نطاق عمله وكرس له افضل ما لديه ، ليس الا نموذجا محتملا بين النماذج الاخرى . وفي هذا السياق ، يؤكد فريتجوف كابرا امكان عـزل ووصف عدد من الظاهرات كموضوعات في ذاتها . لكنه يضيف قائلا : « هـذا مثال لا يصح الا في بعض النطاقات المحددة للتجربة » . وفي عمق والى ما وراء شرح من هذا النوع ،تظهر لنا نهاية الفيزياء النظرية ، وتتجلى لنا فيزياء تأخذ على عاتقها مسائل ليست هي من دائرة اختصاصها الظاهري بقدر ما تمت الى الفلسفة والمتافيزياء . وعلى هذا الاساس ، يوافق ستيفان هوكينغ ، العالم الاختصاصي في الجاذبية والاستاذ في جامعة كامبريدج فريتجوف كابرا اذ يصرح لا يمكننا ان نضع تنبؤات او ننشىء تبصرات مفصلة الا في الاوضاع الاكثـر بساطة ، حتى لو وفقت الفيزياء الى نظرية موحدة تامة .

اصبحت الفيزياء في ريب من امرها ليس لانه يستحيل عليها ملاحظة جزيء بمعزل عن تعديل الملاحظ للجزيء الملاحظ ــ مبدا هايزنبرغ في الريب. وفرضية بل ــ ، بل لان هذا التداخل ــ وهو تشابك حركتين متموجتين من تردد واحد ــ يخلق حقلا من العلاقات بين المراقب والجزيء . نحن نخلق الواقعة التي نريد ملاحظتها . وينجم عن خلق هذه الواقعة تأثيرات ونتائج خاصة بها ، بتداخل فعلها او تاثيرها ، في الوقت ذاته ، مع حقول اخرى ومع انفسنا .

تعد العبارات السابقة موضوعا مذهلا يدعونا الى التأمل . وهذا يعني أنني استطيع ان الحق نفسي بنفسي ــ اضم نفسي الى نفسي ــ ، واستطيع ان اراقب نفسي من خلال نفسي ، بحيث انني اراقب . وفي هــذه الحال ، اكــون مرآة نفسي ، يقول برنارد سبانيا « إني اراقب ما يراقبني » وهكذا ، يمكننا ان نقول إن كون كل الاحتمالات هو الكون الذي تدخل في احتمال واحد حقيقة او واقعا يصبح في الوقت نفسه عاما انما يظل واقعا او حقيقة مفتوحة ، غير معروفــة النتائج . وعندما نتساءل : ماذا نفعل عندما تتوارى الحقيقة التي نتخيلها أمامنا، بحيث انها لا تتوقف عن الوجود نهائيا وتكون عصية على الفهم ؟

تكون هذه الحقيقة عصية على الفهم عندما نعمل على تطبيق العقل وانساق الاستدلال على ما يشمل عقلنا وروحنا : هذا ، لان دماغنا لا يسمح لنــا ان نتصور اللا نهاية . ومع ذلك ، يوجد في الانسان الذكاء المبدع الذي هو الابداع ذاته . لذا ، لا نستطيع ان تكون في داخلنا ملاحين كونيين تكتشف القوانين الا عن الطريق النوعي وفي العودة الى الجوهر .

يمكننا ان نقول ان اكتشاف العلم للوعي بعد حصيلة حتمية سيـّرة في طريق مسدود . وعندما نعجز عن انجاز محاولتنا لتوفيق نظــام العالم وتوحيده او ادماجه في نطاق السببية ، يتوجب علينــا ان نعترف بأن الاشياء هي ما هــي وليست شيئا آخر . عندئذ ، يستطيع العالم ان يسترد عصا الباحث ، ويطرح من جديد اسئلة ويواجه قضايا مخلفا وراءه الافكار الموضوعية القديمة . وهذا ما فعله في البندقية عدد من الفيزيائيين والباحثين في اكثر حقول العلم اتساعا ، وفي نطاق علم النفس ، والعلوم الانسانية والدين . وفي هذا السياق ، كان مؤتمر البندقية حادثة غاية في الاهمية ، حادثة تميزت ، للمرة الاولى في التاريخ ، بتقسيم الدراسة بين الباحثين عن الوعي الجديد ومنظري الفلسفة الوصفية والمادية . وهكذا ، فان الثورة الكبرى التي نحياها تصدر عن العلماء انفسهم . فهم يصرحون بأننا بلغنا ، بل وقفنا الى النهاية او الغاية التي توختها امكانات معرفتنا العلمية ، بمقدار ما هي طريقة فريدة ، وقاصرة على المعرفة .

يمكننا ان نقول ان المؤتمر تمخض عن امرين : ١ ــ وعي جديد للاشــياء . ٢ ــ قوام جديد للكلمة ذاتها ، بحيث ان الكون لا يشتمل في النهاية الا على مغزى وحيد : ان يكون هو ذاته في كل اجزائه ، ان يكون هو الوعي : وعي هــو ، في

الوقت نفسه ، ارضي ، كوني ومتسام ، تتوقف فيه الكلمات ، والافكار ، والكائنات ، والخلايا والذرات ان تكون موجودة لذاتها ، تكتشف من جديد اتصاليتها المشتركة . وفي هذا المنظور ، لا تستطيع الشجرة ان تخفي الثمرة ، كما لا يستطيع التصور ان يخفي الكل .

التقى الحاضرون في مؤتمر البندقية من فيزيائيين ، وبيولوجيين ، وفيزيائيين فلكيين ، وانثروبولوجيين ، وعلماء نفس وفلاسفة ، وتوقفوا معا من خلال أعمالهم واكتشافاتهم الخاصة عند حدود معينة تتارجح فيها الحكمة القديمة في الحكمة الجديدة ، وتؤيد الحكمة الجديدة الحكمة القديمة .

يمكننا ان نلخص النتائج المباشرة لمؤتمر البندقية :

١ — كل عالم ، مهما يكن نطاق اختصاصه ، يدرك ، من خلال تجربته الخاصة ، بأنه لا يوجد حكم مطلق لتمثل العالم . والحق ان مثل هذا الانشاء الذهني ، العلمي والنظري ، قد يجد ما يدل على رفضه لدى تعارضه مع المعطيات التجريبية .

٢ — دلت البحوث الجارية في نطاق الفيزياء الكوانتية ، اننا نضمن انفسنا في الواقع الذي نراقبه ، وان الحد الفاصل بين « المراقب » و « المراقب » ديناميكي ، متحرك ، متبدل . فالواقع «الموضوعي» الصرف ، الذي تحدث عنه علماء القرن التاسع عشر ، ليس اكثر من انشاء ذهني ، يفيدنا احيانا ، ويضر بنا عندما نجعل منه عقيدة ثابتة .

٣ — يشير البحث الى وجود مطابقة بين فكرنا والعالم . لان النظرية العلمية لا تتعين فقط بالوصف البسيط لما هو معلوم . . انها تتوقع ، تحدس ، وترفع الحجاب عن المجهول بقوة تنبئها . فقد تكون النظرية العلمية مجردة غاية التجريد ، ورياضية في صياغتها ، غير انها تؤدي الى تنبؤات محسوسة واختبارية لما لم يلاحظ ابدا قبلا .

واخيرا ، نستنتج المضامين الفلسفية العلمية لمؤتمر البندقية :

الطبيعة ومسالة الاضداد :

قد يكون الاكتشاف الحسي والتجريبي لمستوى لا مرئي يعتمد اعضاء الحس — هو المستوى الكوانتي — ، حيث تكون القوانين مختلفة تمام الاختلاف عن المستوى المرئي لحياتنا اليومية ، الاسهام الاعظم للعلم الحديث في المعرفة

البشرية . ويعد التصور الجديد المنبثق ــ وهو مستوى المادية ــ واحدا من التصورات التي تستطيع ان تؤسس رؤية جديدة للعالم . هذا،لان عالم الاحداث الكوانتية يختلف اختلافا تاما عن العالم الذي نألفه .

يبدو أن وحدة الاضداد هي التي تسود هذا العالم الجديد . فالجواهر والكيانات الكوانتية هي جزئيات وموجات على السواء . والحادثة الكوانتية لا تنفصل عن موضوعها ؛ والعالم الجديد هو عالم الاتصال المتداخل الشامل ، والترابط والتفاعل . وتتواجد الاتصالية مع الانفصالية على نحو منسجم ، ونعني على نحو تضاد : الطاقة تتشكل وتتنوع بطفرات ، لكن عالمنا المرئي يبقى عالم الاتصال . الفراغ امتلاء ــ يحتوي على نحو كمون الاحداث كلها . ويعد العالم الجديد عالم الجيشان والفوران الدائم ، عالم التحويل ــ الهدم ــ والخلق ، عالم حركة بسرعات مذهلة . وتبلغ الطاقة المركزة في مستوى اللانهائي الصغير اقدارا عجيبة يصعب أن نتخيلها في مستوانا .

أصبحنا ندرك أن التشبيهات أو الاستعارات المستعملة لتوضيح القوانين الكوانتية بأسلوب بسيط غير وافية . والحق أن غالبية الاستعارات أو التشبيهات لا تصلح الا لتفسير قوانين مستوى ذات طبيعة مختلفة في جوهرها الا باللغة الكلاسيكية والعيانية . وهنا نقف في وسط الصعوبة ، لنجد أننا عاجزون ، في العالم الكوانتي ، عن انشاء الجديد من القديم .

وبالاضافة الى عدم ملاءمة الاستعارات ، نجد عدم ملاءمة المنطق واللغة المؤسسين على الواقعية الكلاسيكية . وفي هذا الوضع ينشأ التناقض الذي نفهمه بالمعنى الفلسفي : ما نبنيه او نركبه عن طريق الصراع المتعاكس . والحق ، أن مثل هذا الصراع لا يؤدي الى تنافر . وببساطة نقول : ان مايبدو متحدا في مستوى معين من الواقع يبدو متعارضا في مستوى آخر من الواقع .

تذكرنا التكاملية التي عرضها نيلز بور عام ١٩٢٧ بما يلي : يمكننا ان نصف جزيئا كوانتيا على نحو تقريبي بأنه ، من الوجهة الكلاسيكية ، جسيم وموجة ، ومع ذلك فهو ليس ، من الوجهة الكوانتية ، جسيما او موجة : فالجسيم والموجة يظهران وكأنهما معلمان متممان للجزيء الكوانتي الذي هو جسيم وموجة . اما في اللغة المألوفة ، فان هذه التكاملية تعود الى المعالم المقصورة على التبادل التي تبرز الظاهرات الكوانتية . وهذا يعني ان الظاهرات الكوانتية تكشف عن معالم ذات طبيعة مختلفة .

يتحدى الجزيء الكوانتي كل تصور عن طريق الاشكال في الزمان وفي المكان؛ هذا لانه يستحيل ان تبرزه على نحو عقلي – الا في المعادلات الرياضية – شيئا هو جسيم وموجة في آن واحد . اذن ، فالفصل بين التعارضات ينتج عن منطقنا ، عن لغتنا ، وعن طريقة تفسيرنا للنتائج ، وعن مستوى تعقيده اكثر من كمه . ففي المستوى الكوانتي ، يكون الضوء واحدا : هو ضوء وموجات وجسيمات .

يرى بور أن مصدر الفصام البنيوي للرؤية الكلاسيكية يكمن في الفصل الكامل بين الفكر والموضوع .

الوحدة في التنوع ، والتنوع من خلال الوحدة

نبدا في بحث هذه القضية بطرح الاسئلة التالية : كيف يعمل الكون ؟ هل هو شيء شبيه بآلة عجيبة ، مؤلفة من منظومات مستقلة عن بعضها ، ومرتبطة ببعضها ميكانيكيا ؟ وهل هنالك وحدة تحتية بضمها أو يركزها ذكاء أو عقل ديناميكي ، يتطور على الدوام ، ويباشر عمله في كل مستوى من مستويات الطبيعة ؟ هل هنالك قوانين تتخلل كل مستويات الطبيعة – الذرات ، الناس ، الكواكب الخ .) هي قوانين ثابتة تحدث نتائج أو آثارا مختلفة وذلك بحسب المستوى الذي تترك أثرها فيه ؟ هل هنالك تغذية متبادلة بين المستويات المختلفة للطبيعة ، أو هل يكون الكون آلة حزينة ، يرد حزنها الى ان كل مستوى محتوم بالتهديم والملوث عن طريق النمو أو التكاثر المستمر للفوضى ، والانتروبي ؟

يواجه الانسان صعوبة الاجابة الدقيقة والمحدودة عن هذه الاسئلة ، هذا ، لان الطبيعة تتراءى لنا في تبدل أو تغير دائم .. وان مايبدو جديدا في عصرنا هذا ، هو التقدم الكبير ، التجريبي والنظري للعلم الحديث ، الذي نجح في التوغل بطريقة رياضية مذهلة الى قلب المادة ذاته . اما اذا كانت طبيعة الاسئلة المطروحة تمت الى نطاق الميتافيزياء فانها قادرة على تقديم توضيح جزئي ضمن نطاق العلم . لذا ، لا تظل هذه الاسئلة محتجزة ضمن الخبرة الفكرية للانسان، بل تكتسب معالم جديدة في جوهرها نتيجة لاكتشاف التطابقات على صعيد المادة ، والكون المادي الذي نجد انفسنا مستغرقين فيه . وقد نتساءل : هل نعتبر انفسنا متفائلين ونحن نؤكد بداية مرحلة جديدة للمعرفة لا تستغني فيها دراسة الكون عن دراسة الانسان ، أو دراسة الانسان عن دراسة الكون ؟

عندما نتأمل معطيات العلم الحديث عامة ، والفيزياء والبيولوجيا خاصة ، نجد انها ترسم رؤيا للعالم يتواجد فيها التغاير او التباين والتنوع على نحو تناقض ظاهري مع وحدة المنظومات المتفاعلة . وعلى هذا الاساس ، يحفل معجم الفيزياء ، في هذه السنوات الاخيرة ، بكلمات مثل الوحدة ، التوحيد والواحدية . وبالاضافة الى هذه الكلمات . استطاعت الافكار الجديدة أن تحدد بعمق ادراكنا للعالم الفيزيائي ، للجزيء والكوزموس . وتتركز هذه الافكار كلها على مقولة وحيدة هي : توحيد جميع التفاعلات الفيزيائية (المادية) .

تختلف التفاعلات الفيزيائية الاربعة ــ التفاعل القوي ، التفاعل الضعيف، التفاعل الكهرطيسي والتفاعل الجاذبي ــ عن بعضها اختلافا كبيرا كما في شدتها كذلك في مداها . وعلى سبيل المثال، يمتلك التفاعل الجاذبي والتفاعل الكهرطيسي قوة او مدى لا منتهيا ــ انهما يتمرسان في المستوى الماكروسكوبي ــ، بينما يمتلك التفاعل القوي والتفاعل الضعيف مدى او قوة ضئيلة .

وعلى الرغم من هذا التنوع الهام ، يقتنع فيزيائيو عصرنا بامكان توحيد هذه التفاعلات في نظرية واحدة . انهم يفكرون باحتمال تناسق او تماثل واسع قادر ، مبدئيا ، على توحيد كل التفاعلات الفيزيائية (المادية) .

يتيح توحيد كل التفاعلات الفرصة لاحداث طاقة مذهلة . وبحسب ما يخبرنا هايزنبرغ : تتطابق هذه الطاقة مع حيز لا متناه : فلو كان البروتون كبيرا كالشمس ، لكان هذا المستوى التوحيدي متماثلا مع مستوى ذرة من الغبار متناهية الصغر . نقول هذا ، ونحن نعلم ان الطاقة المتساوقة مع التوحيد تعصى قدرتنا على بلوغها في مسرّعاتنا ، لكنه من المحتمل ان تكون قد حدثت في بدء الانفجار الكوني ، او في بدء التكوين . ففي ذلك البدء ، ساد التناظر الكامل العالم . وفي يومنا هذا ، لا نجد الا في الضوء بقية ذلك العالم البدئي ذات التناظر التام .

يرتبط الجزيء والكوزموس ارتباطا وثيقا، وان فهمنا للانهائي الصغير يعني فهمنا للانهائي الكبير .

يتألق تطور العلم الحديث في ولادة فرع جديد للعلم يعرف بنظامه المتداخل، ندعوه : الكوزمولوجيا الكوانتية . ويشير هذا المصطلح الى ان هذا العلم الجديد يتأسس على الوحدة القائمة بين مستويي الطبيعة ــ المستوى الكوانتي والمستوى الكوزمولوجي . وهكذا : تستطيع التفاعلات القائمة بين الجزئيات افادتنا بما يتصل بتطور الكوزموس كما تستطيع المعلومات المتصلة بالديناميكاالكوزمولوجية توضيح بعض معالم فيزياء الجزئيات .

لا تعد فكرة الوحدة بين المستوى الكوانتي والمستوى الكوزمولوجي قضية غير مألوفة كما تبدو للوهلة الاولى . وبحسب نظرية الانفجار العظيم تميز الكون ، منذ بداياته ، بنطاق أوحد صغير جدا . ففي ذلك الزمان ــ الذي دام من ٣٢٠ ــ ٤٣٠ ثوان بعد ظهوره ــ توجب على الصيرورات او التطورات الكوانتية ان تكون هامة ومهيمنة . ومن الطبيعي ان يكون الكون قد احتفظ بذاكرة للانفجار العظيم . وانما نتساءل : هل نستطيع أن نتحدث على نحو علمي عن نشاة الكون ؟ ومن اين تنشأ الطاقة الهائلة المبذولة لحظة الانفجار ، كيف نشأ الزمان والمكان ؟ الا يمكننا ان نقول ان العلم الحديث يلامس الطبيعة الماتافيزيائية لهذه الاسئلة ؟

يمكننا أن نقول ان العلم الحديث لا يمدنا باجابات محددة عن هذا النوع من الاسئلة . هذا . لان الكوزمولوجيا نطاق له تكوينه التام . والحق ، ان الاساليب المختلفة للتفسير لا تصاغ الا نتيجة لضغط ضرورة التماسك الذاتي على المستوى النظري والتجريبي .

تجابهنا بعض اساليب البحث بما يلي : لو ان الكون تضامن ، منذ بداياته، بمكان ــ زمان متعدد الابعاد . لكان على الابعاد المكملة ان تنطوي بسرعة قصوى في منطقة متناهية الصغر في المكان . وعلى الرغم من انها ستبقى خفية ، غير قابلة للملاحظة ، لكن بقاياها ستكون التفاعلات الفيزيائية المعروفة .

تتمثل الفكرة المذهلة التي تقتضيها الكوزمولوجيا الكوانتية في الظهور التلقائي او الذاتي للكون ، في أنها نتيجة للقوانين الفيزيائية . فالكون يبدو وكأنه قادر على خلق ذاته وتنظيم ذاته ، دون تدخل خارجي . وقد تكون الصورة الملائمة لتصور هذا التماسك الذاتي الديناميكي للكون مائلة في الافعى التي تعض ذنبها ، البداية في النهاية والنهاية في البداية ــ الرمز القديم المعتمد في الفنون .

ثمة ترابط او تماسك عجيب يبدو لنا وكأنه يسوس ، يحدد وينظم المستوى الكوانتي والمستوى الكوزمولوجي ... هو المستوى المتوسط ــ الانسان . فهل يتملص الانسان من هذه الوحدة التي تتجلى للعالم يوما بعد يوم ؟ وهل يكون العنف ، والفوضى ، وانعدام الترابط والتماسك من نصيب الانسان ؟ وهل تغاير الفوضى الانسانية التنظيم الذاتي والتماسك الذاتي اللذين يسودان الانظمة الطبيعية الاخرى ؟

* * *

العدوى في تشكل الفكر العربي المعاصر

فرنسوار مرشو

تاتي مقاربتنا لمفهوم « العدوى » الفكرية في فترة ابتداء تمفصل الاتصال الثقافي مابين الجماعات والمجتمعات على آليات مؤدية الى فقدان الثقافة المحلية لحساب الثقافة المسيطرة وانتهاء ، هذه الاخيرة ، الى نفي الاختلاف ، ورفض الاستقلال للثقافة الاولى المسيطر عليها ، لا بل ادانتها من اجل احتوالها والحاقها بعلاقة سيد / عبد . وخاصة لما ارتبط هذا الانمساخ ، تحت تاثير عمليات الاستبطان ، بدونية العبد امام غلابة السيد . وذلك عن طريق تبخيس الذات ونكرانها .

أ ـ اشكالية التثاقف :

بالحقيقة ، لم تطرح حالة التبعية المستمرة ، بحدة ، الا مع نشوء الحضارة الحديثة وانشاء الدولة ـ الامة في الغرب ، أي عندما تعاظمت آليات التثاقف بوسائل الاجبار ، في البداية ، ثم المراقبة ثم التخطيط ، حتى باتت كشرط مسبق لتغذية مطامع التوسع العسكري والسياسي الاقتصادي . فاذا كان الاعتقاد بأن ثمة مبدأ يستوجب التأمين على مكانة متميزة في مرآة المركزية الاجناسية التي صاغها الغربيون عن ذاتهم وعرّفوا من خلالها الشعوب الاخرى، فما هو الا ذلك المبدأ المنبثق عن المعايير والقيم التي خطتها هذه الحضارة . ثم بناء كل مفهوم عن التاريخ بمقتضى هذا المنظور المفرق مابين التاريخي وما قبل التاريخي ، مما ادى الى زج غالبية الشعوب الاخرى في منطقة مظلمة غير محددة ، مموضعة خارج التاريخ او خارج القانون . وكان على هذا المفهوم ان يضع مختلف الشعوب او المجموعات الثقافية في مسار تستأثر فيه اوروبا بالوصاية عليها . تتجلى مشروعية القيام بتفسير تطوري عن نمو الشعوب ، باسم هذه الوصاية وعلى ضوء بعض معايير هذا التفسير التطوري المحدد عن التقــدم .

فطبقا لمنطق اوروبا حدثت الشهادات التاريخية او اللا تاريخية ، **اذا ، لبقية الشعوب** . بهذا لم يعد ينطبق التعريف التاريخي لهذه الاخيرة الا في لحظة اتصالها بالغرب واحتوائها من قبله اي يوم توافقت مع حاجات الخطة المرسومة من قبل الاوروبيين .

بدءا من الطبيعي ، بعد اخذ التاريخ الاوروبي كمرجع او كمركز ، ان تتحول تواريخ الشعوب المحيطة الى اصفار على هامش الحضارة الغربية ، اي بدلا من اعتبار الثقافات او الحضارات بما تعبره عن ذاتها ، صار الاهتمام بها ، لسبب او لاخر ، يتم في لحظة اندماجها او اتصالها من موقع الدوني مع الغرب. من جراء ذلك اصبح تأمين الاستمرارية لتاريخ المركزية الغربية يعني تقطيع المجتمعات الاخرى الى شرائح ، ونفي وجود هذه الاخيرة مرهون بلحظة رفضها الدوران في فلك الغرب . لكن حيازة الغرب لمجال الاختيار او المبادرة في معالجته التاريخ العالمي ، هي التي جعلته يؤسس منظوره التاريخي على حساب الثقافات الاخرى ، حتى بدت معالجة الحوادث الخارجة عن الحدود الاوروبية تفسر بمدى ارتباط هذه الحوادث ، بطريقة مباشرة او غير مباشرة ، مع مرحلة من

مراحل التاريخ الغربي ، حينئذ يجري تقييم مقاربة هذه المرحلة ، بالمنظور الغربي ، بكونها انسانية ومفهومة تاريخيا . وقد لجأ الغرب من اجل حفظ صورة « مصيره المتعالي » ، باعتباره الطريق العالمي في معالجة مجتمعات ماوراء البحار ، الى انشاء نظام فكري ، محققا من خلاله اجماعا نسبيا على رسالته التحضيرية بين مواطنيه من جهة ، وبين بعض المستفيدين منه في المجتمعات المسيطر عليها من جهة ثانية ، فعلى هذا الاساس راح يعقلن ويشرّع لفتوحاته من خلال تقديمه المجتمعات الخارجة على حدوده بصورة « زوائد » عائمة اي ثمرة مراحل متدنية تاريخيا ومحكومة بالفناء .

لكنه لم يعتمد دائما على سياسة النهب والمدفع ، لانجاح فرض هيمنته وتغذيته نمط انتاجه الراسمالي وإملاء نظامه الفكري كحقيقة ضامنة للحضارة ، انما لجأ ايضا في مرحلة ماقبل الاستعمار الى اتفاقيات تجارية مع قادة الدول المحلية وساهم في اغواء وتجنيد انصار لمثاله في المجتمعات المحيطية المهمشة . وذلك عن طريق حملات مكونة من مجموعة من الجامعيين والاتجاريين العسكريين والموظفين والمبشرين والدعائيين والمغامرين . . وجل ما هدف اليه من وراء ذلك هو التعرف على الاماكن الاستراتيجية للاحتلال والنفوذ الى ضمائر الشعوب لتأمين تسخيرها بشكل افضل للقوى الاستعمارية . فلولا هذه الترتيبات الاولية ما قبل الاستعمار المنظم لتمكنت المجتمعات المغزوة من ابداع مفاهيم كفيلة بحل تناقضاتها الداخلية والانتصار على التهديدات القاتلة لتأمين استمرارها . لعل هذا مايفسر رفض المستعمرين الاعتراف بالقيم الخصوصية لمختلف الثقافات او لفكرة تاريخ متعدد حيث تخلق كل حضارة لنفسها معنى ودورا ونمطا خاصا لحياتها ، بصورة مستقلة عن الاخرين .

من هنا برزت اهمية تسخير المجتمع الغازي للمجتمع المغزو والحاقه به ، حتى بات هذا الاخير يجد نفسه مكرها على مسخ نفسه لكي يتمكن من الحفاظ على وجوده . لكن حصل هذا الانمساخ وتكريسه يوم قامت النخب المحلية نمذجة هويتها وفقا للدور الذي بدا مقروءا لها من قبل المجتمع المسيطر الطامح الى الهيمنة العالمية ـ مما جعل مهمة تأسيس التاريخ المحلي وتفسيره غير مقصورة على المبشرين والمستشرقين انما امتد للنخب المحلية المتلمذة على يدهم ، وذلك عن طريق استنطاق تاريخها المحلي من منظار التاريخ الغربي ووفقا للحقب المتعاقبة التي مر بها هذا الاخير : انحطاط ، نهضة ، اصلاح ، ثورة صناعية ، ديمقراطية ووطنية ، اي ثورة اجتماعية او اشتراكية .

بموجب هذا التحقيب صارت محاربة الانحطاط تعني تصفية النظام « الاقطاعي » المحلي وتبديد « الظلامية » المعزوة الى « الدولة الاستبدادية

الشرقية » اي بمقدار ما يتمثل التاريخ العربي ، على سبيل المثال ، لعالمية التاريخ الغربي بمقدار ما سيتمكن من استرجاع التحكم بالواقع المنفلت منه ، واعادة القيمة الرمزية والدلالية والوحدة للمجتمع ، في اطار الدولة ـ الامة كما لو ان ، بهذا التمثل ، لا يستطيع المجتمع التابع التفكير والنظر الى ذاته او الرد الا من خلال النماذج الفكرية المصنوعة من قبل المجتمع المسيطر.

لم يسهم هذا التوجه في مفاقمة دونية المجتمع الاول لحساب تفوق المجتمع الثاني فحسب انما ساعد ايضا على التدمير الذاتي ، ودفع الشعوب المغلوبة ، تحت ضغوط انسداد الافاق عليها ، الى **اوليات** الدفاع عن الذات **وحرضها** على التعريف بذاتها لتأكيد هويتها الخاصة بأمل توفير هامش من الحرية لها على الاقل . اذ يحتاج كل شعب ، للمحافظة على بقائه ، تحت وطاة التهديد بالاستبعاد او الامحاء ، الى التعريف بذاته واحتلال **موقعه في** الزمان والمكان .

كل هذه المسائل وغيرها حملتنا لاستنطاق اشكاليات الاستخدام الايديولوجي والمضلل لمبادىء : ثقافة مغلقة / ثقافة منفتحة : حضاري/بربري، نامي / متخلف ، حداثية / تقليدية / معاصرة / اصالة . كما اقتضت منا معاينة عواقب الاخذ الجاهز للمفاهيم عن الثقافة المسيطرة ولصقها قسرا ، باسم العالمية ، على الثقافة المحلية . لأن بنظرنا ثمرات اخذ المفاهيم المجلوبة كمسلمات بديهية او كصنميات معبودة في المجتمع المستقبل ، تؤدي الى تكريس العدوى وسد آفاق الحرية امام الطاقات المكونة واجبار السكان المحليين على العيش في شبه محتجزات ، كما يساهم هذا الانحباس في تعقيم المتخيل الخلاق واختزال العقل الى مجرد نفق ناقل للافكار المتصورة خارجا ، ويساعد ، في الوقت نفسه ، على تعزيز التبعية من جهة ، وطمس الواقع المعاش للسكان المحليين من جهة ثانية . الامر الذي شجع القوى الخارجية على تسليم دورها للشرائح المتشربة باخلاقها المركنتيلية والفردانية بالوكالة ، وقوى لدى القابضين على آلة الدولة المحلية ـ ثمرة التقسيم الاستعماري التقليدي ـ الشعور بالخوف والتهديد من الداخل . حتى اصبحت شروط التحضير تعني ، بالنسبة للنخب المندمجة بالنظام الغربي ، انتزاع السكان المحليين من ثقافتهم الخاصة وهي نمط عيشهم لابل من بيئتهم ليتوافقوا مع الحداثة الوافدة ويتآلفوا مع كل انماط استهلاكها .

على هذا الاساس بدت لنا مقاربة مقدمات العدوى ومسارها في غاية الاهمية من خلال العودة الى القرن السادس عشر لتبيان وضع الامبراطورية العثمانية في مرحلة ماقبل الاستعمار وكيفية انتشار الضعف فيها تدريجيا ، على الرغم من قوتها ، حتى وقوعها في المأزق المترافق ، بشكل مواز ، مع انفتاح الغرب على التغيير الاجتماعي السياسي والمعرفي .

٢ ـ انبناء النظام الغربي وتقسيمه للعالم :

جرى التفتيش ، في اطار النهضة الاوروبية ، عن قيم إنسانية متحررة اكثر فاكثر من عبادة الله المتعالي ، مصدر كل اخلاق ، لحساب نظرية جديدة في المعرفة مبنية على اولوية المعرفة الموضوعية في مجال التجربة والرياضيات ، وذلك عن طريق اعادة الاعتبار للعقل من اجل النفوذ ، ليس الى جوهر وقوانين الطبيعة فحسب ، انما الى قوانين تطورها الخاص . بالاختصار ، لقد أرسيت الشروط الاساسية لسياسة اقتصادية مركنتيلية طامحة الى انشاء سلطة غير مقدسة .

لكن لم تقم هذه النشاطات ، في المجتمع الاوروبي ، للسيطرة على الطبيعة من خلال اختراع وسائل الانتاج وبناء الآلات والحصول على مستوى معين من الصحة فحسب ، انما قامت ايضا ، رغم ذلك ، على سيطرة البشر بعضهم على بعض . الا ان مجموع الوسائل المؤدية الى هذه السيطرة والاجراءات المتخذة ، للابقاء عليها ، ولدت ، بالتالي ، شبكة مماسسة من المعارف السياسية والايديولوجية . الامر الذي دفع الغرب الى الانفصال عن الشرق وتنصيب نفسه وصيا على تحضير الوثنيين وغير المؤمنين « والهمجيين » ، بحجة انه يتوجب على البرابرة الخروج من « الظلامية » سواء عن طريق الحيلة العقلية او القوة .

انتظمت الحلول للمسائل السياسية الاقتصادية بموجب هذه الاستراتيجية البدائية المانوية القائمة على ثنائية صالح / شرير . كما لو ان وظيفة الغرب ، تقضي ، لكي يتعرف على ذاته ، بأن يحول نفسه الى تاريخ عام او الى اسطورة مؤسسة وإلا لا تستطيع وحدة « المسيحية ـ اليهودية » الغربية ضمان النجاح ، في حياتها السياسية التاريخية ، على حساب تواريخ الشعوب الاخرى ، بغير ذلك .

اذا كانت عقيدة الجنس البشري ، الواردة في التوراة ، قد حوربت ، لاسباب دينية ، في عصر الانوار ، باسم العقل ، كان لابد من انتظار القرن التاسع عشر لاكتشاف مناهج جديدة قائمة على مقاييس تجريبية كمية معادية للمسيحية السياسية . فبعدما كانت علاقات انسان القرن السادس عشر ، في الميدان التجريبي الواسع ، تقوم على روابط القرابة والتشابه والتجاذب البشري وتتقاطع ، بلا حدود ، مع لغة الكلام والاشياء ، بفعل هذه المناهج الجديدة صارت دراسة الانسان ماوراء البحار تعني العمل على عزله عن كل الظروف الاجتماعية التاريخية والثقافية المختلفة لتصنيفه مع الوحش ،الخارج في فرادته المفكرة ، عن قوانين العقل او الطبيعة الانسانية العامة ، حتى بات الحكم عليه يتضمن تجريده من معناه ووصمه ، بالمطلق ، باللاعقلانية العاريةعن التفكير . بذلك المنظور الذي يرى في الانسان مجرد كائن بسيط وغريب موسوماً بالوحشية ، تم تأسيس الخطاب « العلمي » ، ولاول مرة ، حول الاخرين بمنظار المركزية العرقية الاوروبية . ولاول مرة ايضا ، منذ وجود كائنات بشرية تعيش في مجتمع ، صار الانسان المعزول او الموجود في مجموعات مجرد موضوع جامد للعلم . من جراء ذلك حدث تقسيم العمل على هذه البسيطة مابين مجتمعات زراعية ومجتمعات صناعية ، حتى بلغ التنافس مابين الدول يترجم على اساس الحواجز البيولوجية ، الامر الذي ساعد على تجريد الجماعات الاهلية من كل مبادرة والتحكم في مصيرها وادخالها في دورة السوق العالمية المغذية لنمط الانتاج الراسمالي .

يفترض القبول ، وفقا لهذا المنطق بتصدير الاستعمار لعنفه او تدميره للخارج على اساس انه عقلاني او شرعي وضروري . كما يحق ايضا لنظرية الانثروبولوجيا ، حول الثقافات المسماة بالبدائية ، ان تكون عقلانية ولا يمكن للثقافة العربية المحلية ان تكون الا عقلانية مستعارة وليس بذاتها . مما يفرض ، في الواقع ، على عقلانية الثقافة المحلية الذوبان في الممارسة المعقلنة للانثربولوجيا المحكومة بمفهوم التطورية الوضعية للعلم ، بوصفها النموذج الوحيد للمعرفة . كانت الانثروبولوجيا في محاولة فهم الاسطورة ، تدمر المعنى المباشر المعاش ، بدعوى الاستئثار بحيازته ، وتضعه امامها على اساس انه موضوع سالب وجامد لا يدرك نفسه بنفسه ، وعليه القبول بما يسقط عليه من قوانين تجريبية كمية .

بذلك يصبح الدين والاسطورة والفلسفة المكوّنة للثقافة المسماة بالبدائية مرفوضة ومحفوظة في النظرية في نفس الوقت . وقلما تهتم هذه الاخيرة فيما اذا كانت تتعامل مع الثقافة الواقعية كتعاملها مع الاشياء او تهتم فيما اذا كانت الشعوب الاصلية وريثة حضارات قديمة . وفي حال اعتراف هذه النظرية بعظمة وروعة المجتمعات الاهلية الاستوائية القديمة فان وجودها مرهون بمقدار توافقها مع مصالح المركز .

بالحقيقة ، ان الخطاب المسيطر المماسس في القرن التاسع عشر ماهو إلا خطاب « الانسان الابيض » ، ثمرة عصر الانوار ، الذي يريد ان يكون وكيل المستقبل والمشرع لمبدأ التقدم . وتتصالح بموجبه الدولة المركزة الدستورية والعلم والجيش والصناعة والكنيسة المرسلة لتقاسم المهمات فيما بينها .

فاستعيض بذلك عن النهب اللاعقلاني والمصادرة للمغامرين والرواد الاوائل بادارة رقابية ومخططة اكثر فأكثر تتراوح بين كبت واجتثاث السكان المحليين وما بين تسخيرهم . لكن جرت هذه العمليات ولا تزال باسم « الحضارة » و « الحرية » او بعبارة اخرى باسم تقدم الانسانية جمعاء . راحت ايديولوجيا الفتح ، كي تبرر مهمتها العالمية ، تحتج بسند فراغ الدولة لدى الشعوب المسماة بالبدائية الخارجة على التاريخ ، ضحية اقتصاد الكفاف ، وتحرير المجتمعات الاهلية من « الدولة المستبدة » الشرقية ، المعزوة الى حضارتها القائمة على النظام المائي . فبعدما كانت الاطماع التوسعية مجرد حلم او طموح غير منظم لدى الفاتحين في الامبراطوريات او الحضارات القديمة المعروفة بدولها المتعددة القوميات ، صارت اليوم ، ولاول مرة في التاريخ ، اكثر تنظيما وواقعية ، على الصعيد العالمي .

اذا ، لم يكن الشرق مجرد اكتشاف سريع او عرضي في التاريخ ، بالنسبة للفاتحين انما موجوداً على اطراف اوروبا ومصنوعاً بما يتوافق مع المصالح الغربية . واوروبا بالذات هي التي قررت ، بالتواطؤ مع انصارها في الخارج ، ان يكون الشرق على ما هو عليه اليوم من خلال العلم وعمليات التنقيب والادارة المحكمة وبحوث الاستشراق الحديثة التي استوحى منها نابليون بونابرت توجيهاته إبان حملته على مصر . فبدلاً من ان تتحول هذه الحملة محلياً الى يقظة مجندة مختلف الجماعات المغزوة للدفاع عن تاريخها الخاص وهويتها المهددة ترجمت في اوساط النخب المحدثة المغربة الى منطلق اساسي للوعي والى عنصر مساعد على تحرير الشعب من الانحطاط والنسيان لحساب تاريخ وحضارة الفاتحين الجدد . ولعل هذا من جملة الاسباب التي جعلت الهجمات الاستعمارية المنظمة ، اعتبارا من مطالع القرن التاسع عشر ، تستثير رغبات قادة الدول المحلية للتحديث طبقاً للنموذج الغربي الزاحف .

٣ ـ التحديث من موقع الغازي :

لجأ حكام السلطة المركزية في نفس العصر ، للخلاص من المأزق ، الى تطعيم الدول بمؤسسات هذا النموذج : انشاء ترسانات ومدارس عسكرية حديثة واستحداث فيالق من الجيوش المؤتمرة بتوجيهات الخبراء الاوروبيين ، بأمل مماثلة الامم الحديثة . وانتهى هذا التعهد الى ادخال العلمنة الى آلة الدولةعلى الصعيد الاقتصادي والسياسي والقانوني ، حتى صار الدستور ، المنقول عن الثورة الفرنسية ، يعتبر قمة الحداثة القمينة باسترجاع التوازن والاستقرار للامبراطورية . الامر الذي شجع حكام المقاطعات العربية ، على سبيل المثال مصر وتونس على حذو حذوهم .

لكن نظراً للنتائج المشؤومة لهذا التحول المفاجيء القاهر وسياسة الهروب الى الامام وضغوطات التهديد للقوى العظمى ، آنذاك ، تعددت المقاومات الشعبية مطالبة بالرجوع الى الاصول كملجأ وحيد يمكنها من الحفاظ على استمرارية ولحمة الامة .

غير ان النخب المثقفة المحلية ، بدلا من تعضيد معنى الشؤون العامة والتأكيد على اختلاف هويتها ، انكبت على اعادة انتاج مفاهيم الحداثة الآتية من الخارج للتكيف مع ثقافتها ولغتها ومعاييرها وقيمها دون ان تبذل الجهود الجدية في التفكير او التساؤل حول الحدود التاريخية الاجتماعية لهذه المبادىء. كما راحت تطمس التناقضات والصراعات السياسية الاجتماعية المحلية وترى في الدولة منبعاً للاثراء ومسرحاً للنزاعات القبائلية للاستئثار بالسلطات . فاذا كان البعض اختار علناً الدلالات والمدلولات المنبثقة عن الآخر الغربي ، فان البعض الآخر راح يسقط دلالات هذا الاخر على العصر الذهبيالاسلامي بحجة التماثل او التناظر .

بهذا المعنى لم شعر النهضويون العلمانيون والاصلاحيون الاسلاميون بقصور الاصلاح وما نتج عنه من مركزية قسرية اتفقوا بالاجماع ، على الرغم من خلافاتهم الايديولوجية الظاهرة ، للمطالبة بسياسة ليبرالية انسانوية تقضي بتوزيع السلطات بالتساوي وتسهيل مسار التقدم . اما الديمقراطية او حرية المواطن فظلت وقفاً على النخب المحدثة بحجة ان غالبية السكان المحرومة ليست اهلا للتمتع بها ولا تسمح ذهنيتها المتحجرة واميتها بذلك .

لم يكن فشل الاصلاح ، الناجم عن اعادة انتاج مفاهيم كالعلمانيةوالعقلانية والايجابية الوضعية ، يشكل الشاغل الوحيد للمثقفين المحدثين ، انما ايضاً التقدم بواسطة الطرح القومي على غرار المثال الغربي كان مصدر اهتمامهم . فقد بدا ذلك حين طرحت فكرة القومية العثمانية تحت شعار الوحدة الاسلامية التي انتهت في مطالعالقرن العشرين ، تحديداً،الى انجاب العديد من الاطروحات القومية الداعية الى المركزة العرقية والتي ترى في الدين العقبة الكأداء امام النمو المتعاظم للامة . هذا المسار الذي ادى الى انهيار الامبراطورية وانفراط عقد الامة التقليدية الى اشلاء متطايرة والذي دفع باتجاه ولادة دويـلات اقليمية متعددة ، ومتطابقة مع سياسة التقسيم ، وخلق ، لدى المثقفين العرب هاجس التمسك بجملة من التعريفات حول الهوية القومية ، التي ، بدلا من ان تنسج القواسم المشتركة ما بين السكان المقسمين ، انتهت الى وضـع الحواجزالجغرافية والعرقية والثقافية والاجتماعيةواللغوية والدينية فيما بينهم .

فاستسلم القوميون ، دعاة التقسيم والمتوسلون حججاً ذاتية تاريخية ، لتبرير النظام القائم اي نظام التقسيم المصطنع وتعزيزه وتشريع انقطاعه عن محيطه ، وتغليب قرابته ، في الوقت نفسه ، مع الثقافة المسيطرة . كما لو ان مكمن الشر او الخطر ناتج عن الاختلاف الثقافي ما بين الاجناس او الاديان المجاورة بحد ذاتها ، والخير او الخلاص نابع عن النظام الجديد للقيم المجلوبة .

يكمن وجه المفارقة في هذا التوجه بمقدار تماهي النخبالمغتربة بهذا النظام الجديد بمقدار ما تتوهم اهمية انتمائها الى العالمية والتقدم ، حتى صار التمايز او الاختلاف عن الثقافات المحيطة ، الموصومة بالبداوة والتخلف او البدائية ، يعني معياراً للتفوق والحضارية . كما انتهت ابتكارات الفروقات المفتعلة ما بين الدولة المولودة حديثاً الى غزو جسم مجتمع كل دولة واثارة صراعات اهلية حادة ، متعددة الابعاد ما بين الاديان والطوائـف والقبائل والاقاليـم . . .

ونظراً لعدم وجود مرجعية مشتركة الى اي اجماع قومي ، واحتداد ازمة الهوية والصراع الشرس من اجل السلطة وعلى السلطة بين القوميين ، سيندفع هؤلاء الاخيرون الى تأسيس احزاب بمختلف الاتجاهات الايديولوجية السياسة المتطرفة ، هذا الوضع الذي سينشأ عنه جيل جديد من المناضلين القوميين ضد الامبريالية ، قبيل الحرب العالمية الثانية ، رأى هؤلاء ان لامناص من الحزب الواحد ، اذ به تستطيع الامـة العربية استعادة هويتهـا المفقـودة ووحدتها وحريتها واستقلالها ، والاعتراف بها في محفل الحضـارة الغربية .

فقد بدا لهؤلاء انه لا غنى عن الاشتراكية كبديل . اذ يتسنى لهم عن طريقها تسريع عجلة التقدم وتعبئة الجماهير من اجل مستقبل افضل ، في اطار الدولة القوية الموحدة . كما تراءى لهم في حال عجز الدولة ـ الامة الليبرالية عن تأكيد الهوية الواحدة . نظراً لتعددية مراكز السلطات وتعايش الجماعات في ما قبل الاطروحات القومية الحديثة ، فبمقدور الدولة الاشتراكية بذاتها ان تلعب هذا الدور في اطار دولة عسكرية محررة ، حيث يختفي اي تمايز ما بين السلطة والمجتمع .

لكن الشروع في هذه المهمة كان يتطلب توسيع قاعدة الانتاج بخلاف ما كان عليه الحال ، في السابق ، من سوء توزيع لثروة الامة ما بين المواطنين . كان على الاشتراكية ، كي تتجند لسياسة التصنيع والتنمية الضرورية ، بالدرجة الاولى ، ان تلجأ الى التراكم الواسع للرأسمال والاستثمار المكثف والعمل الجبري .

ادت هذه الشروط ، المتشابهة مع التجربة التحديثية الدولية لمحمدعلي باشا والمتقاطعة مع الخطاب الوضعي الاشتراكي او الماركسي ، الى ابراز الدور الريادي للاقتصاديين والتكنوقراطيين كابطال جدد في معركة الانتاج الصناعي القومي ، والى تسخيف كل بحث ثقافي منتج بالمقابل وتبخيس ما يسمونهم الاقطاعيين ثم الفلاحين لاعتبارهم من مخلفات المرحلة الزراعية البائدة ورمز للجمود والجهل والتخلف .

بيد أن هذه الاجراءات السريعة والفوقية احتاجت ايضا الى معارف جاهزة على شكل نظريات وبرامج منسوخة عن النظم التربوية والتنموية الخارجية ، ومسحوبة قسرا على المجتمع الاصلي ، مما فرض تأمين النقل المستمر لشريحة عالية من النخب المحلية نحو البلدان المصنعة بحجة نقل التكنولوجيا ، بالمقابل الى المجتمع الاصلي . لكن ما حصل في الواقع ، هو تعطيل الطاقات المحلية واستقالة العقل ومفاقمة عمليات التكييف مع الانماط الاستهلاكية الوافدة وعرقلة مبادرات المجتمع الاصلي في التحكم بمصيره بذاته . وذلك لغياب مسائل المعرفة المكبوتة والتنظيم والخلق للمفاهيم الجديدة والبحث العلمي التطبيقي ، كشرط للمعرفة الواقعية المطابقة ؛ عن مشاغل السلطة وعن غالبية النخب المثقفة في المجتمع التابع ؛ حتى باتت كل الطاقات مهدورة لكونها مصروفة نحو الخارج بحثا عن الرأسمال والتراكم .

كما أدت النظريات المتعالمة حول التبادل اللامتكافىء والتنمية والتخلف والراسمال العالمي ، المستمرة في اسقاط كل الاتهامات على الامبريالية دون الالتفات الى المسار الداخلي للتخلف المستبطنة آلياته ، بشكل منظم ، انطلاقا من النصف الاول من القرن التاسع عشر ، الى حرف الوعي عن المعرفة المطابقة لمسببات التخلف .

فلا تدهشنا قط ، بعد ذلك ، السياسات الاقتصادية ، الاكثر تدميرا للمبادرات الاجتماعية والفردية والجماعية ، عند استخدامها هذا الخطاب بما يتناسب ، في ردود فعله ، مع واقع عالم الاستعمار الحديث حيث لا يزال « العالم الثالث » غارقا فيه .

لا يثيرنا ما نشاهده اليوم من عواقب هذه السياسة الارادوية التي تقوم تحت غطاء ايديولوجية التنمية المنقولة حرفيا عن النموذج الغربي ، هي بالذات في استبطان التخلف وتأبيده لحساب المركز الراسمالي .

بذلك نستطيع القول ان الامتثال لهذا النظام ، كنمط للانتاج العالمي ، والانجذاب نحو التماهي به بالقوة ، فكرا وممارسة ، هما اللذان يحبسان كل امكانية للتنمية الفعالة الاصيلة ويخنقان ، ايضا ، كل عقلانية خلاقة منسجمة مع الحاجات الحيوية والتطلعات الانسانية للسكان المحليين .

ليس من قبيل المصادفة كون المجتمع الاصلي محكوم بتاثير الانماط الاستهلاكية الفكرية والمادية الوافدة باستنزاف ثرواته وخراب زراعته ، وتحويل ثقافته الى مستحاثة ، وشبابه الى شخصيات عائمة منفصمة او مشتتة ، اسيرة آخر الصرعات الحديثة او البحث عن منفى ، اما السكان فمهمشون ومجوعون ومقموعون بعد تحويل قسم منهم الى يد عاملة رخيصة برسم التصدير اوالتهجير الى البلدان الصناعية الغربية .

هذه هي القرابين التي تبرعت « الدولة القوية » في العالم الثالث بشكل عام وفي العالم العربي ، بشكل خاص ، بتقريبها للمجتمع الاصلي لمحاربة اسطورة التخلف والانتساب الى الحضارة باسم « العدالة الاقتصادية الدولية » او « حوار بلدان الشمال مع بلدان الجنوب » . اما الحوار ما بين الدولة والمجتمع فبات محكوما بحوار الطرشان والتنابذ .

لا شك ان الدولة القومية التي تحكم بالقوة لا تتغذى هنا من فلسفة عقلانية انما تعيش من تعميم مشاعر الخوف والاحباط لحساب توسيع آلات الرقابة والعقاب عليها . كما لو ان جوهر السلطة هو النفور المسمى بالنجاح ، وجوهر الطاعة هو الخوف المسمى بالانضباط ، حتى تحولت القداسة الى جملة من الاجراءات ، والمعرفة الى مجموعة من الوصفات ، والحكومة الى نظام من التهديد المستمر والمخالفة ، والايديولوجيات المستعارة المسماة بالفلسفية او العلمية الى مجموعة شروح مرددة استعراضية مرهبة ، والاخلاق الى اسوار من التحريمات بالاختصار العلم الى بضاعة باذخة مصنمة محكومة بالوجاهة الفارغة .

في الواقع ، قمنا بتاليه الدولة يوم استبعدنا السلطة الروحية لحساب السلطة العلمانية الوافدة ، واضفنا ممارسة العنف الى الفضائل المجردة للحق ، حتى صرنا اليوم نرى تحقيق الذات يجري مع روح الجماعة ، سواء كانت دينية ام لا ، بدلا من تحققها من خلال الدولة . فحيثما تطرح ازمة الهوية يعود الوعي الجمعي نحو الماضي او التراث لينهل منه الوحي والعون ، مما يضطره ، بالنتيجة تحت ضغوط الانحباس في الاصول ، الى التمسك بسلفية تعصبية غير منتجة .

شعرنا بالحاجة الماسة لاستنطاق اشكاليات العدوى وآثارها المادية على المجتمع بفعل انشطار المجتمع العربي الى معسكرين متناحرين ومتنافرين ، حداثي وسلفي ، ومشارفته على نوع من الصراعات الاهلية الحادة المدمرة للذات وذلك ليس من اجل اعادة الدور الخلاق للعقل فحسب ، انما من اجل دعوة المجتمعات المهمشة ، في الاطراف ، الى الانعتاق من دورها الاستهلاكي السالب على الصعيد الثقافي والحضاري ، لحساب نظام فكري جديد واصيل يحمل في ذاته حيوية عبقريته المبدعة .

الا ان بلوغ ذلك يفترض :

ــ اعادة نظر جذرية وجريئة في تاريخنا القديم والحديث والمعاصر برؤية اجتماعية تحليلية بعيدة عن الاختزالات والاسقاطات الايديولوجية الضيقة التي لا تخلو من منظورات استشراقية مغرضة او مجتزئة .

ــ اعادة النظر باطروحات الحركات الدينية اي اسباب صمودها التاريخي وكمونها حينا وظهورها حينا آخر ، بشعار الرجوع الى السلف الصالح ، بدلا من أن تتبرأ النخب المفرّبة والمغرّبة من مسؤولياتها من خلال الاكتفاء باسقاط الاتهامات المجانية عليها ، بشيء من الصراخ والرعب بحجة اصوليتها المتزمتة وارتباطها بالرجعية والامبريالية .

ــ القيام بتحليلات اجتماعية نقدية لاشكال الحداثة واسباب انتشارها في أوساط نخبوية دون ان تتفاعل مع البنى الاجتماعية والاقتصادية والثقافية في مجتمعاتنــا .

ــ الاهتمام بتعميق البحوث في مجالات التعليم والاجتماع والنفس والاقتصاد من خلال دراسات ميدانية تزيد من معارفنا المنتجة المطابقة لواقعنا . بدلا من ان تستمر العلوم الطبيعية والانسانية والفلسفة المستعارة ميكانيكيا عن الغرب والمطبقة في مدارسنا وجامعاتنا في انجاب منافذ سجالية لفظية عقيمة للاجيال الجديدة ، ومعارف مستلبة تكرس عدوى التثاقف ، من الموقع الدوني ، مهددة بانتشار حالات فصامية في شخصيات افراد المجتمع ، ولعل هذا ما جعل المفاهيم الفلسفية تقترن في اذهان الناس بمفهوم الثرثرة والترف الفكري النرجسي .

ــ العمل على تكثيف البحوث التاريخيــة الاجتماعية في مشــكلة الاقليات القومية ومعضلة الطائفية للتعرف على اسباب نشوئها وتشكلها التاريخي الاجتماعي الذي ترافق مع حملات التبشير الكاثوليكية والبروتستانتية وسياسة المستعمرين المركنتيلية ، لئلا تتحول ظاهرة الاقليات الى ورقة ضغط ابتزازية في يد الــدول الغربية ووسائطها في الداخل .

ــ التركيز على قضية تحرير المرأة والرجل برؤية جديدة منبثقة عن هموم وحاجات المجتمع الخاصة وبعيدا عــن المنظورات الغربيــة والمؤســساتية ذات المضامين التنجيرية المعممة لا التحريرية .

على هذا الاساس تبدو لنا اهمية العودة الى حقولنا الاجتماعية وفهمها من الداخل ، بمختلف تناقضاتها وصراعاتها ، لانتــاج عقلانية جديدة تستكشف القوانين التي تحكم المجتمع . هذه العودة تصبح ملحة للخروج بالتالي الى ذات اجتماعية متجددة ، انضج وأشد فاعلية ومرونة واكثر تحررا من الوان التفتت والقهر والاستعباد والاستغلال والافقار والتهجير .

★ ★ ★

الفكر السياسي
يعد هذه المادة
أبو بحر الخش

JEFFREY RUBIN
JESSWALD SALACUSE

القـــــوّة في المفـاوضات الـدولية

بقلم : جفري روبن وجسوالد سلكوز

ان البشر هم دائما في محادثات مع اشباههم . الزوجات يتحدثن في هذا او ذاك مع ازواجهن ، والمتعهدون يبحثـون شروط العمل والمرتبات مع العمال ، وبعض الدول تدخـل في مباحثات مع دول اخرى . ورغم ان المفاوضات اصبحـت جزءا اساسيا من الحياة اليومية لاسيما منها الدولية ، فان العلماء لم يشرعوا بدراسة هذه الظاهرة دراسة منهجية الا من وقت قريب .

ان المفاوضات بين فريقين متفاوتين قوة انما هي مسالة معقدة نظريا وعمليا . وهي تطرح نفسها ، بلا تفريق ، علـى الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي اذ غالبا ما يكتب لهما

(*) جفري روبن : استاذ علم النفس في جامعة توفت (مدفورد ، ماساشوتس) مدير البرنامج الخاص بالمفاوضات في كلية الحقوق (هارفرد) .
جسوالد سلكوز : استاذ الحقوق الدولية في كلية الحقوق (فلتشر) واستاذ الديبلوماسية في جامعة توفت .

الدخول في مفاوضات مع بلدان اقل قوة منهما ، بلدان تريد ان تلوي موقفهما ، وتحصنهما على الدخل في مفاوضات قد لا تكون الدولتان العظميان راغبتين بها . وهذا ما يدفع الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة للبحث عن فهم افضل للستراتيجية التي تتبعها الدول الاضعف في مفاوضاتها مع الدول الاقوى او ضدها .

ان الدراسة العلمية لمسالة المفاوضات لم تبدأ الا منذ بضعة عقود من السنين . ففي الولايات المتحدة ظهرت أولى الدراسات والمطبوعات التي عنيت بهذه المسالة مابين ٥٠ و ٦٠ . والمؤلفات الاولى التي عالجتها ، ومنها على سبيل المثال مؤلفات . ر. لوس و هـ. ريفا ركزت اهتمامها على الحلول الرياضية للمسألة . وبعدها ظهرت مؤلفات عديدة عنيت اكثر ما عنيت بالوجه السيكولوجي لكل من النازعات والمفاوضات ، واحقها بالذكر كتاب تـ. شيلنج حول الاستخدام العقلاني للسلوك اللاعقلاني ، وكذا الدراسة السيكولوجية العميقة التي نفحنا بها ت. رابورت حول اتخاذ القرارات العقلانية « اثناء المشاقات والالعاب ، والمناقشات . » وكان ر. والتون ور. مكرسي من أوائل الذين القوا الضوء على مسالة المفاوضات التي تتم في الوسط العمالي ، حيث لا يستخدم العمل في هذه الحالة الا كظرف لصياغة منطوق اعم مما سبق لطابع المفاوضات . اما علماء نفس الاجتماع ، وعلى راسهم مورتون دوتش ، وهربرت كلمن ومن تبعهم ، فقد القوا في المختبر نحو الف من الاعمال التجريبية حول مسالة المفاوضات ، وذلك بدراسة تأثير عدة عوامل على مسار ونتائج المفاوضات، وكان ذلك فيما بين ٦٠ و ٧٠ .

ورغم انه في الثمانينات تناقص عدد الدراسات التجريبية عن المفاوضات فان المؤلفات التي تضمنت تحليلها تحليلا يعتمد على المفاهيم قد ازداد عددها بالقدر نفسه . وثمة عوامل شتى ، وعلى الخصوص ضرورة دراسة اكثر نجعا للبيئة . والمناخ المتبدل لعالم التجارة الدولية ، والعلاقات الديبلوماسية ، كل ذلك حمل الولايات المتحدة على الاهتمام أهتماما متزايدا بالمفاوضات الدولية على صعيد النظرية والتطبيق .

لقد ظهرت مراكز البحث المتخصصة بدراسة المفاوضات في أماكن شتى من الولايات المتحدة . وكل منها يصدر العديد من المؤلفات حول هذا الموضوع . وبرنامجنا الخاص المعتمد في كلية الحقوق بجامعة هارفرد في هذا الشأن يقضي

بان تصدر عنه كل ثلاثة اشهر نشرة عنوانها جريدة المفاوضات ، وكذلك قائمة موسعة للمؤلفات والوثائق التثقيفية المعنية بالمفاوضات . هذا وان عدة عشرات من المشاركين في هذا البرنامج هم بالاضافة الى كونهم من اساتذة الجامعة مؤلفون او مشاركون في تأليف عدد كبير من الكتب .

في الولايات المتحدة لا تدرس المفاوضات على انها فرع خاص من فروع المعرفة . ان نظرية المفاوضات يتعاون على انشائها رجال قانون وعلماء سياسة، ومتخصصون بالعلاقات الدولية لمنظمة العمل وتقاريرها وعلماء نفس ، ورجال اقتصاد ، ومتخصصون في مجال الاتصالات ، وعديد من علماء الانسان (انتروبولوج) ومن منظمي المدن .

ومن جهة اخرى ليس ثمة صراط وحيد يتبع في المفاوضات . بعضهم يرى ان المفاوض الخبير يبدأ ايما كانت الظروف ، باتخاذ موقف متطرف بالمطالبة باكثر مما يأمل الحصول عليه من الطرف الآخر . وفيما يتلو ذلك يقرر كل من الطرفين القيام بتنازلات حكيمة للوصول شيئا فشيئا الى وضع وسط كفيل بارضاء كل منهما ، وحينئذ يتم الاتفاق . ويرى انصار وجهة النظر هذه ان ثمة عوامل هامة كالاطار الزمني للمفاوضات ، واقنية الاتصال ؛ والمكان الذي تجري فيه المفاوضات ، وجملة من الاعتبارات الاخرى تحدد المعلومات التي يتبادلها الطرفان المتفاوضان حول وجهة التنازلات (او حول انعدامها .)

ومدرسة فكرية اخرى تتناول المفاوضات من زاوية مختلفة قليلا . فعوضا عن تقييم المفاوضات بصفتها مواجهة او صداما بين خصمين صمم كل منهما على الحصول على اقصى المكاسب ، مع قيامه بتنازلات شحيحة او عدم قيامه بأي منها ، فان مقاربة « حل القضايا الاساسية » يفترض درجة اعلى من التعاون. ومع سعي كل من الطرفين لشد اللحاف نحوه فانه ينظر الى صاحبه لا كخصم في مسار ؛ بل كمتعاون متوقع . حينئذ يكون المطلوب هو ايجاد السبل الواجب اتباعها لكي يضمن كل فريق مصالحه الخاصة ؛ مقدما لصاحبه في الوقت ذاته امكان تحقيق مكاسب معقولة . حينذاك تبلغ المفاوضات غايتها اذ يتخلى كل فريق عن عرض مطالباته للقيام بتحليل المصالح الكامنة اي الحاجات الحقيقية لكل من الطرفين .

ويقدم المؤلفان ر. فيشر . و و. يوري في كتابهما ؛ تدليلا على صحة هذه النظرية قصة شقيقتين تتناقشان في الطريقة المثلى لاقتسام برتقالة . وكانت

كل منهما تريد البرتقالة كلها لنفسها . وبعد مشادات كثيرة اتفقتا على تقسيم البرتقالة نصفين . وبدا الحل ذكيا ، معقولا ، ومنصفا ، وحينما تمت القسمة نزعت احدى الشقيقتين القشر عن حصتها واكلت اللب . أما الاخرى فطرحت اللب جانبا ، ولم تحتفظ الا بالقشر لتصنع منه قطعة من الحلوى آنذاك تبين أن قسمة البرتقالة قسمين كان في الحق عادلا لكنه لم يكن عقلانيا . فلو ان كلا من الاختين تنبهت لا الى موقف الاخرى ومطالباتها ، (اي نصفي البرتقالة تريد لنفسها) بل الى مصالحها (اي الى ماتريد ان تفعله بهذا النصف) لامكنهما بلا شك الاتفاق على صيغة تجني كل منهما منها أقصى ما تنشده من الفوائد .

تلك إذن هي الطريقة المثلى التي ينبغي اتباعها لحل القضايا بروح من التعاون . والناصحون بمثل هذه المقاربة يؤكدون ان المغانم المتبادلة لا تبدأ بالتحقق إلا عندما يستطيع المتفاوضون ان ينقلوا كراسيهم بحيث لا يكون احدهما جالساً بمواجهة الآخر ، بل الى جانبه . وبدلاً من أن يكون التعارض دابهما ، فانهما ينسقان جهودهما للوصول الى حل مشترك للقضية المطروحة عليهما .

ومن المؤكد أنه لا يمكن حل كل المنازعات بالطريقة التي سلف ذكرها ، لكن معظم الخلافات تعنو لها ، ولتسمية الخلافات الاخرى تفضل المقاربة التقليدية : يبدأ المفاوضون بعرض مطالبات متطرفة ، ثم يقومون بتنازلات ابتغاء الوصول الى اتفاق .

ورغم أن هذين المذهبين في فهم (تكتكات) المفاوضات يظهران لأول وهلة وكأنما يستندان الى افكار متعارضة تعارضا حاداً فانهما في الواقع جد متشابهين . فوجهتا النظر المذكورتان تجيبان تماما عن المفاوضات التي تجري بين طرفين متساوية قوتهما تقريبا . فسواء تعلق الامر بالاختين او بدولتين عظميين فثمة امكان لاجراء المفاوضات ما لم يكن احد الطرفين قادرا على فرض الحل على الآخر ، وإذا أقر الفريقان تشابك مصالحهما .

ولكن ثمة عدا ذلك مسألة اخرى هامة تطرح نفسها : ما الذي يحدث إذا كانت قوى الطرفين غير متساوية ؟ ما الذي يحدث إذا كان احد الفريقين أقوى تماماً من الآخر أو كان احدهما لا يعنيه بقدر ما يعني صاحبه الوصول الى اتفاق ؟ إذا نشب النزاع مثلاً حول الحق في استعمال ماء ساقية أو نهر ، وكان

احد البلدين في الموقع الاعلى والآخر في الموقع الادنى ؟ لم يوافق اولهما على إجراء المفاوضات بدلاً من ان يتصرف كما يطيب له ؟ وما الذي يستطيع الطرف الاضعف نسبيا لاقناع جاره في الاعالي بالدخول في محادثات ؟

إن المختصين ما زال عليهم أن يبحثوا طويلاً مسالة المفاوضات بين فريقين بينهما تفاوت . ويمكن القول من غير اي مبالغة ان مسالة المفاوضات بين فريقين متفاوتين قوة ، هي اليوم من اعقد المسائل التي تواجه المختصين . وهذا النوع من المفاوضات يلاحظ اكثر ما يلاحظ على الساحة الدولية ، عندما تكون لبلد آخذ في التطور مصلحة لدى دولة عظمى كالولايات المتحدة او الاتحاد السوفياتي. والتحليل التالي يعكس تماما وجهات النظر الرئيسية هذا الموضوع .

إن المفاوضات بين البلدان الآخذة في التطور والبلدان المصنعة تتم في جو خاص . اولا بأول ورغم وجود منظمات كهيئة الامم المتحدة او محكمة العدل الدولية فانه لا توجد في العالم سلطة عليا حقيقية على صورة هيئة تشريعية او محكمة قادرة على اتخاذاو على ان تفرض تطبيق الانظمة الضرورية التي تضمن حماية الفرقاء الذين اوتوا مؤيدات ضعيفة نسبيا من اجل أن يستطيعوا عقد صفقات هم بحاجة اليها . والامر الثاني انه في حين تنظر الى نفسها بلدان كالولايات المتحدة او الاتحاد السوفياتي على انها الفريق الاقوى (مما يرتبط طبعاً بطبيعة المفاوضات الجارية) فان البلدان الآخذة في النمو تعتبر نفسها دوماً عديمة الحيلة في صلاتها بالدول المصنعة ، وذلك بغض النظر عن موضوع المحادثات . وتبدو وجهة النظر هذه بجلاء في المؤلف الذي يعكس نظرية التبعية في النمو والتطور . وثالث ما في الامر انه في العلاقات الدولية لا يمكن « التهرب » من تواصل الامم . فترابطها فيما بينها الذي لا بديل يغني عنه يشد دائماً لزامه حول الدول ــ الامم .

يفترض عادة ان النجاح في المفاوضات الدولية رهين « بالقوة » ليس إلا ، وان دولة اقل قوة ترتبط رغماً عنها بالدولة الاقوى منها . بيد أن تاريخ العلاقات الدولية يعرف عددا من الحالات لم تستطع فيها البلدان العظمى أن تفرض إرادتها على الصغرى (مثال ذلك الولايات المتحدة وفيتنام ، الاتحاد السوفياتي وافغانستان) وحالات اخرى حققت فيها البلدان الصغرى نجاحات لا يستهان بها في مفاوضاتها مع الكبرى (مثال ذلك بنما في مفاوضاتها مع الولايات المتحدة بشأن قناة بنما) . وهذه الامثلة تبين أن نتائج مفاوضات كهذه لا تكون دائماً تبعاً للقوة دون سواها بل ترتبط ايضا باستراتيجية وتكتيك البلدان الصغرى التي تسعى لتحقيق أغراضها .

ولكي تكون لدينا فكرة واضحة عن هذه المسألة يتوجب علينا اولا ان نتفكر طابع القوة في المفاوضات الدولية . واولاً من المهم ان نعترف ان إمكانات التفاوض بين الدول ليست مطلقة . فهي تتغير تبعاً لاحتمالات وظروف المسالة المطروحة. وهكذا فان على البلد الضعيف ان يعرف كيف يقوّم تقويما صحيحا وضعه : والمتغيرات المرتبطة بالمفاوضات السابقة التي تمت بشأن هذه المسالة او تلك .

ثانياً ــ إن الامكانات ، في ظرف المفاوضات الدوليـة تعني ، في الواقـع القدرات « الاحتمالية » على التأثير في قرارات الطرف الآخر . امـا البلـد الضعيف فالمسألة المطروحة عليه هي ان يضع استراتيجية مناسـبة ، وان يجند كل موارده لزيادة قدرته على التأثير في قرارات الفريق الآخر .

إننا ننطلق من الفرضية الاساسية بأن الستراتيجية الايجابية (التي تعـد بفوائـد كبرى او بمغارم محـدودة جدا) او الاستراتيجية السلبية التي تقلل من الفوائد وتزيد من مغارم الفريق الآخر) هما اللتان تؤثران على القرارات في مسار المفاوضات الدولية . وعلى سبيل المثال فان التقاص اثناء التفاوض بين قضية يكون فيها احد الفرقاء ضعيفا وقضية اخرى تمكنه من ان يعرض على الفريق الآخر ما يريد ، تحمل هذا الاخير على اتخاذ قرارات اكثر جدوى على الفريق الاول . وفي الوقت ذاته فان استراتيجية التحالف مع خصم الفريـق الآخر من شأنها ان تؤثر على منحاه لما فيها من مخاطر .

ومن هذه الزاوية يمكن ان نتعرض لكل من الستراتيجيات المذكورة ادناه . وفضلا عن ذلك فانه من المنطقي فصلهما زمرتين اساسيتين . تلكم التي يمكن تطبيقها في إطار العلاقات الثنائية بين بلدان اقل قوة واخرى اعظم قوة ، وتلكم التي تجبر البلد الاضعف على الخروج من اطار العلاقات والتماس عون او تدخل اطراف ثالثـة .

وسنذكر ادناه امثلة لمختلف السبل في الاستعمال الناجح لامكانات محددة للتأثير في الطرف الآخر . وقد يشمل التعداد ايضا الستراتيجيات التي تتبع حسب نظام خاص هادفة الى قرارات الطرف الآخر بالاعتمـاد على امكانـات محدودة بدءا بالستراتيجيات « الناعمة » او الودية (خاصـة في اطار العلاقات المتبادلة) وانتهاء باستراتيجيات الضغط (التي يلجأ اليها عادة خارج إطـار العلاقات المتبادلة) .

الرجوع الى المبدأ : كما يوضح ذلك المؤلفان ر. فيشر ويوري يستطيع المتفاوضون الذين اوتوا إمكانات محدودة ، يستطيعون دوما ان يحاولوا إقناع

الفرقاء بالجلوس الى طاولة المفاوضات ، وبقبول تحقيق مغنم اقل من الذي كانوا قدروه ، وذلك بالرجوع الى اسلوب آخر او مبدأ ما . فبلد ما اوتي موارد لا تكاد تذكر يستطيع دوماً ان يستدعي جاراً اكثر غنى منه للتفاوض على اساس قواعد الحقوق الدولية ، ومبادىء العدل والانصاف او على اساس سابقة في العلاقات بين دول اخرى مشابهة .

ثمة ما يغرينا ، استناداً الى ما تقدم ، الى ان نبين انه في العلاقات الدولية ، بين البلدان المصنعة والبلدان الآخذة في النمو تنادي الاولى دائما بالرجوع الى المبدأ . لكن الرجوع الى المبدأ لا يجدي إلا فيما ندر ، إذ ان كلا الفريقين اقام استراتيجيته على المبدأ . وهكذا يجب البدء بايضاح المبدأ الذي يجب الاهتداء به ، وتحديد المصالح التي يؤمنها هذا المبدأ . وواقع الحال انه خلال كل المفاوضات بين بلدان العالم الثالث والغرب المصنع نادى كل فريق بالرجوع الى المبدأ لتعزيز موقفه ، لكن هذه المبادىء لا تتفق دائما بل شتان بينها .

وعلى سبيل المثال فانه اثناء المناقشات حول قضية ديون العالم الثالث التي درات حولها بين بلدان الشمال المصنعة ، وبلدان الجنوب الآخذة في النمو مفاوضات بالغة الشدة كان كل فريق يزعم أنه يقيم موقفه على اساس مبدأ ما . فالشمال الذي يسعى لاستعادة ديونه كاملة كان يقيم موقفه على مبدأ قدسية العقود والاتفاقات ومبدأ الحفاظ على صحة وسلامة النظام المصرفي الدولي . اما الجنوب الذي يسعى لتخفيف عبء المديونية فكان يشهر من جانبه مبدأ تطور الوضع ، وكذا مبدأ المساواة في العلاقات الاقتصادية الدولية . وهكذا يلاحظ انه في كل المباحثات كان يتم الرجوع الى هذا المبدأ أو ذاك مما من شانه في بعض الظروف ان يسهم في تعزيز الدعم الذي يقدمه الراي العام الى هذا الفريق او ذاك ؛ لكن في الظروف العادية ينبغي اكمال ذلك باستراتيجية اخرى في المفاوضات . ومما يجدر ذكره ان الرجوع غير المقنع للمبدأ كاساس للمفاوضات يمكنه ان يفضي احياناً الى نتيجة عكسية إذ ان الفريق الاقوى يمكن ان يفترض ان الطرف الآخر إنما يستشهد بالمبدأ لافتقاره الى الوسائل الاخرى الضرورية لايصاله الى حقه . ودعوة كهذه للرجوع الى المبدأ يمكن ان تفسر من قبل الطرف الاقوى كضرب من (البلف) الارعن ، وكمحاولة بائسة لتمويه تطلعات سيئة .

الاستشهاد بتاريخ العلاقات بالطرف الآخر : كان ويليام مكارثي قد لاحظ بذكاء في زمنه انه رغم كون المناداة بالمبدأ يلبي مصالح الفريق الاضعف في المفاوضات ، فانه لا يترتب على ذلك ان يلتزم الطرف الاقوى بتطبيقه . فاذا

كان (ع) يمتلك كل الموارد موضوع النزاع في حين أن (ن) لا يمتلك شيئا منها . فلم يكون ع ملزما بالاستسلام بسبب الرجوع الى المبدأ ؟

ويكون البديل حينئذ في استنهاض همة الفريق الاقوى مع ترجيه بأن يدخل في الحسبان العلاقات الطيبة المستمرة المتبادلة بينهما وغني عن البيان ان العلاقات الدولية هي أفضل ما يوضح مسارات العلاقات الطبيعية الجارية. وفي الغالب ان عدد السنين هو الوسيلة لقياس الاتصالات بين الدول . ومؤداه ان بلدا اضعف من مصلحته بغير شك ان يستشهد بتاريخ العلاقات بين البلدان المعنية .

وفي العلاقات بين الشمال والجنوب يمكن ان يلاحظ تطبيق هذه الستراتيجية ، خاصة حين التفاوض بين بلدان آخذة في النمو والدول التي كانت لها مستعمرة . حينذاك يستخدم البلد الآخذ بالنمو وحدة اللغة والروابط الثقافية والعلاقات الاقتصادية لتليين خصمه الاقوى منه والذي يعرفه جيداً . على غرار ذلك فعلت البلدان التي تتكلم الفرنسية إذ تذرعت بهذه الذرائع أثناء المفاوضات لعقد اتفاقات اقتصادية رابحة مع فرنسا .

الاستشهاد أو التذرع بالمستقبل : اذا كان التذرع بتاريخ العلاقات بالفريق الاخر هو من بعض الوسائل لحث الفريق الاقوى على الدخول في مفاوضات . فثمة في الطرف الاخر من الامتداد الزمني ذريعة أخرى ايضا . فالطرف الاقل قوة يمكنه ان يثير احتمالية تطور للعلاقات لمدة مستقبلية تطول، ويستخدم هذا التطور كأساس لاغراء الطرف الاقوى بعقد اتفاق اكثر جدوى في الحالة الراهنة . الفريق الاضعف يستطيع القول لمفاوضيه ان من مصلحتك أن تكون هذه المرة اكثر تساهلا واكثر مرونة اذ كتب علينا ان نلتقي عدة مرات في المستقبل .

إن التذرع بعلاقات مستقبلية طويلة الامد – وهو مايلاحظ تماما في العلاقات الدولية ، حيث لاتوجد احداث من قبيل « الانسحاب » القطعي من الاسرة الدولية المتداخلة التأثير ، يمكن أن يكون ناجعا ، وان يقنع الطرف الاقوى بالجلوس الى مائدة المفاوضات . ومثل هذه المقاربة يمكن ان تبدو واعدة في حال استطاعة الطرف الاضعف ان يقنع الطرف الاقوى ان توزع الثروات يمكن ان يطاله التعديل في المستقبل . وعلى سبيل المثال فانه اثناء المفاوضات

على الموارد الطبيعة (أي النحاس ، والبترول ، والقصدير) ابانت دول الجنوب انه وان كانت الدول القوية تملك احتياطيها الخاص من المعادن بحيث تستطيع حاليا ان تعرض على الجنوب اسعارا زهيدة ، فان الشمال سيكون اول من يستنفد مخزونه وينتهي به الامر الى احتياج الجنوب .

ويجب علينا أن ننوه في الوقت نفسه بان هذا الضرب من التدرج بالعلاقات المستقبلية المشتركة يمكن ان يكون ذا حدين ، اذ يخشى الفريق الاقوى في هذه الحالة ان يوجد سابقة . ورغم ان احد الطرفين يمكنه ان يقبل في حالة بينة راهنة ان يقوم بتنازل للفريق الاخر ـ مع علمه ان ليس ثمة امل اطلاقا في ان يبر مناصفة اخرى ـ فان هذا الفريق نفسه يمكنه في حالة اخرى ان يتخذ موقفا آخر اذا علم ان الفرقاء سيعملون معا وبانتظام خلال فترة زمنية غير محدودة . ان التنازل الذي وقع اليوم يمكن ان يعزز الثقة بامكان حدوث تنازل آخر في المستقبل . لكن ذلك يمكن ان يقودنا الى استنتاج خاطىء هو انه يحملنا على الاعتقاد بانه اذا كان احدهم مستعدا للقيام بتنازل في يومنا الحاضر فقد يرضى بتنازل اكبر في الجولات القادمة من المفاوضات بغية تمتين الاتفاق التعاقدي . وهكذا فان المصارف الدولية في يومنا لاتقبل القيام بتنازلات كبيرة اثناء التفاوض على ديونها خشية ان تواجه غدا مطالبات اكبر .

المفاوضات الجديدة المتوقعة : من ضمن الـذرائع ـ في المسار الذي اوضحناه ـ أن يتم اللجوء الى اقناع الفريق الاقوى بان الاتفاق المبرم في المرحلة الراهنة لاينبغي ان يكون ملزما وحصريا على الدوام . اذ يمكن ابرامه حالا مع العلم انه تتوقع جولة اخرى من المفاوضات في المستقبل . وعلى هذا فاذا كان الفريق الاقوى ليس ميالا الى ابرام الاتفاق املا في ان يستطيع الحصول على نتيجة افضل فيما بعد ، فان وجود استعداد للتعاقد بضمن قيام الجولة الثانية من المفاوضات يمكن ان يقدم ضمانة خاصة .

ومن المؤكد ان الفريق الاقوى بوسعه الا يلبي مثل هذا التدرج المغري . إذ ان مثل هذا النحو يمكن ان يخلق سابقة قد تعرقل ـ رغم التفاهم الذي تم على العقود ـ استئناف الفحص والتدقيق في مرحلة قادمة . وللسبب المذكور فان الفريق الاقل قوة مهتديا بمبدأ « اشتر اليوم وستدفع غدا » عليه ان يعرف كيف يكون قوي الحجة وأن يقوم الفوائد العاجلة الناشئة عن الاتفاق اثناء تنظيمه .

إن المعالجة المذكورة آنفا يمكن ان تدعى الستراتيجية « المعلنة »لاستئناف المفاوضات في المستقبل ، لكن ثمة استراتيجية « غير معلنة » لاستئناف المفاوضات مستقبلا وبموجبها يقبل الفريق الاضعف بابرام صفقة غير مربحة، فيما هو يخطط سرا ان ينشط لتحريك مفاوضات جديدة تحكمها شروطه في مرحلة آجلة ، وذلك حينما يصبح اكثر قوة . وقد لجأت البلدان الآخذة بالنمو في معظم الاحيان الى هذه الستراتيجية في تعاملهامع الشركات متعددة الجنسيات التي بعد ان جاءت برساميلها الى تلك البلدان واجهت مزيدا من المصاعب لمقاومة الدعوة الى الانخراط في مفاوضات جديدة محورها العقد المبرم سابقا حول توظيف الرساميل ، أو الاتفاق المتعلق باستخراج المعادن الطبيعية .

التقـاص :

في عالمنا الذي يصبح يوما بعد يوم أكثر تداخلا ، تمس العلاقات بين بلدين بالضرورة سلسلة من القضايا لا تتساوى قدرة الفريقين على حلها . وفي حين يكون احدهما ضعيفا في علاقاته التجارية بالآخر يستطيع على النقيض من ذلك ان يكون ـ على سبيل المثال ـ الفريق الاقوى في المسائل المتعلقة بالامن . ومثل هذا الوضع يوحي الى الفريق الاضعف ان يربط المفاوضات بالمسائل التي يشعر انه الاقوى فيها نسبيا ، لكنها لاترتبط ارتباطا خاصا بالمفاوضات اللاحقة .

فاذا ثار نقاش بشأن مجرى ماء ، وكان احد البلدين في المتوقع في الاعلى والآخر في الادنى يمكن طرح سؤال (طرح في الواقع عدة مرات خلال السنين) لم يكون واجبا على الفريق في الاعلى ان يدخل في مباحثات مع الذي في الادنى ؟ فيبدو ان البلد الذي في الاعلى يتحكم باستخدام ماء ومجرى النهر سواء جرى نحو الاسفل ، او اعترضه سد ، او تحول مجراه ، أو تلوث ماؤه الخ . . .

ويبدو ان البلد الادنى لا يستطيع شيئا لكي يلوي منحى البلد الواقع في الاعلى . ولكن لنفترض ان الفريقين لهما اهتمامات بعدة انواع من الموارد . لنفترض ان الفريق الاعلى موقعا يتحكم بالنهر في ان الفريق الادنى موقعا يمتلك موارد طبيعية تجعله اغنى من صاحبه . فاذا افترضنا ان اولهما يبدي اهتماما بهذه الثروات فان مسألة القوة النسبية تصبح غير واردة . والتقاص حينئذ يفرض نفسه تبعا للامكانات التي تبرز تبعا لتوزع مختلف الثروات ، ويسمح بتنظيم تبادل للموارد بحيث تظهر للعيان المقومات الضرورية لقيام المفاوضات لكن التقاص لايكون دوما ممكنا تبعا للتوازن او لتوزيع منتظم للثروات . ان

الطبيعة لاتبدو دائما منصفة . فبلد ما يستطيع ان يسيطر لاعلى الاعالي فحسب ، بل انه يمتلك موارد ثمينة من المعادن ، وغابات ، وقدرة صناعية مخزونة . لكن اطراف النزاع تغيب عن نظرهم امكانات التقاص . ان على البلدان الاخذة بالنمو ان تنفق مزيدا من الجهد الخلاق للعثور على امكانات للتقاص كالتي ذكرنا لانها تسمح للفريق الاقل قوة ان يلوي موقف غريمه .

ان البلدان الآخذة في النمو غالبا ما ربطت (أثناء مفاوضاتها مع الدول الغربية وأخصها الولايات المتحدة) القضايا الاقتصادية بقضايا الامن . وعلى هذا النحو استطاعت كوريا الجنوبية أن تحصل من الولايات المتحدة على تنازلات تجارية مقابل تعهدها بالدفاع عن مرتكزاتها الامنية في شبه الجزيرة الكورية . وكذا فعلت اليونان واسبانيا والفيليبين . فقد عرفت هذه البلاد في مفاوضاتها مع الولايات المتحدة من اجل حصول هذه على قواعد ــ ان تربط ذلك بجملة اعتبارات اقتصادية بحيث لبت نداء مصالحها .

الرجوع الى المصلحة القومية : ان نجاعة التقاص ترتبط بالمصالح المتداخلة وغير القابلة للانتقال التي تخص الفريقين المعنيين على اختلافهوقوتهما. والاساس الثاني للمناداة بالمصلحة القومية يستند لا على تداخل المصالح بل على استقلالها . فاذا استطاع احد الفرقاء ان يقنع الاخر بأنه لن يكون عليه ان يدفع الا القليل وقد لا يدفع شيئا لكي يحصل على مايريد ، في حين يحصل الفريق الاول منجانبهعلى مايريد بثمن بخس او بغير ثمن ، في هذه الحالة فان انتفاء كل تداخل في المصالح يمكن اساسا لتفاهم تعاقدي محتمل .

وقد تحدث عدد من كبار المؤلفين (فيشر ويوري ولاكس وسيبنيوس) عن الآفاق التي تنفتح للتوصل الى اتفاق عندما يلاحق الفرقاء « مصالحهم الخاصة المستترة » مفكرين بانفسهم مع اعطاء الطرف الآخر امكان ترتيب أعماله اذا كان ذلك لا يكلفهم شيئا . وعلى أية حال ، فمن حيث المبدأ يترتب على البلد ذي الموقع الادنى أن يدعو صاحبه في اعلى النهر الى الاخذ بهذه الطريقة . ومثل هذه الدعوة قائمة على الفرق الكائن بين « المواقع » و « المصالح » بين ما يطالب به الفريقان وما يريدانه حقا . وفي حين أن « المطالبات » تتصادم عادة ، فان الحاجات ــ الكامنة ــ وراءها يمكن ان تميل الى ان تسير سيرا متوازيا ، او الى عدم ارتباط بعضها ببعض ، متيحة لكل من الفرقاء ان يلبي حاجاته بأقل كلفة ، أو بغير كلفة اطلاقا بالنسبة للطرف الآخر .

الطريق المسدود : احيانا تكون الطريقة الاكثر نجاعة بالنسبة للفريق الاقل قوة هي ان لا يقوم بأي عمل . فالامتناع عن العمل او الانغلاق كما يسمونه احيانا ، يمكن ان يساعد على اقناع الفريق الآخر ، انه من غير مشاركته ، او من غير ان يشرف تعهده في هذه النقطة او تلك فالنهاية هي ازمة تكلف الفريقين غاليا سواء منهما الاقوى والاضعف . اما ايقاف المشاركة فانه يهدد بتعطيل المشروع القائم من كل نجع واحيانا يهدد وجوده . مثال ذلك مقاطعة كوريا الشمالية للالعاب الاولمبية في سيئول في عام ١٩٨٨ ، او مقاطعة افريقيا لكل المبادرات التي تشارك فيها حكومة جنوبي افريقيا .

ولنعترف هنا ان المقاطعة من كل نوع هي شيء يتجاوز الامتناع عن العمل. ان امكان تخريب الاعمال الجماعية يجبر الفريق الآخر على اعادة تقييم الوسائل التي من شانها ان تحرك المفاوضات . بيد ان المقاطعات تبقى ضربا من ضروب الامتناع عن العمل اذا اعتبرناها شكلا من اشكال الاستنكاف عن بعض ضروب النشاط الذي يمارسه عادة هذا او ذاك .

ان نجع الامتناع الستراتيجي عن العمل متعلق بارتباط الفريقين النسبي بنجاح التسوية التي يهمهما الوصول اليها . ان الفريق الاقوى لا يعاني الا من الامتناع عن العمل اذا اعتبرناها شكلا من اشكال الاستنكاف عن بعض ضروب يخسرونه والحق ان انسداد الطريق يكلف الفريقين دائما شيئا ما . وعلى ذلك فانه يتوجب على الفريق الاضعف ان يقدر بصورة تقريبية الكلفة النسبية للامتناع عن العمل سواء تعلق الامر به او بالطرف الآخر .

استخدام اطراف ثالثة بصفة وسطاء :

ان الستراتيجيات التي حللناها حتى الآن تحتوي وسائل شتى يتوسل بها الفريق الاضعف للتأثير مباشرة في العلاقات الثنائية مع فريق اقوى منه . فاذا اتضح ان هذه الوسائل غير ناجعة ، عندئذ يستطيع الفريق الضعيف أن يبحث عن روافع في غير اطار العلاقات التي ذكرت . ويمكن ان نرى واحدة من هذه الروافع في مداخلة اطراف ثالثة من شانها التأثير في موقف الفريق الاقوى ، وحمله على تبني حل مجد على الفريق الضعيف وثمة انماط مختلفة من الوسطاء الذين يمكن اختيارهم بدءا بالحلفاء المقربين من الفريق الاقوى ،وانتهاء بالمحايدين ، او حتى القادرين على تحديه . ويمكن لطرف تدخل الطرف الثالث ان تتخذ اشكالا مختلفة فهي اما وساطة ، او مصالحة ، او جمع وقائع ، او مجرد اعلام.

البحث عن الخلافات الداخلية :

على نقيض الامتناع عن العمل ثمة استراتيجية اكثر تعرضا ومجابهة ، ومؤداها أن الفريق الاضعف يبحث عن خلافات في وجهات النظر في صفوف غريمه . فإن اكتشف مثل هذه الخلافات فعليه أن يضع استراتيجية مناسبة لاستغلالها . فاذا كانت الشركات الاقوى هي ايضا ، كما يحدث في الغالب ، أكثر تعقيدا واكثر تنوعا ، فان مثل هذا التعقيد يستدعي إمكان وجود العديد من وجهات النظر واحتمالات الخلاف في منظمة الفريق الاقوى . ومن المؤكد اكتشاف مثل هذه الخلافات في حكومات أي بلد من البلدان ، ولكنها على الخصوص من سمات الشركات الكبرى والمعقدة .

وهكذا فبقدر ما يكتشف الفريق الاقل قوة اخلالا في درع غريمه ، وهي إخلالات تتخذ صورة خلافات داخلية بين القيادة ومن يمثلون من الناس ، تبرز أمامه امكانية اكتشاف قناة لممارسة تأثيره . ذلك هو المنحى الذي تنحوه الدول الصغيرة الضعيفة قبل الدول القوية .

وإذ كان الامر كذلك يلاحظ ظهور اتجاهين متقاربين ولكنهما متميزان احدهما عن الآخر . احدهما يدعو الى القطيعة الاستراتيجية التي يمكن الحصول عليها باذكاء الخلافات في صفوف الفريق الآخر ولو اقتضى الامر مجانبة السلوك القويم .

مثال ذلك : ان السائدين والكونترا ، كل من هؤلاء واولئك كان لهم من « يغازلهم » ويعطف عليهم سواء ضمن الحكومة او في الراي العام الامريكي وعلى الخصوص فيما يتعلق بمنح المساعدات للكونترا ، لكي يؤثروا على طريقتهم في سياسة واشنطن تجاه بلدان امريكا اللاتينية .

اما الاتجاه الثاني فهو ذو لهجة مختلفة : انه يدعو الى اقامة تحالف مع أحد عناصر منظمة الحزب الاقوى مما يربي امكاناته لممارسة تأثيره . واللوبي الإسرائيلي في الولايات المتحدة عرف تماما ان يسخر هذه الطريقة في العمل . انه يطور بنجاح صلاته بالساسة الامريكيين الذين ، كما يقدر ، يظهرون عطفا على الجوانب البينة من السياسة الاسرائيلية . والاكثرية السوداء في جنوبي افريقيا ، والاغريق ، والفلسطينيون ادركوا ايضا امكان ممارسة تأثيرهم على الفريق الاقوى وذلك بتطوير علاقاتهم مع عناصر متعاطفة معهم في صفوف الفريق الآخر .

انشاء تحالف :

اذا قامت جملة بلاد واقعة في الادنى من ارض ما بتوحيد جهودها فبامكانها ان تحقق الغلبة على البلد الواقعة في اعلاها بشرط تعديل الاتجاهات التي ذكرنا من اجل سرعة اقلاع المفاوضات .

وقد ادركت بلدان الجنوب انه من الممكن عن طريق اقامة تحالفات ، وباسهام من المنظمات الدولية كمنظمة الوحدة الافريقية، ومنظمة الدول العربية، وهيئة الامم المتحدة ، وتكتلات المنتجين اقناع دول الشمال المصنعة التي تبدو انها هي الاقوى ان تنظر بجدية الى الاتحادات الصناعية في الجنوب ، وان المصالح الحقيقية لبلدان الشمال تفرض عليها الشروع في مفاوضات مع البلدان الاضعف منهـا .

ان نشاطات الاوبيك (الدول المنتجة للنفط) في بدايات السبعينات والتي آتت اكلها إذ اثرت في منحى البلدان المصنعة يمكن أن تكون مثلا في هذا المجال فما من بلد منتج للنفط كان يحلم بالحصول بمفرده على ما نجح في الحصـول عليه بفضل توحيد الجهود . ومثل آخر من القبيل ذاته نجده في (الآسيان L'ASEAN التي بفضل اتحاد موارد بلدان مختلفة منها الآخذة بالنمو ومنها المصنعة في جنوبي شرق آسيا تحولت الى طرف قوي في المفاوضات مع اليابان والولايات المتحـدة .

ان القدرة على اقامـة تحالف ترتبط غالبـا بالاطار الـذي تجري فيـه المفاوضات . وكذلك فان اقامة تحالف تبدو مسألة شائكة جـدا اذا كانـت المفاوضات بين فريقين ، في حـين انه يمكن بأكثر سهولة واكثر نجاعـة ادراك الاهداف اذا كانت المفاوضات متعددة الفرقاء . فازمة مديونية بلدان امريكا اللاتينية ما كان لها أن تطرح مشكلة فادحة لو تمت مواجهة دين كل بلد على حدة . ولكننا حين ننظر الى الدين على مستوى الاقليم فان القضية تأخذ ابعاداً مذهلة . ورؤساء دول امريكا اللاتينية يعرفون ذلك جيدا ، حتى لقد اتفقوا ان يستخدموا نفوذهم ابتغاء اسقاط الدين او تمديد اجل الاستحقاق ، او خفض سعر الفائدة . وكذلك ، بالنظر لما للمفاوضات حول حق البحار من طابع دولي ، فان البلاد الآخذة في النمو استطاعت توحيد جهودها لكي تحصل من البلدان المصنعة على تنازلات لم يكن بمقدورها البتة ان تحصل عليها لو كانت المفاوضات ثنائية الجانب .

ان طريقة اقامة تحالفات ليست طبعا جديدة . ومن المهم ان نلفت النظر الى ان الفرقاء الضعاف يدرون جانبا في غالب الاحيان امكان الاتحاد مع بلدان اخرى ضعيفة نسبيا لتحقيق توازن جديد للقوى . وبالتخلي عن الاشكال الثنائية

للتعـاون وإبدالها بأشكال متعددة الجوانب ، يستطيع الفرقاء الاضعف ان يبدؤوا مساعي أولية وأساسية لتمتين موقفهم في المفاوضات .

بالتحالف مع عدو العدو :

يقولون في الشرق الادنى : « صديـق صديقي صديقي اما عـدو عدوي فاخي » ، وان مناشط ملك الاردن تثبت ان منحى بارعا على الساحة الدوليـة يسمح بتوفير شروط تتهاتر فيها الدول القوية ممـا يعود بالفائدة على البلـد الاقل قـوة .

وهكذا فان المبدا العام هو التالي : ان البلد الاقل قوة بوسعه أن يحـاول تلطيف وضعه غير المريح بأن يعد او أن يهدد بالتحول الى « داعية » أو محرض على قيام تحالف منتصر . ولنتمثل الوضع التالي : ثلاثة فرقاء في حلبة النزاع، أوزانهم من حيث الثروات ٣ — ٣ — ١ . في هذه الحالة يستطيع الفريق ١ — رغم انه اضعف من صاحبيه كليهما ، يستطيع ان يعرض تشكيل تحالف منتصر بتوحيد قواه مع قوى احد الطرفين القويين .

ولنذكر هنا ان مثل هذه المبادرة لن تعطي اية ثمرة اذا كان الطرفان الاكثر قوة قد اقاما بينهما صلات تعاون اكثر انفتاحا ، أو اذا لم يكونا « عدوين » بل صديقين بالقوة . فاذا كانت الولايات المتحدة والاتحـاد السـوفياتي يتبادلان المعلومات كلما حاولت دولة اقل قوة ان تثير احدى الدولتين العظميين ضد الاخرى فلن تكون ثمة اية امكانية لممارسة الابتزاز .

الرجوع الى الهيئات العليا :

يحدث ان دولا اقل قوة يطيب لها ان تحمل بلدا اقوى منها على الدخول معها في مفاوضات ، مهددة اذا لم يستجب لها ، بان ترفع ضده شكوى الى هيئة عليا كمحكمة العدل الدولية ، او هيئة الامم المتحدة ، او جامعة الدول العربية أو منظمة الوحدة الافريقية ، أو باللجـوء الى دولة ثالثة أقوى مـن خصمها في المفاوضات ، ونجع مثل هذا التنازل مشكوك في امره ، إذ لو شئنا الدقة في الكـلام ، لراينا ان العالم يتألف مـن دول ذات سـيادة متساوية في الحقوق ، والمنظمات الدولية التي ذكرنا محدودة الامكانات ، بل هي عاجزة عن فرض تسوية أيا كان البلد موضوع الشكوى . لكن هذا لا ينفي ان استخدام هذا النحو في العمل يمكن في بعض الظروف أن يحمل الفريق الأقوى على الجلوس الى طاولة المفاوضات لا لشيء الا لتجنب « وجع الراس » الذي قد يبدو انـه مكلف جدا ؛ وفضلا عن ذلك ما الذي يمكن ان تحمل اليه المناقشات في الهيئات « العليا » . وكما لاحظ ت. شلنج فان التهديد الانجع والاقل كلفة هو ذلك

الذي نحاذر من ترجمته الى واقع . وقد يستحق الامر ان ننصح للأطراف الاقل قوة ان « يضعوا في راسهم » هذه الفكرة الحكيمة .

التهديد « باللجوء الى الراي العام » :

ان الدعوة الموجهة الى الاسرة الدولية هي شكل من اشكال المقاربة التي ذكرنا آنفا . ورغم ان الراي العام ، بما هو كذلك ، لا سلطة له على الدولة ذات السيادة ، فان بامكانه في اقل الحدود ان يلوي منحاها اثناء المفاوضات . وواضح ان تهديدا كهذا لا يمكن ان يكون مجديا الا اذا كان الفريق الاقوى يدخل في حسابه الراي العام . وبما ان الراي العام يدخل في الحسبان في غالب الاحيان، فان مفاوضا بارعا يستطيع ان يستخدم نفوذه ليحقق عن طريقه بعض النفع . وغير مستبعد ان الاضراب عن الطعام الذي اعلنه المهماتما غاندي في الايام الاخيرة من الاحتلال البريطاني للهند ما كان له ان يحدث هذا الاثر الكبير لولا انه كان يهدد بالكشف عن مدى احتقار انكلترة للراي العام الدولي . وهذه المقاربة يمكن ان تتبدى اليوم اكثر منها نجاعة في اي وقت مضى ، ونحن في فترة سيطرة وسائل الاعلام . فالاخبار المتلفزة عن الانتفاضة ورد فعل اسرائيل على تحرك الشعب الفلسطيني هذا كان من جملة العوامل التي اضطرت الولايات المتحدة على الدخول في حوار مع منظمة التحرير الفلسطينية .

والفكرة العامة في الظرف الراهن ، ان الاطراف الاقل قوة يمكن ان يكونوا في وضع يسمح لهم ان يفضحوا امام الراي العام ، خصومهم الاكثر قوة ، وان يضطروهم والامر كذلك ، الى الجلوس على طاولة المفاوضات ، كل من في العالم يخشى سخط الراي العام ، كذا التعرض للاهانات ، وان يكون هزاة الجميع وهذا اكثر ما يصح على الاطراف التي تبدو ضعيفة وعديمة البراعة . ان البلدان الثالثة تدرك تمام الادراك عظم التأثير الذي يمكن ان يخلفه التهديد « باللجوء الى الراي العام » وقدرته على حمل الاطراف غير المتصالحة على الجلوس الى طاولة المفاوضات وعقد اتفاق فيما بينها . واحيانا يكفي التهديد المقنع الذي يمكن لخبر من الاخبار ان يدسه في وسائل الاعلام عن مزاج احد الاطراف بالقول انه لا يحب المصالحة يكفي ذلك لاخراج المفاوضات من الازمة ، واعادتها الى الطريق الصحيح . وان متفاوضا مجربا حتى لو كان الاقل قوة ، يدرك ذلك جيدا ، حتى انه ليستخدم لمصلحته قواعد السلوك المعترف بها عالميا للضغط على الفرقاء « الوقحين » . فان يكون المفاوض اقل قوة فذلك يعني احيانا استعلاءه الاخلاقي ، وظهوره بمظهر واحد من ابطال الإنصاف . « يشعر الناس

دائما بعطف على الضعفاء » هذا ما يقال في الولايات المتحدة(*) وعلى المفاوض الحاذق ان يعرف كيف يستغل هذه الظاهرة لمصلحته .

ان مسألة التأثير الاجتماعي الذي يمارسه الفريق الاضعف ترتدي اهمية كبرى ـ لا سيما في العلاقات الدولية . وقد كرسنا القسم الاكبر من مقالنا لتحليل الطرق والوسائل التي يلجأ اليها هذا الفريق لحمل غريمه الاقوى ، سواء كان الاتحاد السوفياتي ام الولايات المتحدة او بلداً آخر ـ على الدخول في مفاوضات .

وهكذا يبدو ان من الطبيعي ان نختم مقالنا عن المفاوضات والتفاوت في القوة بملاحظة ان الضعاف يبدون في معظم الاحيان اقوى مما يعتقدون هم انفسهم ، في حين ان الفرقاء الاقوياء يتكشفون عن انهم اضعف مما يتصور عادة . ذلك هو الوضع الذي وجدت الولايات المتحدة نفسها فيه ، كما لاحظ ذلك بالمعية روبرت كوهان ، عندما اضطرت لتعويض الكوريين والتايلنديين ، واهل الفيلبين عن معاناتهم حين شاركوها الحرب على فيتنام . وفضلا عن ذلك ينبغي ان نفهم حق الفهم ان القوة ، في جوهرها ، ليست كافية وحدها . وينبغي اللجوء اليها ، حصراً ، عندما يكون ثمة امكان لاستخدامها بنجاعة . فالترسانة النووية والازدهار الاقتصادي الذي لم يعرف مثله ليس لهما قيمة استراتيجية كبرى اذا كانت الدولة التي تمتلكها لا تستطيع استخدامهما .

ان الدراسة العلمية للمفاوضات التي القت جذورها في الولايات المتحدة ، تزدهر الآن في بلدان اخرى ايضا . وهكذا انجزت دراسة حول الموضوع في المعهد الدولي للتحليل المنهجي التطبيقي في مركز البحوث الاساسية التطبيقية الواقع بجوار فيينا والذي تشارك في تمويله واستخدامه بلدان الشرق والغرب ومنها الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة .

وهذا السفر الاساسي يتألف من مقالات كتبها سياسيون كبار وباحثون من مختلف البلدان ، وهو يركز الانتباه على مسار المفاوضات الدولية .

ان هذه الدراسة هي خطوة هامة في طريق التطور المتلاحق لنظرية اكثر حكمة ، وتطبيق اكثر نجعا في المفاوضات الدولية . واخيرا اذا كنا نريد لنظرية المفاوضات ان تستمر في التطور ، فمن الضروري ان نؤمن مشاركة كاملة ، وذات جوانب مختلفة يتكفل بها مؤلفون من مختلف البلدان ، وخاصة بعد مناخ التعاون الذي استجد بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي .

(*) ما يقال ... اما الافعال .

★ ★ ★

زهـــرة الكيميـاء

فـي مـواجهـة

المنـــاهـج النقـديّـة

د. عبد الكريم حسن

الاهــداء ....

الى ((امل)) اختا

وزنبقة

سبق لمجلة ((فصول)) القاهرية ان قامت مشكورة بنشر دراسة لنا تحمل عنوان ((زهرة الكيمياء بين تحولات المعنى ومعنى التحولات)) . وفي الوقت الذي عكفت فيه دراستنا السابقة علـى الجانب المنهجي وجزء مـن الجانب التطبيقي يختص بالمقطع الاول من ((زهرة الكيمياء)) فان الدراســة الحالية تهتم بتقديم النتائج التي توصلت اليها الدراســة الشاملة للقصيدة .

و ((زهرة الكيمياء)) هي القصيدة التي يفتتح بهـا ((ادونيس)) ديوانه ((كتاب التحولات والهجرة في اقاليم النهار والليل)) . وهي تشمل ثلاثة عشر مقطعا لا يتسع

المجال لتقديمها الآن بين يدي القارىء وانما سنكتفي بعرض النتائج الكلية التي توصل اليها تحليل القصيدة بكاملها على النحو التالي :

١ ــ تقديم التحولات النهائية التي افضى اليها تحليل كل مقطع على حدة.
٢ ــ تحليل عناوين المقاطع الشعرية الثلاثة عشر .
٣ ــ عرض الاسس المنهجية التي اقمنا عليها دراستنا في ضوء الالسنيات ومناهج البحث الحية .
٤ ــ النظر في المحاور الاساسية التي ادارها « ادونيس » وادارها الباحثون حول شعره . ومن ذلك قضية الغموض والباطنية والتصوف والحداثة والتراث والاصالة والمعاصرة ...
٥ ــ ادارة حوار نقدي مفتوح مع ثلاثة من النقاد ممن تناولوا « كتاب التحولات والهجرة » وخصوا باهتمامهم « زهرة الكيمياء » على وجه التحديد او اتوا على بعض مقاطعها . وهؤلاء النقاد هم الكاتب الشهيد « حسين مروة » والدكتور « علي سعد » والدكتور « علي الشلق » .

وانما نقيم هذا الحوار وننظر في هذه القضايا آملين تحريك الشعر العربي الحديث واغناء الحركة النقدية المنصبة عليه .

فلنبدأ بعرض التحولات النهائية التي خضع لها كل مقطع شعري على حدة ، ولنرمز الى المقطع بالحرف (م) والى تسلسله في القصيدة بالرقم الذي يجاوره :

م (١) ــ زهرة الكيمياء :

« ينبغي طلب الحريق ، (ف) في الحريق نفائس تزيل اللعنة . ينبغي تجاوز مفهومي الخير والشر طلبا للخصب (و) ينبغي طلب وبلوغ انتصار الكلمات الجديدة ، (ف) في الكلمات الجديدة المحروثة اشراقة التحولات الازلية » .

م (٢) ــ الدهشة الاسيرة :

« ذاهب ابحث عن الحياة احميها واغذيها ، فان لم أصل عاندت باصرار » .

م (٣) ــ شجرة النهار والليل :

« أجيء في الظلام واضيء قبل وجود الضياء . وتتبعني الحيوات الاصول ، وتتكاثر في كنفي الحيوات الواعدة ، ثم يواجهني اللاعقل بعدم الفهم ، ويضيء « الظلام أنا » ، ويستمر الضياء ، ثم اذ تغور في الحياة واعدة بالحياة متوقفة جزئيا عن الحياة اوقظ الحياة وأنبىء عما يحدث عند توقف الحياة جزئيا واتوقف جزئيا عن الحياة » .

م (٤) ــ كنيسة النهار :

« صارت لي الحياة الواعدة بديلا من الواقع ، ومنذ الابد وانا ابشر بالضياء: فالحياة أنا القربان الواصل بين بذرة الحياة واكتمالها ، وتباشير الحياة هي البعث » .

م (٥) ــ شجرة الشرق :

« اتسعت الرؤية فغيرت في هديها شعائر الحياة وغيرت الدعوة . صرت أراني اثنين : أراني وارى النور الموجود في ذاتي . صرت أنا الحياة ، وصارت الحياة أنا : اولد باسميها ، الدها ، صرت لها توأما وصارت لي توأمة » .

م (٦) الإشـارة :

« عزلت الموت ــ لن يأتي الموت على حيواتي وسوف ابقى كامنا في الحي والجماد خالقا أفيض عما يخطف ويهدي » .

او :

« جمعت العلم ــ لن يأتي الموت على حيواتي وسوف أبقى كامنا في الحي والجماد خالقا أفيض عما يخطف ويهدي » .

م (٧) ــ شجرة الحنايا :

« في الكآبة المتنامية المنتشرة اغوص بحثا عن ينابيعي الدافقة مفجرا المياه محطما النظرة الانعكاسية للامور ؛ اعني النظرة السطحية الخاطئة . سنواتي تنأى عني منهارة تحت وابل من السهام ؛ (هي) سنوات رايتها تلتهم بعضها (و) تنهار تحت وابل من السهام وسط مشاريع نتاجها الخالد » .

م (٨) ــ شجرة النـار :

« عائلة مكونة من أحداث متأصلين ، في متناول ايديهم أفضل وسائل التغيير ، متعطشين للحياة ، يلتفون الحياة رسالة الحرق والنور ، هي عائلتي التي سبقتني ولا علامة (تدل عليها) » .

م (٩) ـ شجرة الصباح :

« لاقني ياصباح الى حقلنا العقيم ، (ف) في المطروق من حقلنا العقيم شجر انقطع عطاؤه طالما وعدنا أن نظل حياة له (.) لاقني : هل رأيت الغصون (؟) ، استجبت (ف) نداء الغصون (؟) ، (ف) موتها نداء يفتح العيون ويستصرخ الهمم (.) لاقني ، لاقني ... كانا التقينا وكنسنا الظلام وتوحدنا وجئنا ـ قرعنا على باب الحقل ، فتحنا الحقل للضوء ، وتجمعنا في حنايا الجذوع وسكبنا من انفسنا الرؤيا والحياة ، وكانا بقينا في الجذوع لابثين مقيمين » .

م (١٠) ـ غابة السحر :

« ليات الربيع ولتتقبض انواع الموت ، ولاحيي المطروق ، ولاحضر الصباح ولنحتفل مع الاشجار ، فاذا انعدم الضياء (كانت الرؤيا وغصون الاشجار ؛ اعني ما نتطوي عليه من خير وشر (هي) السناد . (ف) ليدلني ضوء وليناديني صوت من آخر الاسوار .... » .

م (١١) ـ شجرة الاهداب :

« واذ حلمت ، وكنت ثمرا (...) في غابة مضاءة مسحورة ، ضياؤها السكب مدينتي والظلام معزول ، رأيت الزمان مكانا جامعا بين ما يحيي وما يموت ، ومانحا الانسان أن يكون بطلا أو لا شيء » .

م (١٢) ـ شجرة الكآبة :

« ( ) ورق سائح يتقدم ينشد البعيد البعيد ، ينشط في الكتابة مزهر كآبة قبل ان تفقد الكتابة جدواها » .

م (١٣) اقليم البراعم :

« تعدى » ابكار « هذه المتاهة ، وكان اسيرها وادرك الهلاك فيها ، و (لكنه) تصدى للموت فهزه ، وطلب النجاة فتسلم طريقها ثم نشط من أجل بلوغها وكان له ما اراد . لقد عمل « ابكار » بنصيحة أبيه ـ وعودته منتظرة » .

وأما الآن فالى تحليل عناوين المقاطع الشعرية . ولتحليل هذه العناوين لابد من أن نأخذ بمبدأين اثنين :

ـ فاذا كانت المفردات المكونة للعنوان واردة في المقطع الشعري الذي تنتمي اليه ، وضعنا أيدينا على آخر تحول خضعت له عند تحليل المقطع المذكور .

ــ واذا لم تكن واردة في المقطع الذيتنتمي اليه عدنا الى المعجم (٣) لنرى نوياتها المعنوية وما يمكن أن تتمخض عنه من سلاسل تأليفية مفيدة .

ففي الحالة الاولى نقبض على المفردات في سياقها النصي ، وفي الحالة الثانية حيث ينعدم السياق النصي نلوذ بالسياقات المعجمية . وفي الحالتين لا مناص من النظر الى كل مفردة من خلال ظهوراتها في كافة المقاطع الشعرية آخذين بعين الاعتبار وحدة القصيدة وكلية العمل الفني . فهذه الظهورات تؤكد معاني وتنفي اخرى ، وهذا ما يساعدنا في تبني ما تؤكده واستبعاد ما تنفيه . ومن الطبيعي ان نستعين بالتحليل النهائي للمقاطع في تحليل عناوينها لانه أضحى تحليلا ناجزا معروضا للقطاف .

وسوف نكتفي بتقديم التحول النهائي لكل عنوان الى جانبه دون الغوص مجددا في تفاصيل الخطوات التي مر بها . كما أننا سنقوم بالقاء الضوء على هذه التحولات من اجل مساعدة القارىء على فهمها وتمثلها .

١ ــ المقطع الاول : « زهرة الكيمياء » ــــــ اشراقة التحولات .

ولقد تعرفنا على ان هذه الاشراقة رهن بحرق المفاهيم البالية وانتصار الكلمات الجديدة .

٢ ــ المقطع الثاني : « الدهشة الاسيرة » ــــــ التهافت .

ويتضح من المقطع ان هناك مقارنة بين تهافت الفراشة على الضوء وتهافت الشاعر على الحياة ــ الضوء .

٣ ــ المقطع الثالث : « شجرة النهار والليل » ــــــ رحم الضياء والظلام .

ويبدي المقطع نوعا من العلاقة الجدلية بين الضياء والظلام ؛ بين الحياة والموت بحيث تبدو هذه المفاهيم المتناقضة وهي تولد من بعضها بدون توقف . والشاعر هو بؤرة التقاء هذه المفاهيم المتناقضة . فهو يجمع بين الموت والحياة؛ الموت الآتي من الواقع المحيط الذي يصيب الشاعر شاء أم ابى ، والحياة ــ الضياء التي يحملها الشاعر سلاحا في وجه الموت .

وهكذا فان هذه المتناقضات تتصارع في الواقع وفي ذات الشاعر . وتمثل شجرة النهار والليل دورة صراع الشاعر مع الواقع المظلم الميت ، هذا الواقع الذي وان شكل الشاعر جزءا منه ، الا انه جزء تحول الى حياة وضياء .

٤ ــ المقطع الرابع : « كنيسة النهار » ــــــ متعبد الضياء .

ويثبت المقطع ان كنيسة النهار رمز للطقوس التي يجب القيام بها من أجل عبادة النهار ــ الحياة . واهم هذه الطقوس طقس المناولة .

٥ ــ المقطع الخامس : « شجرة الشرق » ــــ رحم الضياء .

وشجرة الشرق مولدة الحياة . وهي هنا فكر الشاعر .

٦ ــ المقطع السادس : « الاشارة » ــــ الهداية .

فما دام الشاعر هو الحياة ، انه يتحول اذا الى منارة تهدي الى الحياة . وهكذا نجد انفسنا ونحن نعبر من المقطع الخامس الى المقطع السادس اننا نعبر من ولادة الشاعر للحياة الى فيضه عما يهدي الى الحياة .

٧ ــ المقطع السابع « شجرة الحنايا » ــــ رحم الاقواس .

وهذا يعني الولادة المستمرة للاقواس . فاغصان الشجرة تتحول الى اقواس لا تنفك ترمي الشاعر بسهامها .

ويثبت المقطع ان السهام هي سهام الزمن مما يحول « شجرة الحنايا » الى صورة للزمن الذي يأتي على عمر الشاعر .

٨ ــ المقطع الثامن « شجرة النار » ــــ رحم العلامة .

وسواء اكانت هذه الرحم رحما للتحول او علامة تدل على وجود بشر قادرين على النهوض بالتحول ، فانها تبقى رحما غائبة في الحاضر ، حاضرة في المستقبل .

٩ــ المقطع التاسع « شجرة الصباح » ــــ رحم الضياء .

وهي رحم يدعوها الشاعر الى الاخصاب في تربة الواقع الذابل .

١٠ ــ المقطع العاشر « غابة السحر » ــــ حيوات للتحول ــــ حيوات تحولت الى موت ــــ موت .

والشاعر يدعو الى إحياء هذا الواقع ــ الموت ، فان اخفقت دعوته اكتفى بالاعتماد على نفسه في مهمة الإحياء . ولكنه لا يفقد امله في ان تدب حالة وعي تواجه الموت السائد .

١١ ــ المقطع الحادي عشر « شجرة الاهداب » ــــ رحم الاهداب .

وما تلده الاهداب هو الرؤية . والرؤية في المقطع هي حلم الشاعر بانتصار الحياة على يديه . فالشاعر ثمر اطلقته الغابة التي تحولت الى الحياة فازدهرت ونمت فيها الحيـاة .

١٢ ــ المقطع الثاني عشر « شجرة الكآبة » ـــــ رحم الكآبة :

ــ ويثبت المقطع ان الكآبة تتناسل في نفس الشاعر .

١٣ ــ المقطع الثالث عشر « إقليم البراعم » ـــــ البراعم الكثيرة الساكنة.

فإقليم البراعم دليل على كثافة تجمعها . ولكنها ــ على الرغم من إيحائها بالتفتح والخلق ــ مصفرّة ذابلة يلفها الموت . فالحياة الواعدة في الواقع السائد ليست حياة للحياة ولكنها حياة للموت .

فإذا انتقلنا الى الأسس التي اعتمدنا عليها في بناء منهجنا النقدي كان في وسعنا ان نجملها في ثلاثة :

١ ــ الاول نحوي صرف . ولقد استلهمنا هذا الأساس من « الألسنية التوزيعيــة » .

«distributionalisme» التي بلغت إحدى ذراها على يد العالم اللغوي الامريكي « هوكيت » «ch. F. Hockett» . ويقوم منهج « هوكيت » على تعليب المكونات النحوية الصغرى وصولاً بها الى الاركان الاساسية التي يمثلها في الجملة العربية الفعل والفاعل او المبتدأ والخبر .

ولقد وجدنا كيف اعاننا هذا الاساس على مراقبة الجملة الشعرية وهي تتقلص وتمتد في اتجاهي اللف والنشر صعوداً وهبوطاً . ووجدنا كيف يساهم هذا الاساس النحوي في تقديم الجملة الشعرية للناقد طيعة مرنة مدفوعة بكل امتداداتها وتشابكاتها الى الاستسلام بين يديه .

٢ ــ والثاني نحويّ معنويّ يتلخص بتحديد السمات المعنوية للمفردات «traits semantics» وميزنا بين نوعين من هذه السمات ، السمات اللازمة والسمات النصية . كما أشرنا الى ان السمات النصية تنطوي بدورها على نوعين من السمات : السمات ما تحت المقولاتية والسمات الانتقالية .

إن تحول المفردة الى سمات معنوية يجعل منها باقة من السمات التي تنتظر منا الربط بين عناصرها وعناصر الباقة المجاورة داخل العلبة الواحدة . والربط يعني تشكيل علبة جديدة ؛ اي باقة جديدة تنتظر اكتشاف العلاقة بين عناصرها وعناصر الباقة المجاورة ... وهكذا .

ولقد استطعنا انطلاقاً من هذا الاساس التوليدي التحويلي أن نتوصل الى تحديد العلاقة التي تربط بين مكونات الجملة الشعرية وما إذا كانت طبيعية أم غير طبيعية ؛ عرفية أم مجازية . فالانتقال من الاساس النحوي الصرف الى الاساس النحوي المعنوي هو انتقال من الإعراب النحوي الى الإعراب البلاغي .

والإعراب البلاغي لا تقتصر اهميته على تمييز العلاقة العادية من المجازية وإنما تتعدى ذلك الى حيث يصبح هذا الإعراب وسيلة لضبط السياق .

فنقطة انتشار المجاز هي التي تحدد التحولات على يمينها وشمالها بما ينسجم مع السمات المتشابكة في هذه النقطة بالذات .

ولعلنا نتوقف هنا قليلاً لنعترف بفضل المعجم العربي الذي استطاع ان يكشف هذه الدروب ويفتح هذه المغاليق .

فالمعجم — لا كتب البلاغة العربية — هو ما اعتمدنا عليه في تحديد العلاقة العرفية والعلاقة المجازية .

ولكن ؛ كيف تمكن المعجم من كشف هذه المجاهيل ؟ .

لقد تراءى لنا ونحن نبني منهجنا ونتوغل في تطبيقاتنا انه ليس الشاعر هو الذي يتكلم وإنما اللغة . وتساءلنا الى أي حد تقول القصيدة ما يريد الشاعر ان يقول أو ما يرغب في ان يقول ؟ . وتبيّن لنا ان اللغة أكبر من الناقد والشاعر . فالشاعر غير موجود ، وإنما اللغة هي التي تتكلم من خلاله ؛ إن اللغة بنية .

وموت الشاعر لا ينفصل عن موت الشعر . فالآلية المنهجية التي استطاعت أن تقود شعر « ادونيس » من اقاليم العتمة الى اقاليم الضياء هي التي اعلنت موت الشعر . وهذه الآلية ؛ آلية البحث عن المفردات في المعجم لا تتوقف إلا لتتحرك من جديد . فالبحث عن المعنى في المعجم قد لا يفضي الى شيء ذي بال . وعندها لا بدّ أن نبحث للمفردة المعنية بالامر عن فيض المعنى الذي تسكبه . ولتوضيح ذلك يكفي أن نحيل مثلاً الى المقطع الثالث لنرى كيف ان معنى « شمس » لم يكن شافياً . فالشمس — في المعجم — نجم رئيس تدور حوله الارض وسائر كواكب المجموعة الشمسية » . وهذا ما يستدعي البحث عن معنى مفردة « نجم » الذي يقدمه المعجم على النحو التالي : « احد الاجرام السماوية المضيئة بذاتها » . ومن الجمع بين معنى « شمس » وفيض المعنى « نجم » خلصنا الى معنى الشمس بما ينسجم مع السياق ، وهو « رئيسي مضيء بذاته » .

وفي حالات نادرة جداً يستعصي المعجم ويرفض ان يقدم للباحث اية معلومات مفيدة بشأن مفردة من المفردات . وهذه الحالات نستطيع تسميتها بالحالات الدورانية القصيرة . هكذا تبحث مثلاً عن معنى مفردة « غرفة » فيقول لك المعجم إنها « عليّة » ، فاذا اردت البحث عن « عليّة » لكي تستفيد منها بعض المعاني المفيدة قال لك المعجم إنها « غرفة » ، وأكتفى بذلك .

وحتى في مثل هذه الحالات الدائرية النادرة فإن المنهج لا يفقد آليته . وكل ما يحصل هو انه بدلاً من ان يتابع المنهج آليته على مستوى المفردة فانه يتابعها على مستوى المفردات ؛ اعني السياق النصي .

ونحن ندرك الى اي مدىً يؤلم الشاعر ان يرى موت شعره بأم عينيه . ولكن عزاءنا ان في كل موت حياة اخرى ، فهل يكون موت الشعر حياة للعقل والمنطق والنقد ؟ .

٣ ـ وأما الاساس الثالث فمعنوي بحت . إنه يهدف الى اكتشاف البنية المولّدة للمعنى . فبعد اكتشاف العلاقة بين كل مكونين من مكونات الجملة الشعرية ننظر في عناصرهما الامثالية ونحاول بناء السلاسل الافقية انطلاقا من احتمالات الربط بين كل عنصرين من عناصر السلسلتين الامثاليتين .

وهنا نقبض مرةً اخرى على ضابط آخر من ضوابط السياق . فلدى البحث عن العلاقة بين مكونين نأخذ بعين الاعتبار معانيهما جميعاً ، ثم نقوم بربط كل معنى لهذا بكل معنىً لذاك داخل العلبة الواحدة ، ثم معنى العلبة بمعنى العلبة السابقة لها .. وهكذا ، الى ان تضبط الجملة العلاقة بشكل نهائي . فالمعنى لا يستقر في صيغته النهائية إلا بالنظر الى كافة التحولات النصية . وكل ذلك إنما يجري تبعاً للعلاقات النحوية ؛ اعني علاقة كل مكون بما قبله وما بعده .

ولقد ميزنا ونحن نشيد هذا الاساس بين مفهوم التحولات بالمعنى البنيوي ومفهوم التحولات بالمعنى الذي توصلنا اليه . ولاحظنا ان « تحولات » « ليڤي شتروس » إنما تجري بين عناصر في الحضور «in presentia» بينما تجري « تحولاتنا » بين عناصر في الغياب «in absentia» . كما لاحظنا ان تحولاتنا خلافا لتحولات « شتروس » إنما تبدأ من سلاسل افقية مضيئة . وهذه العملية ؛ عملية الانتقال من العلاقات المعتمة الى العلاقات المضيئة ؛ من الغريبة الى المألوفة ؛ من الخفية الى المعلنة ، إنما تجري في إطار السياق . فالتحولات ليست علاقةً بين طرفين وحسب ، ولكنها علاقات بين اطراف تمتد وتنتشر بقدر امتداد حدود الجملة وانتشارها .

ولقد اشرنا الى أن أهم ما في المعنى الذي توصلنا إليه أنه معنى المعنى . فهو المعنى الاصلي الذي تصدر عنه كافة المعاني ، والاتجاه الاساسي الذي تتفرع منه كافة الاتجاهات . إنه الكلية التي تعلو على كافة الجزئيات والتفسيرات المحدودة وإن كانت تطويها جميعاً بين جناحيها .

ولعل أجمل ما في اللغز الاوديبي شفافيته . فهو عميق بقدر ما هو بسيط ، وبعيد بقدر ما هو قريب ، ومعتم بقدر ما هو مضيء .

ولقد كان هذا اللغز ــ على بساطته ــ يطرح قضية الإنسان من اساسها . فالوحش الانثوي الرابض على أبواب « طيبة » كان يلقي على الرجال سؤالاً يخصهم كرجال . وعندما استطاع « اوديب » أن يفك اللغز كان ذلك يعني بكل بساطة تقويض النظام الامومي وإحلال النظام الابوي محله . وسرعان ما سقطت السائلة وهي تطوي بين جناحيها جثتها الهامدة . فالجناحان اللذان كانت تبسطهما على الرجال كرمز للسيطرة والغلبة تحولا الى بساط يحتضن الموت .

ولئن كان شعر ادونيس يلقي علينا تساؤلاته بشكل ملغز ، فإن هذه التساؤلات لا تند عن الغاز مستعصية بقدر ما تند عن غموض شفاف . ولعلني استغني عن مصطلح « الغموض » او أملؤه بمحتوى آخر غير الذي تداوله قراء ادونيس . فما يسميه الآخرون غموضاً اسميه استخداماً جديداً للغة ، وهو استخدام موسوم بتفجير اللغة في اتجاهين :

١ ــ تفجير الجملة الشعرية بتضخيم مكوناتها . فالفاعل ليس كلمة واحدة في اغلب الاحيان وكذلك المفعول والصفة والخبر والحال والظرف .. وكل المكونات ما عدا الفعل .

والتدليل على ذلك نكتفي بالإحالة الى الجملة الاولى من المقطع العاشر على سبيل المثال لا الحصر :

الغصونُ الحقائبُ الخضرُ والحلمُ وسادٌ
في عطلةِ الأسفارِ
حيث يبقى الضحى غريباً ويبقى
وجهه خاتماً على اسراري .

ففي هذه الجملة نلاحظ أن خبر « الحلم » لايتوقف عند كلمة « وساد » ولكنه يتمدد ليشمل كل ما تبقى من مكونات الجملة وحتى نهايتها .

والحل مشكلة « الغموض » الناجم عن هذا الاتجاه يكفي أن نعرف أين يقف كل مكون من مكونات الجملة على المستوى النحوي . وهنا نجد انفسنا ــ مرة أخرى ــ مدفوعين للتأكيد على أهمية النحو التوزيعي . فلهذا النحو ــ إضافة الى ماله ــ فضل التعرف على الجملة وقد تقلصت مكوناتها الصغرى الى المكونات العليا بشكل هرمي تراتبي .

وهكذا ينكشف لنا أن تفجير اللغة ــ على هذا المستوى ــ إنما يعني حل اربطتها وإرخاء مفاصلها بما يفتق من إمكانياتها على المستوى الأفقي . فالمغامرة الشعرية في هذا الاتجاه هي مغامرة الكشف عن كافة الاحتمالات التي ينطوي عليها الاستخدام النحوي للغة .

ولاشك أن علامات الترقيم تلعب دوراً مهماً في تحديد نقاط الوقوف والحركة في الجملة . فلقد ساعدتنا هذه العلامات كثيراً على فهم الجملة وإعرابها . الا ترى كيف تجعل علامة « الشرطة » (ــ) مثلاً من « اقليم البراعم » مقطعاً مؤسسا على غرار الكلمة المركبة ؟ فأما الجزء الأول لهذه الكلمة فهو يتمثل في كل ما يسبق هذه العلامة ، وأما جزؤها الثاني فإنه يتمثل في كل مايتبعها(١٠) .

ثم الا ترى الى قوله في « كنيسة النهار » :

من زمن الولادهْ

في غابة الرضّاع والفطامْ

انقل اجراسيَ في الليل الى كنيسة النهارْ :

النسغ قداسيَ بين الطلع والثمارْ

والورق العمادهْ

كيف يجعل من النقطتين (:) علامةً تعزز معنى « القول » في فعل النقل ؟

صحيح أن الفعل « نقل » بمفرده لا يؤدي هذا المعنى ، ولكن عمله في مفعوله « اجراسي » معززاً بالنقطتين ــ فيما بعد ــ يؤكد معنى القول بحيث يصبح معنى «انقل اجراسي» بمثابة «أعلن» او «أصرح بـ» ، كما تصبح الجملة التي تلي النقطتين بمثابة مقول القول . ومن المؤكد أن الاعراب التقليدي لايسمح بذلك كما انه من المؤكد أننا نحترم الإعراب التقليدي دون ان نحرم انفسنا من حق فهم المعنى في ضوء نظام الكتابة الجديد .

٢ ــ واما الاتجاه الثاني فإنه يتحدد بالتقاء مكونات لا تلتقي مع بعضها في لغة العرف . و « زهرة الكيمياء » و « إقليم البراعم » و « كنيسة النهار » ... الخ مكونات تنتمي إلى عوالم متباعدة في الزمان والمكان .

ويأتي الجمع بين هذه المتنافرات ليشكل خطوة جديدة في طريقة التفكير الشعري العربي . فالانتقال من الجمع بين المتقاربات إلى الجمع بين المتنافرات هو انتقال من الإدراك الحسي للعالم إلى الادراك المفهومي . فحديث الشعر عند « ادونيس » لم يعد حديث الصورة وحسب ، ولكنه اصبح حديث المفهوم، او بشكل ادق لغة « الصورة الكلية » .

ولعلنا نقبض هنا مرة اخرى على خصوصية من اهم خصوصيات شعر « ادونيس » وهي « الكلية » «La totalite» في هذا الشعر .

ومن هنا ــ فيما نظن ــ مصدر رفضه لأنه لا يستجيب للمصالح المحدودة ولكنه يبقى في مستوى الانسان ، ولا يستجيب للمصالح المباشرة ولكنه يبقى في إطار المستقبل .

ولعلنا نلتمس العذر لهؤلاء الذين يرفضون هذا النوع من الشعر . فلأنه يعلو على متطلباتهم ينفرون منه ، ولأنه يبتعد عن اهتماماتهم الحاضرة يتركونه وشأنه للمستقبل .

إن الجمع بين المتنافرات تفجير للغة في اتجاهها العمودي . وهذا النوع من التفجير إغناء للغة ، لا على المستوى النحوي ، وإنما على المستوى المعنوي.

والحل مشكلة الغموض الناجم عن هذا الاتجاه يكفي أن ننظر في المعجم لنرى الى النويات المعنوية وهي تقارب بين المكونات المتنافرة والأضداد المتباعدة.

إن ايغال « ادونيس » في الاتجاهين السابقين هو الذي يعمل على تضييع القارىء والتأسيس لصدمة « الغموض » في شعره ، وربما اصبح في مقدورنا الآن ان نجمل مفهوم « الغموض » عند « ادونيس » بالقول :

« إنه استخدام جديد للغة . فلغة الشعر عند « ادونيس » مكونة من مكونات ممتدة على المستوى النحوي ، متنافرة على المستوى المعنوي » . اليس ذلك ايها الجاثم على ابواب « الحداثة » ؟ .

ولعل « الغموض » في شعر ادونيس من اهم الخيوط التي نسجت طوق البطانية حول هذا الشعر .

ففي الباطنية انتقال من الظاهر إلى الباطن ؛ من النص إلى التأويل «interprétation» واما في شعر « ادونيس » فاننا في مواجهة نص مغلق يطلب منا اكتشاف مفاتيحه . وهكذا فإننا ونحن نسير في اتجاه شعر «ادونيس» إنما نسير في الاتجاه المعاكس تماما للباطنية .

فالشيء الذي يفعله « ادونيس » هو عكس الباطنية تماما . وكل مافي الأمر ان معرفته بالباطنية واحتكاكه بالتأويل جعله قادراً على إنتاج نص قابل للتأويل . فباطنيته إذاً تكمن في قدرته على إنتاج نص يلزمنا بتأويله .والتأويل فيما انجزناه على امتداد هذا الكتاب يعني التحويل . والتحويل بهذا المعنى يجعل من الباطنية آلية منطقية قادرة على توليد المعنى بغية الوصول إلى اصله . فكيف يتجلى ذلك في شعر « ادونيس » ؟

لقد اصبح في وسعنا بعد ان قرانا قصيدة « ادونيس » قراءة تحويلية ان نحدد مفهوم الباطنية في شعره ؛ أن نقبض على آلية التضمين من خلال التحرك على مستويين :

١ ــ الاول عمودي تغذيه لغة المعجم . فلقد وجدنا ــ ونحن نقوم بتحويل عناصر الجملة الشعرية ــ قدرة المعجم على النهوض بهذه المهمة الصعبة . فلئن كانت « اللعبة » اللغوية في شعر « ادونيس » تقوم على التأليف بين المتباعدات فإن القراءة التحويلية تقوم على تسويغ هذه المتباعدات من خلال ما يطرأ عليها من تحويل . وللتحويل هنا منطقه الذي لا يقوم على المماثلة وإنما على العلاقة بين نويات المعنى في المفردة المحوَّلة والمفردة المحوَّل اليها . فالمرجع في قراءة النص « الادونيسي » ليس الإمام ــ كما هو الامر عند الباطنية ــ ولكنه اللغة .

٢ ــ والثاني افقي تغذيه لغة الصوفية . و « ادونيس » يستخدم السجل المفرداتي للصوفية دون ان يكون شاعراً صوفياً . وهذا ما ينقلنا من الباطنية إلى الصوفية في شعر « ادونيس » .

وكما وجدنا ان الباطن ليس افكاراً جاهزة وإنما طريقة في التأويل تتحدد بها الباطنية ، او طريقة في التركيب يتحدد بها شعر « ادونيس » ، كذلك نجد الصوفية لا رياضة ولا مجاهدة عند «ادونيس» وانما لغة يستعيرها ويحيد بها عن استخداماتها التي وضعت لها في الاصل .

ومرة اخرى تنكشف امامنا خصوصية اخرى تميز « ادونيس » من غيره من الشعراء . ففي حين يستعير الآخرون لغة المعجم ليحيدوا بها ضمن اللعبة

البلاغية المحدودة ، نرى « ادونيس » وهو يوسع دائرة استعارته بحيث تستوعب ، لا المعجم اللغوي وحسب ، وإنما المعجم الصوفي والباطني ومعجم وحدة الوجود ... الخ .

وهذا يعني ان الاستعارة اللغوية تنتقل من الدائرة اللغوية إلى الدائرة الفكرية . و « ادونيس » يوظف المصطلحات والمفاهيم لا لكي ينتمي إليها وإنما لكي ينميها إليه . تماماً كما فعل عند استخدامه رمز « إيكار » الذي تحول في شعره من اسطورة يونانية إلى اسطورة « ادونيسية » .

ومرة اخرى يرتسم حد آخر بين قراءتنا لشعر « ادونيس » والقراءات التي سبقتها . فتلك القراءات ذهبت كلها او بعضها إلى اعتبار شعر «ادونيس» شعراً صوفياً تارة ، باطنياً تارة اخرى . وربما كان من السهل ان يعثر الناقد على شاهد من هنا او شاهد من هناك يدعم به رأيه او يرسخ به ضلاله فيما نرى . إن من اليسير ان نلتقط قوله :

قبل ان يأتي النهار ، اجيء

قبل ان يتساءل عن شمسه اضيء(١٤)

لنرى فيه اتحاداً بين الشاعر والنور .

ومن اليسير ان نلحظ في قوله :

وتجيء الأشجار راكضة خلفي ، وتمشي في ظلي الاكمام(١٥)

اتحاداً بعالم النبات .

كما انه من اليسير ان نرى في قوله :

ثم إذ تسقط الينابيع في صدري

وترخي ازرارها وتنام(١٦)

وفي قوله :

اسكن في الأزهار والحجارة (١٧)

اتحاداً بعالمي النبات والجماد .

اقول إنه من السهل جدا ان نرى كل ذلك لنقول على الفور إن «ادونيس» مؤمن بوحدة الوجود ومن السهل على من توغلوا في التاريخ الفلسفي ماقبل السقراطي ان يقرأوا في هذا الشعر فلسفة العناصر الاربعة .

كما انه من السهل ان نقرأ قوله :

اوقظ الشوارع والليل(١٨)

أو قوله :

وحينما استسلمتُ في جزيرة الجفونْ

ضيفاً على الاصداف والجرارْ(١٩)

لنقول إنه شاعر إحيائي . ولكن حقيقة الامر — فيما نرى — أن«ادونيس» إنما يستخدم لغة وحدة الوجود في معزل عن معناها الصـوفي . فالدهشـة والكشف والرؤيا والاشارة ... مجرد الفاظ يستعيرها الشاعر من معاجم فكرية وروحية متنوعة دون ان ينتمي هو الى مدارسـها . ففي حين يستخدم دعـاة وحدة الوجود اللغة ليعنوا بها شيئاً محددا نرى « ادونيس » وهو يستخدمها ليعني شيئا آخر . فالدال «Signifiant» عند دعاة وحدة الوجود ذو مدلول «signifié» معروف محـدد في نظريتهـم العرفانيـة التي تلحظ الوحـدة في الكثرة ، والكثرة في الوحدة . فاما « ادونيس » فانه يستعمل « الدال » نفسه لمدلولات اخرى . فالنور عنده ليس الله كما هو الامر عند الصوفية مثـلا ، وكذلك الاشارة والحياة والحجاب ... الخ .

وكل هذا يعني تزحلق « الدال » في شعر « ادونيس » ، او انزياحه بما يولد فيضا من المدلولات . واذا كان التكثيف عند الصوفية محاولة للتعبير بالمحـدد عن اللامحـدد ، باللغـة عن اللانهـائي ، فـان التكثيـف في لغـة الشعر عند « ادونيس » محاولة للتعبير عن اللغة باللغة حيث اللغة وحدهـا حقيقة ذاتها .

فكيف نربط إذا بين الحداثة والتراث في شعر ادونيس ؟

قبل ان نباشر هذه القضية نود التأكيد مرة اخرى على ان تناولنا لكافـة هذه القضايا النظرية انما يتم في اطار قراءتنا لـ « زهرة الكيمياء » . فنحن لا نريد بناء فرضيات تعتمد على شـاهد أو آخر ، ثـم نسقط ذلك على شـعر « ادونيس » ، وانما نريد تقديم نتائج يقينية تستند الى بنية من العلاقـات المنطقية التي يبنيها التحليل والتحويل .

فلقد آن للنقد العربي حقا ان يتحرر من زيف العلاقة بين الناقد والنص. ومن مظاهر هذا الزيف اكتفاء الناقد غالبا بانتزاع شاهد مفرد يقدم له بعدة سطور أو يعلق عليه بعدة سطور . فهذه الجزئية في التعامل مع النص تحرم

النص كليته ، وتوقع الناقد في خطر النزعة الاسقاطية . وبدلا من أن يكون الناقد خادما للنص ، كاشفا لاسراره ، يصبح النص خادما للناقد ، مسوغا لآرائه وافكاره . فكل ما يعني الناقد ـ في هذه الحالة ـ لا يعدو الوقوع على شاهد يدعم به رأيه ويثبت به حجته .

ولعل هذا يضعنا أمام واحدة من أهم سمات الحداثة ، وهي كلية القصيدة .

ولقد وجدنا ونحن ندرس « زهرة الكيمياء » أن دراستها في ضوء هذه الظاهرة او تلك ؛ هذا الموضوع أو ذاك ، سيمزق وحدتها ويفكك أوصالها . واذا كان ممكنا لناقد أو آخر ، أن يقرأ شاهداً أو آخر مقطعا أو آخر ، في ضوء مدرسة او اخرى ؛ كالصوفية أو الباطنية أو وحدة الوجود ، فانه من غير الممكن قراءتها في كليتها الا من خلال منهج التحولات .

وكلية القصيدة تعني دخول أجزائها في علاقات متماسكة بعضها مع بعض . فلئن كانت القصيدة مخلوقا كليا صغيرا بالمقابلة مع المخلوق الكلي الكبير الذي هو العالم ، إن المقارنة بينهما لا تستقيم من خلال التشابه بين البنيتين . فلقد آن الاوان لكي ينتقل بنا النقد العربي من علاقة التشابه إلى تشابه العلاقة .

وهنا ينهض تفسيرنا للرؤيا الكلية على أرض صلبة . فالرؤيا الكلية للقصيدة اكتشاف للعلاقات داخل بنيتها الكلية . وكلية القصيدة تعني نظام العلاقات بين عناصرها وأجزائها . وهذا ما يجعل من القصيدة مخلوقاً مكتفياً بذاته ، خالقاً لجمالياته الخاصة به . فجمالية القصيدة لم تعد تتحدد بإعجابنا بها أو نفورنا منها ،وإنما أصبحت تتحدد بكليتها واكتفائها بذاتها . ان جمال القصيدة ليس رهناً بما تعيد اليه ولكنه رهن بالترابط بين عناصرها.وبمقدار ما يكون الترابط محكماً يكون التجانس باهراً . وهذا ما يذكرنا بالتحديد الذي يقدمه معجم الالسنيات الفرنسي للبنية . فالبنية « نظام موسوم بالكلية والتحول والضبط الذاتي » . ولقد حددنا كل ذلك وأشرنا الى خصوصيته في منهجنا النقدي بالمقارنة مع المنهج البنيوي .

على ان كلية العمل الابداعي تنتظر من الناقد كلية العمل النقدي . فمهما توغل الناقد في التفكيك والتحليل ، ومهما غاص في التفاصيل والجزئيات ، عليه ان يعيد الكثرة الى الوحدة ، والاجزاء الى الكل .

وليسمح لنا القارىء الكريم ان يلقي معنا نظرة الى الوراء ليرى بنفسه كيف واجهنا كثافة الشعر بكثافة النقد ، وكيف انتقلنا من تفكيك القصيدة

والغوص في تفاصيل الاعراب التوزيعي والبلاغي الى القبض على كلية القصيدة. ولقد تجلى كل ذلك في التحولات النهائية لمقاطع القصيدة ، هذه التحولات التي ما ان توضع الى جانب بعضها حتى تشكل جملة طويلة واحدة . وفي وسع القارىء ان يتبين بمفرده كيف استطاعت اللغة النقدية أن تبز في كثافتها كثافة اللغة الشعرية . ولا ادل على ذلك من ان مفردات جملتنا النهائية اقل عدداً من مفردات القصيدة علماً بأنها لا تقصر عنها ولا تتميز منها الا في مهمة النهوض بعبء التوصيل .

ومن الرؤيا الكلية الى الرؤيا الخلق نجد انفسنا امام السمة الثانية من سمات الحداثة . فالرؤيا خلق لا محاكاة . وهذا ما يجعلها تنتمي الى المستقبل لا الى الماضي. لقد رفض الشاعر الحديث المحاكاة أو قل أعطاها بعداً جديداً، فبدلاً من ان يكون الشاعر صدىً لصوت قديم أصبح له صوته الخاص . وبدلاً من أن تكون القصيدة ظلاً لصورة قديمة أصبحت ظلاً لذاتها . فهي مرآة نفسها ، وصدى صوتها ، وظل شعاعها .

ولقد اراد ادونيس كشاعر حديث أن يخلق عالماً لم يخلق بعد. ولم يكن همه في ذلك يتركز على ماهية مخلوقه بقدر ما كان يتركز على عملية الخلق بحد ذاتها . ففي مرحلة التجاوز ينصب الاهتمام على الصيرورة لا على الكينونة . وهكذا فخلافاً لمحاكاة الخليقة التي هي محاكاة لكائنات موجودة تأتي محاكاة الخالق التي هي محاكاة لعملية الخلق. وحيث يكون التركيز في النمط الاول على الكائن يكون التركيز في النمط الثاني على الصيرورة. وهذا ما يجعل من الخلق الشعري اندفاعة مستمرة في المستقبل ، لا وقفة مسحورة بالماضي ، مبهورة بما تم إنجازه .

ولعلنا نستطيع ان نجسد هذه الاندفاعة في التجربة الادونيسية بتفجير اللغة على المستويين الافقي والعمودي .

وتفجير اللغة لا يعني تحطيمها كما يحلو لخصوم الحداثة ان يروجوا ، وكما يحلو لبعض مراهقيها ان يتصوروا متوهمين انهم بتطرفهم « الثوري » انما يخدمون الحداثة والمجتمع . الا ترى كيف تقتصر مفردات « التحطيم » في القرآن الكريم على المعاني السلبية في حين لا تكتسب مفردات « التفجير » الا المعاني الايجابية ؟. ان تفجير اللغة يعني في ابسط ما يعنيه الاندفاعة المستمرة في خلقها .

ولكن كيف يتم الانتقال اذاً من قضية الحداثة الى قضية التراث ؟ كيف يربط « ادونيس » بالتحديد بين مفهومي الاصالة والمعاصرة ؟ .

هذا ما نجيب عليه انطلاقاً من القصيدة المدروسة ، ومنها فقط .

لعل المقطع الاخير من القصيدة « إقليم البراعم » خير ترجمة للعلاقة بين هذين المفهومين . ففي هذا المقطع يستخدم الشاعر اسطورة « إيكار » استخداماً يمهد لهذه العلاقة ويفتح الآفاق واسعة للتأمل فيها .

واول ما يلفت النظر في « إيكار » الاسطورة انه ينتمي الى اب عريق أصيل وان امه كانت سبية . فمن المتعارف عليه ان « ديدال » والد « إيكار » ينتمي الى العائلة المالكة لـ « اثينا » والتي تنتهي الى «Erechtée» حسبما جاء في الاسطورة . في حين كانت ام « إيكار » عبدة من عبدات الملك الكريتي « مينوس » «Minos»

ولقد احترق « إيكار » الأسطورة لانه لم يأخذ بنصيحة ابيه ، فأما « إيكار » القصيدة فانه لم يحترق مما يفترض انه اخذ بنصيحة ابيه .

لـم يحترقْ ــ لمـا نفـّـذ إيكـارْ

والاب على هذا المستوى الذي يضمه عليه شعر « ادونيس » انما يرمز الى التراث في حين ترمز الام الى الثقافة الدخيلة . وهذا ما يجعل من انتماء « ادونيس » انتماءً مزدوجاً . فهو ــ من جهة ــ ينتمي الى الاصيل العريق الذي يتمثل هنا بامتلاك ناصية اللغة والنحو ، وهو من جهة اخرى ينتمي الى الحداثة التي تعني هنا امتلاك الثقافة الانسانية ادباً وفكراً وفلسفة .

واذا توغلنا في القصيدة وجدنا انه خلافاً لـ « إيكار » الاسطورة الغائب فان « إيكار » القصيدة غائب حاضر . وهذا ما يفترضه قول « ادونيس » انه يمكن ان يمر ثانية .

واذا كان « إيكار » الاسطورة لم يتمرس بالموت ، فان « إيكار » القصيدة ، « إيكار » الذي ينتظره « ادونيس » عاش في ظل الموت الآتي :

مـر هنـا إيكـارْ
خيـم تحـت الورق الشاحبِ أشمّ النارْ
في غرف الخضرة في البراعم الوديعهْ

وهذا يعني ان « إيكار » القصيدة توقع ان يصيبه الموت الآتي . والموت في القصيدة لا يأتي من فوق كما هو الامر في الاسطورة ، ولكنه يأتي من تحت .

انه يأتي من الوسط الذي عاش فيه « إيكار » ، من الارض ، وذلك خلافاً للأسطورة التي تؤسس بدءاً من الميتافيزيقا .

الرهان الذي يطرحه « ادونيس » اذاً لا يتوقف عند الخروج من المتاهة ، ولكنه يتعدى ذلك الى المعرفة الدقيقة بوسيلة الخروج . فاذا كان « ايكار » الاسطورة قد نجا من المتاهة بالوسيلة التي أعدها له أبوه ، فانه لم يكن عارفاً بأسرارها ، أعني انه لم يكن عارفاً بأسباب قوتها وضعفها ، ومن هنا مصدر غروره وسقوطه . وبالمقارنة مع ذلك فان « ايكار » القصيدة يعتمد على ما يقدمه ابوه ، أعني التراث ، ولكنه يجب عليه أن يكون حساساً تجاه تراثه ، ينظر اليه بعين نقدية . انه بكلمة أخرى يعتمد على تراثه وهو يعرف نقاط ضعفه فلا يحمله ما لا يطيق . وربما كان في وسعنا أن نوجز العلاقة بين الاصالة والمعاصرة انطلاقاً من المقطع المذكور بما يلي :

« اننا في انتظار شخص أصيل دخيل ، تمرّس بالموت الزاحف فتمكن من مواجهته والانتصار عليه مستنداً الى أصالته وعراقته » .

هذه جولة « متأنية » على أهم القضايا التي يدور حولها شعر « ادونيس » . ولقد قمنا بهذه الجولة في هدي منهجنا النقدي والنتائج التي توصل اليها .

وفي انتظار من يناقش آراءنا ، ويدير الحوار حول منهجنا ، فانه ليذهب بنا الاعتقاد الى ان هذا المنهج استطاع ان يقبض على آلية توليد المعنى في شعر « ادونيس » . فلقد بدا لنا أن هذا الشعر تعرى أمام أعيننا وانكشف عنه سر الابداع الذي طالما كان قيداً له وحجاباً عليه .

ولكن ، هل يكون انكشاف السر موتاً للشعر ؟

ان وقوف المرء أمام معبد قديم ـ يعرف مسبقاً سره المعماري ـ لا يحول بينه وبين متعة التأمل فيه والحلم على عتباته .

وانطلاقاً من المعاني الكلية التي توصلنا اليها ؛ أعني نهايات المعاني ، يستطيع كل منا أن يحلم بما يشاء ، وأن يدخل في مرآة المعنى الفرعي الذي يختار .

لقد استطاع منهجنا الذي تجاوز مفهومي الصورة والبلاغة أن يعود بالشعر الى بكارته الاولى ، أن يغزو الموضوع الذي يريد بدءاً من هذه البكارة : اعني عذرية المعنى . ففي وسع الناقد بعد أن يقبض على المعنى الاصلي في الشعر ان يقوم بذرع موضوعاته في كافة الاتجاهات .

فأما قولنا ان منهجنا تجاوز مفهوم البلاغة ، فان البلاغة ـ في وضعها الراهن ـ عاجزة ـ في رأينا ـ عن الوصول الى مكنون الشعر الحديث . انها علم قام على جماليات مغايرة لتلك التي قام عليها الشعر الحديث . ولما كان للشعر الحديث جمالياته الخاصة به فانه في حاجة الى بلاغة جديدة او لنقل ـ بشكل ادق ـ الى قراءة بلاغية جديدة . وهذا ما نزعم اننا انجزناه ـ بشكل عملي ـ في دراستنا الحالية .

وانه لما يحز في النفس ان نرى البلاغة العربية وهي تحيد عن وظيفتها التي وضعت لها في الاصل . لقد كانت البلاغة وسيلة فأصبحت غاية في ذاتها . كانت وسيلة لفهم الابداع وتفسيره ، فأصبح الابداع وسيلة لتأكيد البلاغة وتسويغ وجوهها . كانت البلاغة اداة لتذوق الشعر وادراك سحره وبيانه ، فجاء عصر اصبحت فيه البلاغة هي الجدل المطلق الذي ما ان تستعصي عليه قطعة ابداعية حتى نصفها بالقبح ونتهم صاحبها بالمروق . لقد كان الشعر ـ باختصار ـ ميدانا رحبا لاستخراج معادن البلاغة واسرارها ، فأصبحت البلاغة ميدانا ضيقا ينبغي على الشعر ـ مهما رحبت آفاقه وتشعبت اغواره ـ ان يقسر نفسه على الحركة فيه والدخول في جلبابه .

ولقد وجدنا ـ ونحن نخوض معركة المعنى في شعر « ادونيس » ـ كيف يمكن الاستغناء عن تلك الوجوه البلاغية التي رسختها في عقولنا قرون من التعليم في المدارس والكتاتيب .

واما قولنا ان منهجنا تجاوز مفهوم الصورة الشعرية ، فان الصورة مفهوم نقدي عاجز ـ في رأينا ـ عن حل المعضلة الشعرية الادونيسية . فشعر « ادونيس » يقوم على اساس اللعبة المفتوحة . وهي لعبة يحددها تفجير اللغة على مستويها العمودي والافقي .

ولقد تكشف لنا ان الصورة الادونيسية وليدة عملية تراكمية لتحولات البنية التأليفية . انها مجموعة من التحولات التي لا يعدو التحول الاخير منها ان يكون الشكل الاخير . فأما الاشكال الاخرى فهي كافة التحولات التي مرت بها البنية في تشكلها منذ ان كان طرفاها متآلفين متواشجين الى ان تجليا في الصياغة النهائية متنافرين متباعدين . وسواء بين « ادونيس » شعره بشكل واع أو غير واع ، فان الصورة الشعرية عنده لا تقوم على علاقات اعتباطية وانما على قوانين العلاقات اللغوية المعروفة .

وعود على بدء ، فان الوقوف على سر الشعر لن يقوى على رد سحره ، وان الدخول في معبد الشعر لن يفلح في مغالبة قدسيته ، وطرد الاله من جنباته .

ابـــــداع

شعـر

الطـائر المختطف والبـــاز

عبد الكريم الناعم

قصّة

السـمكـــة

وديـع اسمندر

الطائر المختطف والباز

عبد الكريم الناعم

ـــ الباز طائر حرّ ، /

ـ بلغ أحدُهم مقاما موغلا في الكشف فسمّوه « الباز » ./

ـ حين تضيق بمن تَرَسّموا خطوات روحه يصيحون « يا باز » .

ـ انتظرَ أحدُهم زمناً طويلاً مشرَّعاً أبواب مضافته وهو ينتظر مروره حتى اضطّره الصرف لإغلاق ذلك الباب . /

ـ حين مرّ مصادفة كانت استضافته من نصيب خادم الرجل ،
الخادم بعين واحدة منذ زمن طويل ،
مسح الضيفُ عينَ الخادم وتمتم بكلمات فاندفع النورُ في العين الخراب ،
كاد يجن من الفرح ./ رآه مولاه وعرف القصة .
جرى كما تجري الطيورُ المولّهة ،
لم يجد أحداً ،

لوى عنقَه بحنان جارح وقال :
« هذا هو الباز الأشهب الذي أمضيتُ عمري بانتظاره » .
بازُه داخل في نسيج الهواء والحياة ، والموت ، /
طائراً تكون ،
طائراً ترحل ،
طائراً يقرأ ، ويكتب ، ويخاف ، ويرجو •
إفتَحْ لي وكَنْـَة قلبك وتغرّبْ على أبجدية هذا الكون

ع.ك.ن

زهرةً زهرةً
يضيء الغمامُ الذي تَوّجتَه البراري بروح الغُضار
ويدنو بعيداً
قطرةً قطرةً
ويخلع زهرُ الحقول مواقيتَه
ويخلّي على الأنس شطّاً وحيداً

ليلةً ليلةً
أنأى عن الورد المُتَوَّجِ ، /
أيها الدُّفلى المسافرُ في دمي النجديَّ إقرأْ
سورتين على تويجي ،
صَغُرَ العالمُ حتى عن نشيج . . في مساء لم
أجد غيريَ فيه
صغُرَ العالمُ ، /
لا يتّسعُ الجوريُّ للقُبْح ، ولا للكلمةِ الجوفاءِ
تسعى للعَرّاءْ

انه البيت المضاءْ
بثريّات من التفاح ، والأجّاص ، والشجو .. المرار ..
الضوء يلقي نفسه الكبرى ،
ينقّي ظلّه من أجرد الألوان
حتى تصطفيه
صغُرَ العالَم حتى عن نشيج
لم أجد غيري فيه
فافتتحْ يا بازُ نوّارَ المعاني
هذه الأصداءُ حمّى
والمدى فُلْكٌ مدمّى
فافتتح « يا باز » بازارَ المعاني
ردَّ تيّارَ المنافي ، أو توغّلْ
كلُّ ورّادٍ على الدرب الذي يغريك ، . .
أو يعنيكَ
مِشْعَلْ
فاقتدحْ
بشرارةٍ حجراً على حجرٍ ،
تدفّقْ شعلةً ،
ناراً
على وَرْدةِ ماءْ
أنت المغرَّبُ بين بَرْزَخةِ التفتُّحِ والعياءْ
تعنو كقوس حين تنهدُّ الخطوطُ ، /
هي الشطوطُ على المراسي : خُلّبٌ ، /
ويداكَ ناضحتان ورداً أو دماً ، ، /

هل أتْرُكُ الوردَ الحزينَ على قوافي ثغر (ها) الرعوي ؟
قد تأتي الوعولُ إلى المناهلِ ، /
كنتُ أرسمُها فتعدو ،
كنت أتْبَعُها فتأخذني إلى السهم الأخيرِ ، /
وكنتُ أُجْهِدُها فترنو ، /
وأحاذيها فترتدُّ بقرنين من العشب المندّى بالغُمُومِ ، /
الشوقُ يلقي روحَه العليا لأعلاقِ البُغَامْ
فتجيء أسرابُ اليمامْ

هل أستعيدُ توجُّسَ الورقاءِ في الصبحِ .. الهديل
فيستردُّ الرمزُ مني آخرَ الإفصاحِ عن معنىً سماويّ
تردَّدَ في تَواشُجِ عُقْدَتَيْنْ ؟
هل أستعيدُ : ؟ وهل هو الزمنُ الذي أفْرَدْتُهُ
لضفافها

أم أنهُ زمنُ اللَّجَيْنْ ؟

إنه الأخضرُ والليليُّ في لحظة هث مُسْتَهَامْ
فافتح الزهرةَ وادخُلْ في خلايا الحجر الشعريِّ
وافتَح لَبَّةً
وأضِيءْ بَرَاثِنَها وأشْعِلْ نقطتينِ ،
هي المراكب كلما اقتربَتْ تَبَاعَدُ ،
كنتَ تَرْحَلُ ، /   ها أنَا مَتَوَحِّدٌ ،
صِلتي بما في هذه الخلجان أكبرُ من تَنَاغُمِ مائها والرملِ ، /
أخشى بين فاتحة وأخرى أن يكون العالمِ العُلْوِيُّ

أكشفَ من تَلَفُّتِ زهرتين على صِبا رمّانتين مضاءتين
بِرَجّتين من النّهود إلى الشراع ، /
وكنتُ أخشى ، بل أنا مازلتُ أخشى أن تطيرَ بي الهواجسُ
والوساوس ، / و (هو) يَعلم كم تَجَرَّعْتُ المرارَ لأَتّقي
خطرَ انزلاقٍ طافح بدمي الحزينْ
أخشى وأعرف أنه لا بدّ من صوتٍ شجيٍّ يُوقِظُ
الحجرَ الحنُونْ
فيُهيجُني شجنُ الغصونْ .

مذْ كان يخطفني الشراب فأشتهي لمرّ البكاءِ على
الخوانِ : أمرُّ بينَ غمامةٍ وحمامتينِ فيرتدي
الطاووسُ بزّتَه ويخرجُ . /
شهوةُ الإنتاشِ تُوقفُني على سيفِ الذرى ، /
العالَمُ المسكون بالخوف المعشّقِ مُبهمٌ ،
من أوّل الخيط الملوّنِ في الخلايا صاعداً حتى
انطفاء اللوز في عينين من لهَفٍ ، وحتى غُربة المحمول
تأخذُهُ المحطةُ باتجاه ضلوعها ،
وأقول : أنْزَعُ كلَّ شيء ،
من رأى شيئا ليَنْزَعَهُ ،
هي الأشياءُ حاضرةٌ وغائبةٌ وتدخل بين ساقيتين تَخرجُ
منهما قبل الدخول فكيف . . قل لي ؟

ها ذلك الباز المعبأ بالشرار يطير مشتعلاً فيوغل :
تستفيق بي المدائنُ ، واللُّبانات المريبةُ ، والأزاهيرُ

التي تَسعى . . وتضحك . . لم تَهْطُلْ
ويطير مشتعلاً على كفِّ الذرى ، /
من ذلك الورد المتوَّج وردةٌ تتوسَّدُ القلبَ البصير .
تصيرُ آخرُ ظلمة في الكون مِشْعَلْ

إنه الذاهبُ والآتي ،
هما حدّاهُ ،
تمضي فيهما للبؤرةِ المشكاةِ في ماءِ التوُّهجْ ..
قطرةٌ من ذلك الضوءِ المُعَبّا . .
في شعاع العنكبوتِ الأسودِ الضافي حناناً
تَنشرُ الجرحَ على أوّلِ مرفأْ
فتصيحُ الوردةُ الأولى وقد داهمَها السدّرُ المتوَّج
كيف تَخرجْ ؟ !
أوّاه من سيُضيءُ هذا الخيطَ ؟
قلبي من سراج موثَقٍ أعيَتْهُ أسئلةُ النوافذ ، /
و (هي) عاشقة ، ورائبةٌ ،
أشابكُ بين أغصنِها وروحي وانتثارِ الكونِ في عنقود كرم ، /
كيفَ أفْصِلُ بين داليةٍ ونسغٍ وانبهارِ الوعلةِ البيضاءِ في
أقصى براري الروحِ ؟
من ألقى على أغصان روحي غيمةً من ذلك الكبريتِ
واستدعىَ بقايا الزمرةِ الخضراءِ فيها ؟ ؟ !
كيف أ بْعدُها لتنأى ؟
كيف أُدْخِلُ نورَ عيني في حدودِ السطر في عين ترامتْ
خلفَ أسئلة المرايا ؟ ؟ !

من ذا يعيد إلى الطفولة بعض ألوان الحكايا ؟
من ذا ... ؟
أكاشِفُ نبتةَ الياقوت .. ترسمني على قنديل حبٍّ
فتضيءُ في الظلماتِ قلبي

وتمنّيني بأن أخرُجَ من دائرةِ الدهشة والتوقِ . .
فأصغي لنداءاتِ الخلايا في براري الجسدِ المسكونِ
بالحمّى ، وبالدودِ المُلوَّنْ
فأؤذِّنْ .

أيها الماضون من أوّل باب الخلق حتى رقّةِ الزهرة ،
والنّهد ، تكشّفتُ دخولَ النار والتيهِ على صهوةِ
قلبٍ تارةً تعلوُه النارُ
فأخشى أن تناديه الحرائقْ . .
فيرى كوكَبَه فيها . . فيدنو
ثم تُنهيه الطرائقْ . .

تارةً تدخُلُ فيه الظلمةُ الكبرى ، .. /
أواري سوأةَ الشكِ ،
ولا أعرفُ كيفَ الشكُ يأتي . . . .
....
....
من رأى قلبي يغنّي في الحواري باحثاً عن جمرة ؟
أضناهُ أن الكونَ ذو وجهينِ ،
كِلتا وجهتيهِ

لِغَرابةِ الروحِ التي تَعِبَتْ من الإبحارِ فاختطفَتْ وسامَتها
وعبّتْ من يديه .

أيها الخمرُ استبِحْني
خذْ من الصحوِ القناديلَ . . احتراقي وأضيءْ
جذوةَ ربّانيّتي

فلّ عني قيدَ هذا الصحو
أرْجِعْني إلى سترِ الغطاءْ
كلُّ هذا الدهرِ لا يكفي لكي تعرف سرَّ النبتِ في
هذا العراءْ
كلُّ هذا الدهرِ لا يكفي لكي تعرفَ سرَّ الله في الخلقِ ،
فمَنْ أطْلَقَ هذا الطائرَ المجنونَ في صدري .
وألْقاني إلى آخرِ قوسٍ زهرةً يُذْبِلُها الفوحُ
ومن فتّحَني حتّى العياءْ ؟ !

آ . . . . ه
مَنْ أوْقَدَني بالنارِ . . والنشوةِ . . والإيناسِ
حتّى لم أجِدْ غيرَ البكاء ؟ ! !

حمص — ٩٨٢ — ٩٩٠

ملوحظة :

في هذه القصيدة تداخلات وانتقالات ايقاعية على الصورة التالية : فاعلن ـ فعولن ـ فاعلن فعولن ـ متفاعلن ـ فاعلاتن ـ متفاعلن ـ فاعلاتن ، ويستمر التداخل والانتقال بين الكامل والرمل حتى نهاية النص .

السمكة

وديع اسمندر

كعادته توقف خليل أمام باب الدار ، وراح يتفقد السماء ثم تمتم :

ــ الطقس جميل .

كان خليل قد جهز زوادته ، وتأبط سلته القصبية ، وعلى كتفه الايسر ألقى بشبكة صيد مخصصة لقنص اسماك مياه البحر القليلة العمق . كانت تلك مهنته الوحيدة التي يعيل من ورائها اسرة مؤلفة من سبعة أفواه ، تعيش تحت خط الفقر بدرجات . لكن ذلك لم يكن يعني الكثير بالنسبة لخليل ، لأن معظم سكان الحارة يعيشون على الكفاف ولا يتأففون . كان خليل يعتقد بأنه كلما خرج الى البحر سيرجع بصيد وفير . لكنه كثيرا ما كان يعود وحيدا بلا أسماك وبلا زوادة ، ويكتفي من قوت يومه بكسرة خبز وحبة زيتون . لم تكن خيبات الامل التي تصادفه تكرس في نفسه شيئا ، وكأن رجلا آخر هو الذي يصاب بها ، كانت جملته الوحيدة التي يبرر بها ما يجري أمام زوجته :

ــ الدنيا هكذا ، يوم لك وآخر عليك .

وقد أحزنه أن يسمع زوجته وأم أطفاله ترد عليه قبل أيام بلهجة ساخرة :

ــ أرى يا خليل ان الدنيا يوم عليك ويوم عليك .

في الزقاق المؤدي الى الشاطىء صادف خليل ابنه الصغير « حموده » • كان حموده يلعب مع رفاقه ، وعلى بنطاله رقعة جديدة •

ــ بابا ، ألا تشتري لي كرة ؟!

ــ اليوم اذا حالفني التوفيق باذن الله •

وقبل أن يصل الى الشاطىء ، قرر في سره ان الصيد سيكون على حظ حموده ، كانت شمس الصباح تبدو حارة أكثر من المعتاد • والبحر في غاية السكون • تفقد خليل رأسه • كان يحسب انه يرتدي طاقيته البيضاء لكنه لم يجدها ، ولم يفكر بالعودة من أجلها الى البيت •

ــ الى أين أتجه : شمالا أم جنوبا ؟!

استعرض الشاطىء في ذهنه بشكل سريع ، ثم تابع سيره شمالا • كانت الخلجان الصغيرة تكثر على الشاطىء الشمالي • وجدول الدم المتدفق من مسلخ البلدة يصب هناك • الامر الذي يزيد من احتمالات تواجد الاسماك لكن الشيء الوحيد الذي لم يكن يعجبه في تلك الرقعة من مناطق الصيد ، هو كثرة ضاربي الديناميت ، الذين ينسفون الماء ، ويتسببون بقتل آلاف الاسماك الصغيرة بلا شفقة ، في الشهر الماضي حاول اقناع احد ضاربي الديناميت بالعدول عن فعلته :

ــ اسمع يا عبد الله لنفترض أن الحرب نشبت بينك وبين البحر ، أترضى بأن يقصف البحر أحياء ومدارس البلدة ويقتل الاطفال ؟! انظر ... البحر أمامك وبه من الاسماك الكبيرة ما يكفي ، اختر الطريقة الملائمة وباشر حربك ضدها • ودع الاسماك الصغيرة تحيا بسلام •

كان خليل يؤمن بأن السمكة الكبيرة عاشت بما فيه الكفاية ، وان الله سبحانه وتعالى قد حللها للاكل • لذلك لم يكن يحزن على موتها • تماما كما لو أنه يسمع بوفاة رجل عجوز • فيعلق على الحدث قائلا :

ـ يرحمه الله ، لقد أكل عمره .

لكن مصرع صغار السمك كان يؤلمه . ويذكره بموت الاطفال .

ـ ما أقسى رؤيتها تطفو على السطح وهي التي لم تر من الدنيا شيئا .

على طرف الخليج الذي يلي مسلخ البلدة،خبأ خليل زوادته بين الصخور، ثم نزع سرواله ، وفرد شبكته ، ودخل الماء . كانت مياه البحر صافية كعين الديك . وكان بمقدوره مراقبة مرور اسراب « البوري » بسهولة .

ـ يا حظ حموده !

فجأة طارت الشبكة في الهواء ، ورسمت دائرة عنكبوتية ورست في الماء اندفع خليل وراءها . وراح يتحسس القاع بقدميه . وكلما عثرت قدمه على سمكة تحت الشبكة ، كان يبتسم ، وينحني بجذعه حتى تغمر صدره المياه ، فتمتد يده الى السمكة ، تخنقها تحت الماء خشية أن تهرب .

ـ ضربة موفقة يا حموده !

قال خليل وهو يسحب الشبكة من البحر ويرجع بها الى البـر ، حيث أفرغ صيده في السلة ، وخلص الشبكة من الاعشاب العالقة بها ، ثم أعـاد تجهيزها للتنص . أحس خليل أن الشبكة تتحفز مثله للصيد . وان أعينها الصغيرة تتسع على آخرها . وتراقب معه المياه الضحلة . كانت أشعة الشمس تزداد ضراوة . وخليل ينتقل من خليج الى آخر ، وقد أنسته الاسماك وجع الرأس الذي بدأ يشعر به . كان قد التهم زوادته ، وشرب القطرة الاخيرة من زجاجة الماء التي جاء بها . كان سعيدا بالسّل الذي يوشك على الامتلاء . وبعيد الظهر كان البحر مايزال صافيا هادئا . وفي خليج صغير ، لم يدر خليل لماذا أصبحت قدرته على رؤية الاسماك أقل من ذي قبل . كان رأسه حارا . فغسل وجهه ، لكن الحرارة ظلت على حالها . كانت الرؤية تغيم في عينيه . وفي اللحظة التي قرر فيها العودة الى البيت ، خيل إليه أنه يرى سمكة غريبة تجلس

فوق صخرة قريبة • تسلل نحوها بحذر، يريد الامساك بها • وفجأة توقف مصعوقا • لم يصدق نفسه ، كانت السمكة تبكي • سمره الرعب ، وأطلق صرخة مدوية ، لفتت انتباه السمكة ، فمسحت دموعها بطرف ذيلها وقالت :

ــ لا تخف أيها الصياد •

قرأ خليل البسملة • وتمتم بآيات من القرآن الكريم ، لكن السمكة لم تختف • كانت السمكة تنظر اليه وفي عينيها دموع • فتمالك خوفه وسألها :

ــ هل أنت جنية ؟!

ــ لا •• أنا مجرد سمكة صغيرة •

ــ ما الذي يبكيك ؟! هل أنت جائعة ؟!

تنهدت السمكة وقالت :

ــ أبكي الحياة في هذا البحر الجميل حيث تقوي فيه يأكل الضعيف، فقبل لحظات أوشكت سمكة كبيرة أن تلتهمني • ألا يحدث معكم مثل ذلك على البـر ؟ !

دهش خليل من سؤال السمكة ، كانت امثال تلك الاسئلة لا تدور في رأسه • فقال بارتباك :

ــ لا أدري •• فأنا لم ألاحظ أن أحدا يأكل آخر •

فرحت السمكة وقالت :

ــ سأذهب الى البلدة واعيش فيها اذن !

مر اثنان من صيادي القصبة على الشاطىء ، فشاهدا خليل بين اليقظـة والاغماء • فعادا به وبأسماكه الى البيت • وقال أحدهما لزوجته :

ــ خذوه الى طبيب ، لأن ضربة الشمس مؤذية هذه الايام •

كان خليل يروي لزوجه ولزواره حكاية السمكة الناطقة وقد آلمه ان يسمعهم يوشوشون فيما بينهم :

ـ خليل يهذي !

اعتقد خليل بعد ان تماثل للشفاء بأنه كان يهذي . وان ما رآه لم يكن أكثر من حلم يقظة ، سببته أشعة الشمس المحرقة . وكاد ينسى الامر لولا ماحدث معه في الخليج الصغير ذاته . كان خليل يصطاد ، عندما سمع حركة وراءه . تلفت بسرعة . فاذا به وجها لوجه أمام السمكة ، وكانت السمكة تبكي . فسألها :

ـ لماذا تبكين هذه المرة . ألم تعجبك الحياة في البلدة ؟

اقتربت السمكة منه ولم تجب . كانت تنظر اليه باشفاق وعتاب ، وفجأة بدأت ترتجف من الغضب وعيناها تتقدان كالجمر . ثم لم تلبث ان تفجرت بقوة وتحولت الى شظايا صغيرة ملأت وجه خليل المسكون بالرعب والخوف .

* * *

الدعاية الاستلابية:
«أضواء على الصور والأنماط المقولبة وتأثيرها»

د. عدنان أبو فخر

أرنست دوليف
شاعر الحب والانسانية

كمال فوزي الشرابي

ابن الساعاتي
شاعر كبير مجهول

عبد الغني العطري

ندوة الشهر
«ابلا وأوغاريت في المدرسة التوراتية»

عبد الرحمن الحلبي

ردود وتعليقات
الذاكرة البصمية والأمثال القرآنية

علي أمين

الدعاية الاستلابيّة:
«أضواء على الصور والانماط المقولبة وتأثيرها»

د. عدنان أبو فخر

تكمن المهمة الاساسية للدعاية الاستلابية في ان تصدر لبلدان العالم اساليب ضبابية وهمية للتنميط المقولب (stereotypisation) مغايرة لتلك المستخدمة في الدعاية الموجهة الى الداخل تحت ذريعة الأخبار .

وتتميز هذه الدعاية بتغلغل الكلمات الاحتكارية في حياة الشعوب باساليب متقنة ومدروسة بشكل جيد للبث الاذاعي عبر (صوت اميركا) و (اذاعة لندن) و (مونتوكارلو) و (الموجة الالمانية) و (صوت اوربا الحرة) و (الاذاعة الاسرائيلية) وغيرها من المراكز الدعائية .

ويتجسد خطر الدعاية الاستلابية بتوجهها للجمهور الخارجي العفوي وغير المدرك احيانا في انها ترتكز على اثارة اهتمامه بحجة انها تلبي حاجاته في الاعلام وازالة التوتر لديه.

● ماهو الاستلاب والانسلاب ؟

يتضمن كتاب عالم الاجتماع الالماني المشهور (ج. فرانك) « الانسان المنسلب» التعريف التالي : «يفهم الاستلاب فيغالب الاحيان ، بالتأثير النفساني الذي تبديه الدعاية بما يضر الناس الموجهة اليهم » .

ويضيف فرانك ان الخصائص الاساسية لتأثير ناقل الاخبار الاستلابي على الوعي الجماهيري تتميز في انها مخفية وغير واضحة في السبل العام للبرهنة والتدليل ، وبالتالي يتحقق التأثير المبغي من غير ارادة المتلقي الذي يصبح ضحية منسلبة دون أن يعي ذلك .(١)

ان الانسلاب حالة نفسية تؤدي بالفرد الى الانسلاخ عن واقعه الاجتماعي بقيمه وثقافاته وتبني أفكار مناقضة لمجتمعه وموالية للبلدان الاستلابية ، وقد قال شاتز وونتر بأن امكانية الانسلاب قائمة حيثما كان الانسان (سلبا أو ايجابا) يرتبط بالعالم الموضوعي المحيط به من اجل العثور على ذاتيته وتوافقها مع نفسه على الرغم من اختلافها عن هذا العالم ، ومن ثم فان الانسلاب يصبح مرادفا للتنافر مع ثقافة المجتمع .(٢) .

ويعرف عالم الاجتماع الفرنسي جاك الول الانسلاب بقوله : (ان تصبح منسلبا هو ان تصبح شخصا آخر غريبا اكثر من كونك نفسك ، وكذلك يمكن أن تصبح خاصا بشخص آخر ؛ وبمعنى آخر فان هذا يعني انسلاخ الشخص عن نفسه ليصبح خاضعا وحتى متمثلا بشخص آخر) .(٣) .

ان تحقيق حالة الانسلاب هو هدف من اهداف الدعايةالتي تلتزمبتوظيف وزيادة وتدعيم ميل الشخص بفقدان ذاته في امر اكبر منه كنزاع يطمس شخصيته ، ويحرر فيه الانا من كل شك وصراع ومعاناة من خلال الذوبان مع

---

(١) انظر : FRANKE H. der manipulierte mensch.

(٢) اقتباس في المعرفة . العددان ٢٤٣ - ٢٤٤ ايار - حزيران لعام ١٩٨٢ ص ٢١٨ .

(٣) ELLUL. J. propaganda the formation of Men's ATTITUDES. New york 1965, P. 169

الآخرين ، ومن ثم فان هذه الدعاية تخلق حاجات مصطنعة في انفسنا كزيادة في الرغبات والهوى والحاجات غير الضرورية(٤) .

ويرى ايلول ان الدعاية ليست سوى عامل اضافي للفعل الاجتماعي ، فهي تستطيع ان تهاجم من المؤخرة وان تستنزف الدماء ببطء ، وتخلق مراكز جديدة للاهتمام ، تؤدي الى نسيان المواقف السابقة ، كما يمكنها ان توجه الاستعداد والقابلية في اتجاه آخر ، او ان تثير فعلا مناقضا للآراء المتكونة عند الفرد ، دون ان يدرك هو ذلك(٥) .

وترتكز نظريات الدعاية الامبريالية الاستلابية والتي اعدها ووضعها المنظرون الغربيون الى جملة من العناصر السيكولوجية والسوسولوجية ، وبشكل خاص الى الصيغ المعبرة عن البناء السيكولوجي لعملية الاتصال (حوافز ـ استجابة) وعن العلاقة بين ناقل الاخبار والمتلقي (مخبر ـ متلقي) .

ويريد ، عادة ، ناقل الأخبار ان يستجيب المتلقي له استجابة انفعالية لأن عملية الاتصال مقرونة بالاستجابة ورد الفعل ، وفي حال انعدام الاستجابة لاتوجد عملية الاتصال مطلقا . ويقاس مستوى الاستجابة بمدى استعداد الانسان السيكولوجي لتقبل الاخبار سلبيا ام ايجابيا ويسمى هذا الاستعداد بالموقف .

والموقف حسب رأي (س. ل. روبنشتاين) هو حلقة متكونة في نظام تفاعل الفرد مع العالم الخارجي ؛ تفاعل يبدأ بتأثير العالم الخارجي على الفرد، على الذات(٦) .

بينما ترى (د.ن. اوزنادزة) يشكل الموقف عاملا منظما ومقررا لنشاط الناس وسلوكهم .

وان فعل الموقف يشكل حالة سيكولوجية من الاستعداد للاستجابة لاحداث الواقع المحيط على نمط معين ، والاستعداد لنشاط معين(٧) .

---

(٤) انظر : المعرفة ، مصدر سابق ذكره . ص ٢١٨ .

(٥) انظر : علم النفس الاجتماعي وقضايا الاعلام والدعاية ، ترجمة نزار عيون السود ـ دمشق ١٩٨٤ ص ١٢٤ .

(٦) انظر : س ل . روبنشتاين (الوجود والوعي) موسكو ١٩٦٧ ، ص ٢٢٧ .

(٧) انظر : علم النفس الاجتماعي وقضايا الاعلام والدعاية ، ص ٢٩ .

كما تشير الباحثة السوفييتية (ن. ل. ايليافا) قائلة : (لابد من أجل نشوء الموقف من ان تطابق الحاجة الموجودة مع الوضع الذي يشمل ظروف تلبيتها)(٨) .

لكن ياترى ماالذي يحدد (الموقف الاستيعابي والادراكي) ؟ و (قابلية الجمهور واستعداده الانفعالي الموقفي واستجاباته التقويمية) ؟.

اذا نظرنا للانسان كفرد في المجتمع او ممثل لمجموعة معينة او لطبقة بكاملها واذا اخذنا بعين الاعتبار مايبديه الوسط المحيط عليه من مؤثرات مادية وروحية فان (موقف الاستجابة والتقبل) يرتبط بالدرجة الاولى بطبيعةالنظام الاجتماعي وظروفه وقواعده ، لكن اذا نظرنا للانسان كوجود بيولوجي فردي فقط ، فتفسر وظيفة الاهتمام والموقف التقبلي — الاستجابي والاستيعابي العاطفي بعلاقتها بخصائص الآلية السيكولوجية ، اي بالدوافع الشخصية الفردية للمصالح والحاجات التي يجب اخذها بالطبع بعين الاعتبار الى جانب التركيز على الدوافع والحوافز الاشتراطية بشكل خاص .

يقوم المنظرون البرجوازيون باستلاب سافر عندما يأخذون المعايير البيولوجية اساسا لقياس تأثير الدعاية البرجوازية الضارة والسامة اي سمات الانسان السيكولوجية الشخصية والمنعزلة عن الجماعة .

فقد اشار عالم النفسي السوفييتي يوري شيركوفين الى أن المنظرين البرجوازيين للدعاية قد اوجدوا اسسا منهجية ، تقوم بتسليح الدعاية الامبريالية الاستلابية لتحقيق اغراضها في سلب الجماهير داخل البلدان الراسمالية وخارجها ، ومنها :

١ — جميع الوسائل والاساليب الدعائية تعتبر جيدة ومقبولة وصحيحة اذا ما ادت الى التنفيذ الناجح للمهمة المطلوبة .

٢ — يجب على رجل الدعاية أن يعتمد في عمله قبل كل شيء آخر ، على الخرافات والآراء الباطلة ، وان يستغل بصورة مكثفة الانفعالات البشرية ، ويتوجه باديء ذي بدء الى عواطف الناس لا الى عقولهم كما ويعتبرون نجاح

(٨) انظر : « دراسات حول التفكير في علم النفس السوفييتي » موسكو ١٩٦٦ ، ص ٢٧٩ .

الدعاية حسب زعمهم يأتي من خلال تحسين وسائطها الفنية ، والفهم البعيد لآلياتها النفسية ايضا(٩) .

ويوجد في ابواق الحرب النفسية ك « صوت أميركا — اذاعة لندن — اوربا الحرة — مونتو كارلو » ، دوائر مهمتها تحليل المواصفات السيكولوجية للجماهير المختلفة من المستمعين والبحث عن الأسس النظرية للبث الاذاعي الموجه الى هذا البلد او ذاك .

ان تفتيش منظري الدعاية الامبريالية الاستلابية عن اساليب وطرائق تعتيم الوعي الاجتماعي وتحديث تقنية التأثير الدعائي التي يمكنها أن تثير الانفعالات القوية لدى الفرد وعزله عن واقعه ، يؤدي قبل كل شيء الى الانحطاط النفسي ، فان محاولة عزل الانسان عن طبيعته الاجتماعية ، وعن تفكيره الطبقي ، وعن اطار الوعي الاجتماعي بشكل عام ، هو الهدف الاساسي لمحاولات العلم البرجوازي لتنمية النوازع الفردية ، واثارة مشاعر الخوف والحسد والكراهية والغرور والعدوانية والاجرام .

وقد اعطى التقرير السياسي للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي تقييما واحدا لا ثاني له ، لذلك الضرر الهائل الذي تلحقه الدعاية والثقافة البرجوازية بالمجتمع البشري : « لابد من التفكير بالعواقب النفسية والاخلاقية البعيدة المدى لممارسات الامبريالية الحالية في ميدان الثقافة ، فان املاقها تحت ضغوط المتاجرة غير المقيدة وعبادة العنف والتبشير بالعنصرية والدعاية للغرائز الوضعية واخلاق عالم الاجرام و « حضيض » المجتمع ، كل هذا يجب أن ترفضه البشرية ، وسترفضه » .

فالدعاية الامبريالية الاستلابية ماهي الا حرب سيكولوجية عنيفة مموهة وغير معلنة وموجهة الى الفرد من اجل قتل ماهو انساني فيه ، وتحطيم فرديته وحرمانه من القدرة على العمل البصير والانتقادي . اذ تؤثر الدعاية ، قبل كل شيء آخر في الانفعالات وفي نطاق اللاوعي بهدف سحق امكانية التقويم الراشد للاحداث عند الانسان وتبنيه للحلول التي تتناقض موضوعيا مع مصالحه الجذرية . ويكرس المنظرون البرجوازيون أعمالهم للبحث عن طرائق واساليب

(٩) انظر : بحث بي. شيركوفين (علم النفس الاجتماعي والدعاية) في كتاب علم النفس الاجتماعي وقضايا الاعلام والدعاية ، ص ٣١ ــ ٣٢ .

الدعاية الاكثر فعالية بغية الحصول على التأثير المنتظم في نفسية الفرد واثـارة رد فعل معين لديه موجه نحو تشويش نظام القيم او حتى تحطيمه كليا وبالتالي التحكم في نفسية الانسان واستلابه روحيا(١٠) .

ويركز منظرو الدعاية البرجوازيون في دراستهم للآلية السيكولوجيةعلى استنباط أساليب واشكـال مؤثرة لخلق المواقـف الاستيعابية والادراكيـة والسيطرة على مراكز الوعي الفردي المرتبطة بصورةمباشرة بالاساس البيولوجي للانسان وبالمستوى الادنى لسيكولوجيته واثارة الانفعـالات الاكثـر بدائيـة والنوازع العاطفية الانفعالية وامزجة الذاتية العفوية لديه .

فاذا صورنا الوعي الفردي بشكل مبسـط فهو يتكون من دورين : سفلي (طابق اول) وعلوي (طابق ثاني) هذا اذا صح التعبير ، وبالطبع يفضـل المنظرون البرجوازيون وضع مخبرهم لصناعـة (المواقـف الاستيعابية ـ الادراكية) في الدور السفلي بالذات .

وقد نالت ، في البداية معادلة (حوافز ـ رد فعل) اهتمام الكثير مـن منظري الاعلام البرجوازيين لسهولتها المغرية ، لكن آلية صنع الاستجابـة الشرطية ـ المخبرية غير كفيلة لشرح العمليات الاكثر تعقيدا ، ولذلك لكـي تتواكب العمليات الاتصالية مـع ضرورات التطبيق الراسمالي اليومي اخذت النظرية الذرائعية واللاعقلانية لتفسير العمل الاعلامي .

وفي الواقع لقد وجدت النظرية الذرائعية لغة مشتركة مـع النظرية السلوكية ، حيث ربطت العمليات الاتصالية بعمليات توافـق (الارسـالات الاعلامية) مع مايسمى باهتمام الانسان بالاخبار . وتتحقق المصلحة النفعيـة بشكل اكبر في تطابق (الموقف الاستيعابي والتقلبي) للأخبار مـع الحاجات الشخصية . و (الموقف الاستيعابي الادراكي) هو ان صح القول وسيط بين الحاجات (دوافع النشـاط والفعل) ووسائل تلبية الحاجـات (موضـوع الاهتمامات والمصالح) .

وهكذا فالانسلاب مرتبط بحالة المغزو المنسلب ، بينما الاستلاب مرتبط بحالة الغازي المستلب .

(١٠) انظر : ادوارد باتالوف ((الحرب النفسية هي الحرب)) مجلة الطريق الـى الاشتراكيـة العدد /١٢/ كانون الاول ١٩٨٤ ، ص ٩٣ ـ ٩٦ .

تنظيم الاهتمام وجذب الانتباه :

الانتباه هو العملية النفسية التي تقوم باختيار عدد من المثيرات المتواردة على النفس والتركيز عليها والاستجابة اليها(١١) ويبحث منظرو الدعاية البرجوازية عن طرائق وأساليب استرعاء الانتباه ، وقد قدموا بعض القوانين والمبادىء في هذا المجال منها :

١ ـ التغيير :

ويقصد به تقديم الاخبار الجديدة وغير المتوقعة والطريفة والمثيرة مما يسترعي الانتباه .

٢ ـ الحجم :

اذا تساوت الاعتبارات فان الشيء الكبير يسترعي الانتباه اكثر من الشيء الصغير ، وهذا ماينطبق على العناوين الكبيرة والاعلانات التي تملأ صفحة الجريدة او المجلة بكاملها ويدخل تحت مفهوم الحجم تناسب الالوان في العناوين والصور الى جانب نوع الحرف وحجمه ، كل هذا يسترعي الانتباه .

٣ ـ السيطرة :

المثيرات الاشد تسيطر على المثيرات الاضعف ، ومثال ذلك الأصوات العالية في الاذاعات تسيطر وتؤثر اكثر في المستمع من الأصوات المنخفضة .

وحتى وتيرات الصوت ، والوقوف في منتصف الجملة والموسيقى تسترعي الانتباه وتشد المستمع .

٤ ـ التكرار :

ان مؤثرا ضعيفا يكرر مرات قد يكون ذا اثر لايقل عن مؤثر قوي يقدم مرة واحدة .

٥ ـ الحال العضوي :

ان المثير الذي يسيطر على انتباه الفرد اكثر من سواه هو المثير الأوثق صلة بحالته العضوية في تلك اللحظة التي يتم فيها بث الخبر .... الخ(١٢) .

(١١) د. فاخر عاقل « علم النفس » بيروت ١٩٨١ ، ص ٦٢١ .

(١٢) نفس المصدر ، ص ٦٢٢ ـ ٦٢٣ .

وقد درست النظرية السلوكية الانتباه واعتبرت سلوك الانسان دليلا على الانتباه (الاستجابة الظاهرية) وحسب رأي تولمان (Tolman) : « ليست الاستجابة بحد ذاتها وليس الوضع المثير بحد ذاته ما يكون التعريف السلوكي للانفعال ، لكن الاستجابة بوصفها انفعالا للوضع المثير » .

وان الانفعال سلوكيا هو « نزعة نحو نوع خاص من النتيجة السلوكية(١٣).

وهكذا وفقا للنظرية الذرائعية والسلوكية اذا كان الاهتمام موجودا يكون المخبر قد حقق مهمته .

اما اذا كان هذا الاهتمام غير ظاهر بشكل واف وجلي، فيمكن مساعدة المتلقي (السامع ، المشاهد ، القارىء) على تركيـز اهتمامـه وتنظيمـه واسترعاء انتباهـه .

ولقد طور المنظرون البرجوازيون هذه المقدمة ساعين بذلـك الى تصعيد دور « محفزي ومنظمي » الاهتمام الذين يخلقون عمليا المواقف الاستيعابية والادراكية والتقبلية الملائمة . اذ ان مهمة رجـال الاعـلام البرجوازيين تكمن في تنمية العناصر الفطرية النفسانية عند الانسان ، مستخدمين التوحيد والتقمص والايحاء والاسقاط والتبرير ، عن طريق وسائل الاعلام والدعاية بهدف خلق المشاعر والمواقف الانفعالية البعيدة عن المنطق السليم واثارة روح التعصب والغرور والحسد وكره الآخرين واستلاب الانسان وقلع جذوره من مجتمعه ليعيش حالة من الوهم والعزلة الاجتماعية والطبقية . وليس صدفة ان يشير انجلش للدعاية على انها تلك المناشط والاراء والوسائل التي تصمم عمدا من اجل التأثير في سلوك الانسان وفي آرائه وتوليته واستلابه روحيا وماديا(١٤)

ويمكن ان يكون محفز ومنبه « المواقف الادراكية والاستيعابية » الاخبار ذات الصبغة الزاهية او التي تحمل نزعة تأثيرية اصطناعية ، اي الاخبار المنشطة للانتباه والمكتوبة بعبارات تهز اوتار ومشاعر الناس وبكلمات ذات نغمات مثيرة . وبكلمة اخرى بناء الخبر على المبدأ البرجوازي القديم : اذا عض كلب انسانا فليس خبرا ، اما اذا عض انسان كلبا فهذا الخبر بعينه .

(١٣) انظر د. فاخر عاقل « مدارس علم النفس » بيروت ١٩٨٣ ص ١٢٨ ــ ١٢٩ .

(١٤) انظر : د. عبد الرحمن محمد عيسوي « دراسات في علم النفس الاجتماعي » بيروت ١٩٧٤ ص ٢٩ .

وقد قال مرة مالك الصحف الراسمالي الكبير اللورد نور تكليف : علينا اتقان تنظيم الخبر بحيث يجلب انتباه القارئ الى مصدره بطريقة ندخل فيها هذا الخبر او التعليق على الاحداث بصورة مباشرة الى اذهان الناس وتنمية الحياة اللاشعورية لديهم بعناصرها البدائية والغريزية وتابع اللوردالانجليزي نور تكليف : ان قوة الصحافة تكمن في مقدرتها على التجاهل ...(١٥) وتستخدم الدعاية الامبريالية الاستلابيــة مبادىء وطرقا مختلفة لتحقيق اغراضهـا في دول العالم وخاصة في البلدان النامية في خلق الإنسان المنسلب ماديا وروحيا. وتخضع أساليب الدعاية البرجوازية الى القوانين العامة التي تحكم عملية الادراك (Perception) والمعرفة (Cognition) والدافعية (Motivation) والايحاء (Suggestion) . وتعتمد هذه الدعاية على بث المواد الاخبارية ذات الطابع الغامض والهادفة الى خلق حالة من الغمـوض والشدة والارتبـاك والاضطراب والبلبلة ليتم الصيد في جو خصب من الماء العكر . وهذا الاسلوب يعرف بالدعاية غير المباشرة (Indirest propaganda) التي تعتمد على قانون الغموض والشدة والتضخيم والمبالغة والتكرار والكذب والافتراء والتشويه والتلاعب بالحقائق والتجاهل وربط الاحداث والحقائق غير القابلة للارتباط .

وتلجأ الدعاية الامبريالية ، كي تحقق اهدافها التخريبية والسكولوجية في البلدان النامية الى الاعتماد بصورة اساسية على خلق « المواقف الاستيعابية والتقبلية » التي يتم من خلالها الاستجابة ومركزة الانتبـاه ، مستخدمة بذلك احدث الطرائق والاساليب النفسية لصناعة الاخبار المثيرة .

ان أسلوب اختلاق الاحداث الكاذبة « تستعمله الدعاية التجارية الراسمالية اليوم بشكل واسع في نشاطها العملي . ويكمن هذا الاسلوب في نشر وبث الأخبار المتورمة والمضخمة عن نشاط وعمل الشركات والاحتفالات السنوية في حالات مدبرة ... الخ . ومـن الخصائص المميزة للأحـداث المختلقـة درامتيكيتها ، وسهولة انتشارها ، وبساطة استيعابها لسطحيتها وخاصة أن مثل هذه الاختلاقات والاكاذيب موجهة لطائفة واسعة من الناس ، هذا الى جانب أنها تكرر من اجل تعميق الايحاء والانطباع والابراز واتباع مبدأ : كلما كانت الكذبة اكبر ازدادت فرصة تصديقها .

(١٥) انظر : أ.ب بروخوروف « الصحافة الاشتراكية ــ ترجمة : د. اديب خضور . بيروت ١٩٧٨ ص ١٠١ .

وتبدو الدعاية البرجوازية ، من الناحية الشكلية ، وكأنها « اخبارية » وتهدف الى تلبية حاجة الانسان الى المعارف والاخبار « الحقيقية » والجيدة (hard news) ، ولكن في الواقع ان انتقاء الوقائع والاحداث الكاذبة وفرضها بالقوة بواسطة الاقنية الاعلامية ، يؤدي كما لاحظ ايلول الى « ابعاد الانسان عن الفكرة الاساسية ، وعدم اتاحة المجال له لأن يتأمل ويفكر او يتفهم »(١٦)

ويبقى الانسان ، الخاضع لسيل الانباء ، في نهاية الامر ، على هوامش الاحداث ومستسلما لهذا السيل ، من دون ارادته ، بحيث يحرم من امكانية التفكير ومعرفة الاحداث الحقيقية من الاحداث المزيفة والمختلقة (فتشتبك الامور لديه) .

والدعاية الامبريالية الاستلابية تقوم على اساس عفن من الكذب . وان هذا الكذب ، وحتى لو كان اكثر حذاقة ودهاء ، سوف يطفو على السطح عاجلا ام آجلا ، وتنفضح صناعة الكذب ويخفق الاتحاد الاعلامي القائم عليه (١٧) .

ان تمركز الصحف البرجوازية في ايد قليلة من الرأسماليين وتزاحمهم ، ولد الحاجة لديهم لتفضيل ليس الاخبار التي « تباع بسرعة للجريدة » فحسب بل والتي ارست على اساس المشاكل والظروف والاوقات العصيبة والمؤثرة على غريزة حب البقاء والحفاظ على الحياة .

والدليل الساطع على مثل هذه الاخبار هي التي تكلمت عن مذنب هالي الذي « ينذر البشرية بالخطر القاتل » . فالدعاية الامبريالية صورت قدوم المذنب وكأنه يسبب الكوارث (ايام بدون شمس ، تراكم الثلوج مع البرد القارص ، نقص المواد التموينية) .

فالاخبار عن مذنب هالي لها دلالتها ، حيث صنعت في المطبخ الاعلامي الامبريالي لاظهار خطر الكوارث الطبيعية والتعتيم على الخطر الحقيقي للأسلحة النووية التي تهدد البشرية بالفناء اولا ، ولإلهاء الناس عن جرائم الامبريالية وتدخلها في شؤون الشعوب الداخلية ونهبهالثروات بلدان العالم ثانيا، ولتصريف

---

(١٦) — ELLUI' J'Propaganda. THE formation of Men's attitudes, NEW YORK, 1965, P. 46.

(١٧) انظر : غ. اوغانوف « صناعة الكذب الامبريالية » . مجلة الطريق الى الاشتراكية ــ العدد : ٨ آب ١٩٨٥ ، ص ٩٥ .

بضائعها ومنتوجاتها الكاسدة ثالثا ، ولتحقيق ربح من وراء نشر هذه الاخبار لرواجها وتقبلها رابعا .

وتستخدم الدعاية الامبريالية في أساس انتقاء اخبارها عن بلدان العالم ، وخاصة النامية منها ، المبدأ القائل : « الخبر الجيد ليس خبرا » (Good news is no news) . اذ تربي هذه الدعاية الجماهير في الولايات المتحدة ، وبريطانيا وبلدان اوروبا الغربية منذ عشرات السنين بروح اللامبالاة وعدم الاهتمام بالحياة الخارجية ، فأصبح الخبر الآتي من الخارج يعد « بضاعة كاسدة وغير رائجة » فلم يعد يرضي تجار الصحافة الغربية من الأخبار الاجنبية الا التي تتكلم عن (« الحروب » والانقلابات ، والمؤامرات ، والفضائح السياسية ، و « جرائم القرن ») ؟ والتي تخلق الصور والانماط المقبولة السلبية عن حياة شعوب العالم(١٨) .

ويشير الباحث الامريكي (Cohen B.) في كتابه الصحافة والسياسة الخارجية الى أن اصحاب الصحف ومراسليهم في الخارج ينتقون اخبارهم عن بلدان العالم على أساس (الأزمات والنزاعات ، والكوارث ، واعمال الشغب) آخذين بعين الاعتبار كون هذه الاخبار تخدمهم كبضاعة تسوق في الجريدة من ناحية ، وتغيب اهتمام القراء تجاه الأخبار الاجنبية من ناحية اخرى ؛ وخاصة انها تعرض باسلوب سطحي وساذج ومتقهقر الى ابعد الحدود . فطريق ثانية لهم لا توجد ، لأن من يتبع ، الى حد ما ، الطرائق الموضوعية في نقل وعرض الأخبار هو الذي يكون خاسرا في الصراع التزاحمي بين تجار وبائعي الصحف(١٩) .

وبقدر ما ينجح « صانعو الرأي » البرجوازيون في خلق الحلقة المفرغة من القراء الجاهلين يصبحون انفسهم سبايا لهذه الحلقة المفرغة بالذات . فمع أنهم سبايا يملكون اكياسا من النقود عن طريق احتكار الأخبار والتحكم بالوعي اللذين يحققان لهم مطامعهم الطبقية (والربحية) معا .

(١٨) انظر : د. عدنان ابو فخر « الاعلام الامبريالي : اساليب عمله في البلدان النامية » . المعرفة العدد : ٢٨٧ كانون ثاني ١٩٨٦ . وله ايضا « نيويورك تايمز » : العرب في المرآة المقعرة : اهداف قديمة واساليب جديدة » . المعرفة ـ العدد ١٩٨٦ .

(١٩) انظر : Cohen B: The press and foreign policy, princeton; 1963, P. 68.

لكننا اذا تكلمنا باختصار شديد عن مستوى الاخبار في الغرب عن بلدان العالم (وخاصة النامية منها) فنلاحظ أن بلدنا بكاملها ومناطق جغرافيــة واسعة وهامة يحولها صانعو ومهندسو الدعاية الامبريالية برمتها الى « فراغ اعلامي » وخاصة أن أكثرية البلدان النامية لا تملك امكانية التكلم للعالم عن حياتها ومنجزاتها الحقيقية وقضاياها الوطنية في ظل السيطرة الاعلامية والجوع الاعلامي . بينما وسائل الاعلام الامبريالية تتجاهل التطورات الايجابية في البلدان النامية ، ونادرا ما تتعرض لها(٢٠) .

فمثلا في الولايات المتحدة لا يتم تضليل الرأي العام واخفاء طابع الانظمة الداخلية فحسب بل ويتم التعتيم على انماط الحياة في البلدان الخارجية ، وبالدرجة الاولى في البلدان النامية والدول الاشتراكية ، وإن أشـير لهـا ، فتكون هذه الاشارة مليئة بالصور المشوهة للحقائق مع التفسيرات والتأويلات المزيفة والمصطنعة والخاضعة للتنميط المقولب المناسب لمصالح الامبريالية السياسية والاقتصادية .

وتتدخل وسائل الاعلام الامبريالية في شؤون البلدان النامية الداخلية ، وتغزو عقول مواطنيها تحت ذريعة « حرية التدفق الاعلامي » وشـعار « لا للحواجز » لكن عن أية حرية يا ترى يتكلمون ؟ بالطبع يتكلمون عـن حرية المتاجرة والربح مهما كانت الاساليب والنتائج .

فوسائل الاعلام في الغرب تخضع لسيطرة واحتكار القلة ، ومن هنا نفهم حرية الاعلام بحرية تلك القلة في ترويج المعلومات بالكيفية التي تختارها والاتكار الفعلي لحق البقية في الاعلام والاطلاع بصورة موضوعية ودقيقة(٢١) .

---

(٢٠) انظر : د. عدنان ابو فخر « كيف نستطيع ان نواجه الغزو الاعلامي ؟ » . الثورة ١٩٨٦/٤/١١ . وله ايضا « الافعى السامة والحردون (الامبريالية الاعلامية والبلدان النامية) » . عدد تشرين تاريخ ١٩٨٦/٥/٣ .

(٢١) انظر : اديب غنم (معاون وزير الاعلام) « تدفق الاخبار على المستوى الدولي والنظام الاعلامي الجديد » ـ محاضرة ـ ملقاة في دورة الخبر في الاعلام العربي والتي اقامتها المنظمة العربية للتربية والثقافة في قاعة المحاضرات في وكالة انباء ـ سانا ـ خلال الفترة ١٥ ـ ٢٠ كانون الثاني عام ١٩٨٣ .

وهكذا ما هي الاثارة ؟

الاثارة هي شكل اكثر حدة (لتنظيم الاهتمام وجذب الانتباه) بواسطة الاخبار المثيرة والمبنية على اساس المضاربة والتضخيم والمبالغة والتورم ، لهذا لا يقتصر التأثير الاستلابي على وسائل الاعلام الغربية فقط ، وانما يرتبط بالحملات السياسية التي تقوم بها الاحزاب البرجوازية ايضا .

وتقسم الدعاية الانتخابية الى ثلاث مراحل :

المرحلة الاولى : (اثارة الاهتمام ومضاعفته) .

المرحلة الثانية : (معالجة المسائل المتنازع عليها او التحكم بها) .

المرحلة الثالثة : (الدفع للفعل) .

وتستخدم الدعاية الامبريالية والاحزاب البرجوازية في هذه المراحل سبعا وسبعين طريقة ومن اهمها :

١ ــ اشباع الحاجات النفسية والاجتماعية عند الافراد ، واذا لم توجد هذه الحاجات فينبغي العمل على خلقها .

٢ ــ تجهيل الجماهير لان المواقف الغامضة وغير المحددة تعد مجالا خصبا للدعايــة .

٣ ــ التمشي مع الاتجاهات الرائجة .

٤ ــ تعديل اتجاهات الناس ازاء موضوع الدعاية والتركيز على ذلك اكثر من مواجهة الموضوع نفسه .

٥ ــ استعمال الوسائل والاساليب التي تجذب ادراك الناس وانتباههم .

٦ ــ يقوم بالدعاية الانتخابية شخصيات محبوبة ولها شعبية كبيرة .

٧ ــ استغلال العمليات النفسية التي تدخل في عملية الدعاية مثل التوحد او التقمص والايحاء والاسقاط والتبرير .

٨ ــ عرض الاهداف بصراحة وبصورة مباشرة .

٩ ــ الشــعارات .

١٠ ــ الاشــاعات .

١١ ــ الدس وتدبير المكائد والمقالب .

١٢ ـ الكذب والاحتيال .

١٣ ـ ابعاد وحذف المسائل غير المرغوب بها واستثناؤها .

١٤ ـ الافتراء .

١٥ ـ استخدام الاساليب الخفية والمستترة وغير المباشرة .

١٦ ـ صرف الانتباه وتحويله .

وغيرها من الاساليب والطرائق الاخرى ، لكننا سنتوقف قليلاً عند اسلوب (صرف الانتباه او تحويل بؤرة الاهتمام) باعتباره يشكل في الدعاية البرجوازية الوجه الآخر لعملة (خلق الاهتمام) ، ويعرف هذا الاسلوب في الدعايةالبرجوازية باللغة الدارجة (الصيد في الماء العكر) وهذا يعني صرف الانتباه والاهتمام عن القضايا التي لا تخدم الداعية وتحويل بؤرته الى الاحداث (الكاذبة والمختلقة).

وطريقة الصيد في الماء العكر تشبه طريقة تشويش وتضليل كلب الصيد عن اقتفاء الاثر . وتحويل بؤرة الاهتمام حسب راي (ف . ارتيموف) : « يرتبط بمحاولة الدعاية لإلهاء الجمهور عن المسائل الاجتماعية والسياسية الهامة فعلا، بمشاكل وامور ثانوية ملفقة واضفاء شكل خارجي من الاهمية والقيمة على المصالح غير الجوهرية »(٢٢) .

وتستخدم الدعاية الامبريالية هذا الاسلوب في الحملات الانتخابية في الدول الرأسمالية كما تستخدمه بصورة ساطعة في افغانستان ونيكاراغوا ومنطقة الشرق الاوسط وفي بلدان ومناطق اخرى من العالم حيث تشيع الخرافات والاساطير والقصص المختلقة التي تبرر وتدعم أفعال حكوماتها العدوانية في دول العالم .

● استراتيجية التنميط القولبي :

ان الدعاية الامبريالية تقوم على نشر الافكار ووجهات النظر والمواقفالمرغوب في أن يتبناها الاخرون عن طريق التنميط المقولب مستندة بذلك الى احدث فنون الايحاء الذاتي المبنية على اكتشافات علم النفس الفردي والاجتماعي .

(٢٢) علم النفس الاجتماعي وقضايا الاعلام والدعاية ، ص ١٢٩ .

والتنميط المقولب المزيف يعتمد على تبسيط الامور واخفاء عيوب واخطاء المجتمع البرجوازي مما يقتل عند الانسان المستهدف أي قدرة على النقد وعلى الحكم الموضوعي المتعقل وعلى التفكير المستقل « ان المنهج الرئيسي للدعاية البرجوازية هو التأثير النفسي عن طريق خلق انماط مقولبة وهمية »(٢٣) . اذا تهدف الدعاية البرجوازية الى تنشيط (مواقف الادراك والتقبل لدى الانسان عن طريق الانماط المقولبة ، فالتنميط هو عبارة عن المفاهيم والتقويمات والمقولات والتصورات والنظرات المعممة عن الظواهر والواقع . والانماط المقولبة حسب الدعاية الامبريالية تؤدي تأثيرها في الناس اذا كانت لا تحوز على تنوع وتعداد كبير في الجوانب ولا تتسم بالتعقيد وانما سهلة وبسيطة وبعيدة عن التفاصيل ، فالانماط المقولبة المزيفة تساعد على خلق التصورات الكاذبة والمشوهة للواقع وصرف الانسان عن الحقيقة ودفعه لاستنتاجات غير صحيحة وغير منطقية .

ويرى منظرو الدعاية البرجوازية في التنميط المقولب للتفكير وسيلة شاملة لاخضاع الجماهير في البلدان الرأسمالية للاحتكارات الرأسمالية والمصالح الامبريالية الاقتصادية والسياسية . حسب نظرية التنميط القولبي البرجوازية والرجعية والتي وضعها السوسيولوجي والصحفي الاميركي (و. ليبمان) ان الانماط المقولبة المعبرة عن رغبات القائمين على الدعاية تقدم للناس من خلال الاخبار وكأنها صور حقيقية للواقع المحيط بذاته .

والانماط المقولبة يمكن أن تكون مزيفة وبعيدة عن الحياة ومناقضة للحقيقة ويمكن أن تكون صادقة ومطابقة لمصالح الناس وحاجاتهم ، وتهدف الى تطوير وعي الجماهير ومساعدتها .

فالدعاية تبعاً لاهدافها ، تستخدم إما الانماط الصادقة وإما الانماط المقولبة الزائفة حيث تخضع البداية التقويمية ــ العاطفية البداية العقلانية الادراكية، ووضع أساليب تعتيم وعي الناس بهذه الانماط المقولبة السطحية ، يعتبر منهجا من مناهج الدعاية البرجوازية(٢٤) .

---

(٢٣) استراتيجية الكذب ، موسكو ١٩٦٧ ، ص ١٥ .

(٢٤) علم النفس الاجتماعي وقضايا الاعلام والدعاية ص ١١٥ ، وانظر : ج جولوفانوفا (فبركة الاكاذيب والاوهام) موسكو ١٩٧٢ ، ص ٩٧ .

والانماط المقولبة من الصعب أن تدحض من قبل الناس البسطاء ،وخاصة ان هذه الانماط خاصة واقعية من خصائص السيكولوجية البشرية ، زد على أن الانماط المقولبةالمزيفة دائما سهلة التكوين، فهي لا تقدم المعارف الدقيقة، بل تقدم التصورات السطحية العمومية وخاصة انها موجهة للمستوى الادنى للسيكولوجية الانسانية من اجل خلق الاستجابة الانفعالية لدى الناس ، وفي مثل هذه الحالة يكون الانسان خاضعا لسلطة العاطفة والمزاج الذاتي العفوي مما تنعدم المعارف والقدرات التقويمية لديه .

فالدعاية الامبريالية الاستلابية تنقل جوهر الحدث للجميع كلمة واحدة أو صورة واحدة وهذه الكلمات والصور هي انماط مقولبة مأثورة ومكررة ، ومصاغة بحذاقة ودقة كبيرتين من أجل غرسها وتثبيتها في اذهان الناس .

● خلق الصور وتصميمها :

ان خلق وصناعة الصور وتصميمها (image moking) هي المرحلة الثانية للبرنامج السيكولوجي في الدعاية البرجوازية ، فاذا كان التنميط القولبي هو تعميم خصائص الظاهرة بشكل عام ، فالصورة تعتمد على اظهار الخصائص الفريدة للظاهرة عينها .

والصورة هي مجموعة تقويمات وتصورات عن الخصائص الفريدة لهذه المادة أو تلك أو لهذه البضاعة أو تلك التي يريد منتجها غرسها وادخالها في الوعي الاجتماعي .

ان جذر واساس نظرية«الصور»يعود الى الاعلان العملي«للبزنس»الراسمالي الذي يقوم على الدعاية لاحد المنتجات بهدف دفع المواطن لشراء ذلك المنتج .

ويعتبر الاعلان وسيلة اعلام ، وان كان وسيلة اعلام نسبية جدا لانه لا يبرز سوى مزايا المنتجات الخاصة ، وهكذا تبرز الصور المقولبة السمات والخصائص الخاصة والفريدة في الظاهرة أو الشخصية .

ويرى منظرو الاعلان البرجوازيون ان الانماط المقولبة تشكل القاعدة للعاملين في مجال الاعلان والعلاقات العامة المرتبطة به (Public Relations) ويجب على هؤلاء العاملين استخدام الانماط المقولبة الموجودة لديهم أو استبدالها بانماط وصور جديدة اذا اقتضت الظروف ذلك ، ولنفترض ان الدعاية تبرهن على ان السيارة المنتجة في شركة (General Motors) افضل منتوجات فورد ، لكن

اذا اقترن النمط المقولب القديم لسيارات فورد « بالسيارات بشكل عــام » يجب استبدال النمط القديم بنمط مقولب جديد يأخذ بعين الاعتبـــار الخواص الجديدة للسيارات العصرية . وبكلمة اخرى اذا كانت الانماط والصور المقولبة في الدعاية الامبريالية تثير من حيث شكلها الخارجي اقترانات وتداعيات سلبية لدى الجمهور فتلجأ هذه الدعاية الى استبدال هذه الانماط والصور المقولبــة بأخرى مما يخدم التضليل الفكري والايديولوجي بأكثر فعالية .

وهذا الامر دعا الباحث الغربي د. بورستين الى القول : « في البداية يجب أن تكون الصورة مثالا حيا للشركة . من ثم تصبح الشركة فيما بعد مثالا للصورة بالذات »(٢٥) .

تهدف الصورة المختلفة الى تزييف الواقع ، فعالم الصور مثله مثل عــالم الانماط المقولبة مدعو ، حسب الدعاية الامبريالية ، الى خلق عالم من الاوهام .

وتستخدم الدعاية الامبريالية الصور في مجال السياسة ايضا ، وخاصة خلال الانتخابات فهي قادرة على خلق الصورة المناسبة للمرشح وما يميزه عن غيره من منافسيه مع اضفاء سمات مزيفة له وكأنه شخصية جبارة وعملاقة ولها (تاريخ عظيم وتجربة غنية وكبيرة) ولها صلات متينة بالجماهير ، و (يعلق عليها آمال كبيرة بالنسبة لتطــور البلد وبناء سياسته وهــذا ما حــدث في الانتخابات المتعاقبة في الولايات المتحدة . كما تخلق الدعاية الامبريالية الانماط والصور المقولبة المزيفة للبلدان النامية ولشخصياتها الوطنية ، وتفسر لمواطني هذه البلدان المواضيع تفسيرا مزيفا وكاذبا .

فكانت ومازال الدعاية الامبريالية تعمل على استلاب الجماهير والتحكم بوعيها عن طريق خلق الانماط والصور المقولبة الوهمية .

ويجب على البلدان النامية أن تسلح جماهيرها بالوعي العلمي ، وتعتمــد عليها وتدحض الانماط والصور المقولبة التي تبثها الدعاية الامبريالية عن طريق تطوير الصحافة الوطنية وتحديث أساليب وطرائق الدعاية المضادة .

---

(٢٥) انظر : ن.ج زيابلوك (صناعة الاخبار) موسكو ١٩٧١ ، ص ١/٧١ ←

أهـم مصادر البحث

١ ـ بيكلوف . س : الدعاية السياسية الخارجية ، موسكو ١٩٨٠ ، (الفصل السابع) .

٢ ـ علم النفس الاجتماعي وقضايا الاعلام والدعاية ، ترجمة عيون السود (نزار) دمشق ١٩٨٤ (مقالة ارتيموف) .

٣ ـ فاليوجيتش . ا : الدعاية السياسية الخارجية للولايات المتحدة ، موسكو ١٩٧٣ .

٤ ـ فيوفانوف . ا : الانماط والصور المقولبة في الدعاية البرجوازية ـ مسائل الفلسفة العدد / ٦ / ، موسكو ١٩٨٠ .

٥ ـ كوندراتنكو . غ : حول خصائص التنميط المقولب ، دليل جامعة موسكو ، الصحافة ١٩٦٨ ، العدد : / ١ / .

★ ★ ★

أرنست دوليف

شاعر الحب والانسانية

كمال فوزي الشرابي

عاش ارنست دوليف ERNEST DELEVE مُعظم حياته منطوياً على نفسه . قال في إحدى قصائده : « لقد اخترتُ العزلة » وعرفتُ « سكرةَ الصحراء » . ونجدُ في أكثر من قصيدةٍ لديه ما يشبهُ الإقامةَ في اعماقِ كهفٍ متهدّم .

كتب كثيراً ولما يتجاوز الثامنةَ عشْرةَ من عمره ، ومزّقَ مُعظمَ ما كتبه . واحبَّ بضعَ نساءٍ ، وتغنى بجمالِ وجوههن وسحرِ قدودهِنّ ، فاضان حياته او ارخينَ عليها سُدولَ الظلام . وكان كتوماً بحيثُ انه لم يذكُرْ أسماءَهن الكاملةَ على الاطــلاق وإن اوردَ بعض اسمائهن الأولى او الحرفَ الأوّلَ منها في عددٍ من قصائده .

تلقى العلم في معهد علماني ، واستقبله زملاؤه على انه ابن عامل فقير لبعض رقع في ثيابه . ومنذ الايام الاولى تألق بذكائه واقباله على الدرس . وكان يجلس في آخر مقعد في الصف اذ كان يكره الظهور ، وشكليات الحياة الاجتماعية ، والاحتفالات ، والشخصيات الرسمية .

ربعة بين الرجال ، نحيل الى اعتدال في الامتلاء ، عينان زرقاوان ، شعر اشقر ، ابتسامات نادرة . وكان يدهش معلميه في شرح النصوص والتعليق عليها ، وهي الطريقة ذاتها التي كتبها في مطالعاته اللاحقة . وكان ماهرا في اللغة اللاتينية ، على انه ما لبث ان تخلى عنها الى الاغريقية ليقرأ فيها كلا من بندار(١) ، واسخيلوس(٢) ، والشاعرة سافو(٣) . كما اتقن الانكليزية بطريقة مكنته من قراءة شكسبير ووليم بليك وسواهما .

كان قارئا كبيرا ، يطالع في بيته او وهو متجه في الطريق الخالية الى الجلوس في الحديقة العامة حيث يتابع القراءة . وكانت الكتب في تلك الحقبة رخيصة الثمن يستطيع حتى الفقراء شراءها . وهكذا كان ارنست دوليف على فقره يشتري كتابين او ثلاثة في الاسبوع ، ويوقف اياما طويلة على قراءة الكتاب الواحد . بدأ بـ (تأملات لامارتين ثم اعمال فيكتور هوغو ثم بودلير ثم نيرفال، ثم لوكونت دوليل ، وكان يردد من هذا الاخير احد ابياته ((**ايتها العصور البشعة الفارقة في الامتثالية والجذام والمجاعة**)) ، معبرا بذلك عن بعض مشاعره الخاصة . ثم اكتشف قصيدة (فصل في الجحيم) لرامبو وأعجب بها ، وتوالت قراءته لكل من مالارميه وبروست ولوريامون وسان جون بيرس في بواكير اعماله (مدائح واناباز) . وكان يتبع في قراءاته منهجا وحيدا هو الاتصال الحميمي اليومي باعمال المؤلف وعالمه . وبهذا المنهج ذاته قرأ الفلاسفة ، واكتشف الفنانين التشكيليين كجيروم بوش ، وغوستاف مورو(٤) ، وبيكاسو ، وبول ديلفو(٥) وسواهم .

كان عصاميا في مطالعاته بالاضافة الى الشهادات الجامعية العالية التي حصل عليها . ومما لاشك فيه انه كان لهذه المطالعات تأثير في اعماله . ففي قصيدته الاولى (الملاك الاشقر) مثلا ، نجد شيات اغنية شعبية أو مفردات تذكرنا بالواقع البدائي لعبادة النار .

★ ★ ★

ولد ارنست دوليف في العام ١٩٠٧ في (إيكسيل) وهي ضاحية من ضواحي بروكسل . وكان والده نجاراً يحترف الحفر على خشب الأبنوس . وكان ارنست يحب ابويه ويكن لهما الإعجاب والاحترام . وحين مرض الاب احتاج الى بيع منزله واستئجار منزل أكثر تواضعاً يطل على قناة مائية ، ويحضنه الهواء والسماء والضياء . في ذلك المنزل البسيط الجميل كان ارنست ، في اثناء دراسته ، يمارس كتابة الشعر . وكانت التموجات الضوئية المتحركة في مياه القناة تنعكس على سقف غرفته . وقد اشار في اشعاره اكثر من مرة الى هذا المنزل الذي كانت تطيب له فيه الإستراحة . يقول في مجموعته (النهار الجميل) :

اسكنُ انعكاساتِ قناةٍ عتيقةٍ ترتجف .
نوافذُ بلا ستائر مصنوعة من ارتعاشاتِ المياه ،
نبضاتُ جدرانٍ مغطاةٍ باسمالٍ كبيرة
من القماشِ المخرمِ الرقيقِ الذي تخرقهُ الطيور ،
سنونواتُ الصيفِ اللواتي سيصبحن نوارس ...

حين كان في الصف الحادي عشر ، كان أحد الاساتذة فظا قاسياً في عقوباته، الامر الذي دفع بارنست دوليف وبعض زملائه الى التمرد ، متأثرين بقراءاتهم لرامبو وكارل ماركس ، اضف الى ذلك كرههم للرأسمالية والبورجوازية والسلطات والافكار المسبقة والعادات البالية . وتسبب هذا التمرد في طردهم من المعهد لمدة من الزمن . ثم انتسب دوليف الى جامعة بروكسل حيث تخرج مجازاً في الحقوق . وتعرف في اثناء ذلك الى شاعر بلجيكي كبير آخر هو آشيل شافيييه(٦) ، كما تعرف في المحاضرات الى طالبة شقراء سرعان مافجرت شاعريته فكتب (الملاك الاشقر) التي أشرنا اليها سابقاً . وكان اسم الطالبة نيلي ، وقد عادت مؤخراً من إفريقيا . ولكن هذا الحب لم يدم لأن نيلي تركت الجامعة في العام التالي . يقول في قصيدته إليها :

ايها الشعرُ ، ايتها الشقرةُ ، يا ذهباً تضيئهُ الجواهر
(...) ورحلتِ ! القى القمرُ على كتفيكِ معطفاً من الظلالِ
فلم اعد اراكِ / رحلتِ / طريقتك في هجري هي مغادرةُ
الحلم ، وهيَ ايضاً الفردوسُ المفقود / أبحثُ عنك بحثيَ عن
الحبِّ الأبديِّ ، يا نيل ...

وقرأ شاعرنا كتاب أندره بروتون وعنوانه (الدفاع المشروع) ، كما قرأ مجلة (الثورة السريالية) التي كان يصدرها السرياليون بباريس . على غلاف العدد الثامن منها ملصقة تجمع بضعة اشخاص ، واشياء في داخل دماغ بشري، وتعليقاً لإنغلز : « **ما ينقص هؤلاء السادة هو الجدلية** » . وكانت الجدلية بالنسبة الى دوليف حركة نواس بين قطبين ، وتعبيراً يمثل حياة الفكر والحواس . اما القطبان فهما الوجود والموت ، النور والظلمات ، الفرح والياس ، الاندهاش والتمرد . وكان يقول : « **ومن الطبيعي ان يكون الشعر ايضا جدلية ممتازة** » .

في عام ١٩٣١ حصل على الدكتوراه في الحقوق من جامعة بروكسل ، وبدأ يمارس المحاماة ، وتخصص في الدفاع عن قضايا الارامل واليتامى بلا مقابل احياناً . ولكن حنينه الى الشعر لم يلبث ان عاد إليه ، فتخلى عن المحاماة ، واستطاع ان يحصل على وظيفة مستشار قانوني وامين سر لاحدى الشركات الصناعية . وحين اشتعلت الحرب الاهلية الاسبانية اسهم في تنظيم الدعايات وجمع التبرعات لدعم الجمهوريين . واصيب بصدمة عنيفة لدى سقوط مدريد في ايدي الكتائب الفرنكوية ، ولكنه ظل كاراغون يدعو الى تحرير هذه البلاد المنكوبة والى احترام كرامة الانسان تحت شعار « فكروا في اسبانيا على الدوام ! » . وقد عبر عن حزنه العميق على مصرع لوركا بقصيدته الشهيرة (الى لوركا) من مجموعته الاولى (النهار الجميل) :

فدريكو غارثيا لوركا / جسدكَ هو الصندوقُ الذي تخبىء فيه اسبانيا / ذخائر موتاها وشهدائها / إنها تحضنك بقرنفلات املها ./ اسبانيا جوعى وجوعها يتخذ شكل غيابك / إنها امةٌ ، وحريتها تسهرُ على تراب قبركَ الخفي . /

من قتلوك يطوفون وينظرون بحذر / الى شعركَ وهو يزْهرُ الشرفاتِ في الليل / كما لو انك ستعود ... / وتنوبُ اشعارُك منابَ الصلوات .

إن ذكرى شعبٍ باكمله / هي اجملُ نصبٍ للنضال / ضدَّ الجوع وضدَّ الحرب / وباسلوبٍ يتناهى في النقاء / يشيدُ البؤسُ حولكَ في العالمِ الجديد / صرحاً للسعادة / اما اقمارُكَ الفضية / فهي اوسمةٌ في اعناقِ المهددينَ الذين سيثارون لك .

واندلعت نيران الحرب العالمية الثانية ، واحتلت القوات النازية بلجيكا . وبدا التعتيم بطلي زجاج النوافذ والمصابيح باللون الازرق . ولم يترك دوليف منزله على القناة . على الضفة المقابلة ، غالباً ما كان شباك في احد البيوت يظل مضاء ، غير مبال بتشديد النظام الألماني على التعتيم . وتمر الدورية ، وتطلق النار على الشباك فتحطم الزجاج والمصباح المضاء . ولكن الزجاج كان يصلح ، ويعاود المصباح تالقه في اليوم التالي . وكان بالإمكان رؤية امراة تنضو ثيابها على ضوئه في وقت متأخر من الليل . يقول دوليف في مجموعته (النهار الجميل) مشيراً الى هذه الحادثة :

لم انسَ المـراةَ الصابرةَ مُشعلةَ الحرائق ،
تلك التي كانت فجاة تتعرّى في المســاء ،
شـباكها المضـاءُ مـرآةٌ ملتهبـة
حيثُ تتجملُ النــارُ التي ستُحرقُ المدينة .

مصباح عنيدٌ في الليل هو رمز الامل او الثورة التي ستحرق المدينة ذات آت قريب . وانتهى الامر بالشاعر الى التعرف على «**الصابرة مشعلة الحرائق**» التي اصبحت صديقته . وسيضيء المصباح على ضفة القناة في اكثر من قصيدة .

كانت قصائد دوليف تتمتع بالصدمات الصورية كما يوجد في علم النفس ما يسمى بالصدمات الانفعالية . كانت تصـدم او تبهر بمفاجآتها . وكان لديـه كومة كبيرة من القصائد الجديدة التي لم تنشر . وفوجىء ذات يوم بتفتيش بيته من الجنود الالمان ومصادرة بعضها ، تماما كما فعل جنود المان آخرون بمخطوطة اندره مالرو (اشجار جوز الالتبزغ) (٧) وب (دفاتر) پول ايلوار . وقام الامريكيون بغارة جوية على المدينة فاشعلوا الحرائق فيها وفي بيت دوليف. وحين اتى رجال المطافىء لاخماد النار اتلفوا بدورهم ما تبقى من مخطوطات ، ولكن الشاعر لم يحزن كثيراً لهذا الضياع بل بقي صامداً . وكان في بعض الليالي يتسلل من بيته ليعلق على عمد المصابيح بطاقات تحوي شعارات تدعـو الى المقاومة والتشبث بالأمل ، فالتحرير آت لا بد منه وسيعقبه السلام .

تتالف مجموعة دوليف الاولى (النهار الجميل) من ثلاثة اقسام : برجنا ، هيرونيموس ، الزبد والكدر . وهذا القسم الثالث هو الاول من حيث تاريخ النظم ، وفيه مقطوعات اوحتها الحرب ومآسيها :

لماذا تخرّبُ مستودعات الغلال ، وتقفر الابنيةُ في كلّ مكان ؟
كما لو ان احدهم يمحو العمل الانساني على مقـدار رغبتـه في الوجـــود .
وما يكاد الانســانُ يربحُ ملكوته على البحرِ حتى يعودَ الى الكدر (الكدر بمعنى الثفل والحثالة) .

ويصف في قصيدته (التمثال المتبقي) تمثال امرأة ظلّ وحده منتصباً بين الانقاض :

تفضلُ الأشجارُ ان تموتَ على ان تبقى في هذه الامكنة ،
وتفرُ العصافيرُ من غمائمِ الدخانِ مسرعة (...)
(...) قد تكونُ المـرأةُ قادرةً بجمالها وعافيتها على مقاومـةِ الجحيـم (...)

لا ، لا مجال لليأس لان ضوء الثقة بالخير لا بد من ان ينبثق من ظلمات الشـر :

ربّ شجرةٍ واحدةٍ تستطيعُ ان تنقي ما يكفي من الهواء
لتصحَّ جميـعُ الرئات وتغني جميعُ العصـــافير .
ولربّ كارثةٍ تدمرُ كلّ شيءٍ تتيحُ نهوضَ مدينةٍ جديدة .
ولرب طفلٍ يكون اقوى منا ، وشعب به يكبر خلاصنا جميعاً (...)

لكان دوليف يتحدث هنا عن انتفاضة اهلنا في الارض المحتلة ، وعن اطفال الحجارة الصامدين البواسل ، وعن الشهداء الذين يتهاوون كل يوم ليضيئوا بدمائهم الطاهرة المقدسة مشاعل الخلاص .

إنه الامل الذي ينبع من اعمق اعماق الهوة السوداء ، والذي يسـاعد الإغراق في الشدة على إحيائه :

اليأس عزلة شافية/نوم طوعي للاحلام الموجهة / يغمض المرء
عينيه ريثما يرى بمزيد من الوضوح / ثم يفتحهما فاذا بالعالم قد تغير

نصل الى القسم الثاني من ديوانه (النهار الجميل) وعنوانه (هييرو نيموس) كما اشرنا . وهييرو نيموس قصيدة طويلة تعتبر رائعة من روائع العصر ، نظمها الشاعر احتفالا بذكرى هذا الرسام الهولندي الكبير (١٤٥٠ —

١٥١٦) واسمه هيرو نيموس أو جيروم بوش، وقد عالج في لوحاته موضوعات القتل والتعذيب والآلام النفسية والفقر بطريقة عجائبية مروعة أو رمزية وخيال خصب غريب . من أشهر هذه اللوحات (عربة الكلأ أو الحشيش) ، « إغواء القديس أنطوان » ، « يوم الحساب الأخير » . وينتقل شاعرنا على التوالي ، في قصيدته الموجهة الى الرسام الشيخ ، من لوحات التعذيب والقتل القديمة التي صورها جيروم بوش الى جهنم النازيين في نوع من « الكابوس الموجه » يتخطى أبعاد الزمن :

لقد عادوا أكثر بشاعة وأشد قسوة (...)

(...) نصبوا المشانق للرهائن (...) في الأرض التي تتجمع فيها السكاكين والقربان والحبال والجثث والغوغاء (...)

(...) اذ هناك على الدوام محكوم عليه هو الانسان الذي يجب إلقاؤه

(...) هير ونيموس ، يا أيها الانسان الشاعر بالمرارة ، يا من صورت من أذلوهم ،

هل تسمع البشر تحت المشنقة ومعصماك مقيدان ،

هل تريد أن يعصبوا منك العينين لئلا ترى في منيتك المحيا الانساني ،

أو تشاهد أيضا الألوان الجميلة للجحيم في الأرض التي يحرقونها حتى البذور (...)

كتب دوليف في رسالة موجهة الى أحد أصدقائه عام ١٩٦٨ : « **لا يمكن للشاعر الا أن يكون ذا نزعة انسانية . وتكمن مأساته في وجوب متابعة مهمته من دون أن يضعف ... »**

وكإيفان كارامازوف في (الإخوة كارامازوف) لدوستويوفسكي ، لا يقبل دوليف الا بامكان وجود الحب في العالم الذي قل فيه الحب . إن اللاإنسانية تؤدي الى اليأس أو الى القرف كما يتابع في قصيدته (هيير نيموس) :

ظهر الوحوش تحت المرآة المحطمة لما نحب (...)

(...) يقرف الانسان أن يكون انسانا بسببهم ماداموا هم قرف العالم.

وحين قرر للمرة الاولى ان ينشر قصائده في زمن الاحتلال أورد السبب :

بين الكاهن والجلاد / بين الحبل والكتاب / أزفت ساعة الكلام

كان شاعرنا يؤمن اذا ــ كاراغون وإيلوار ــ بمهمة الشاعر . ففي مقابل البرج العاجي القديم :

سنشيدُ بُرجاً آخرَ هو اعلى ُبرج (...)
منه يرى البنّاؤونَ البشرَ / متشابهينَ كإخوة (...)
وهذا هو موضوع قصيدته (برجنا) .

*

اما المرأة لدى دوليف فقد خلقت شريكة له وحليفة لاتمام مهمته ، كما خلقت للحب وإبداع الجمال . ولقد أدرج في مطلع ديوانه (النهار الجميل) قصيدتين ، الأولى منهما بعنوان (عارية) ، وفيها يقول :

في قلبِ الظلماتِ / يتعرى إعصارٌ / تتكوّنُ امرأةٌ / ليبيَضَّ الليل .
ويقول في القصيدة الثانية وعنوانها (أنشودة الى المحظية) :
تتدرجُ الحميميةُ في خطوطٍ نارية من خلال مصراعِ النافذة ،
ويهفو عريُكِ نحوي على ذهبِ هذا الطوف .

ولو ان الفيلسوف الفرنسي غاستون باشلار قرأ دوليف لاعتبره بكل تأكيد شاعراً شمسياً . الا يتحدث دوليف في حنين عن « **صيادي الضوء** » عن «**شرقِ النهارِ الجميل**» ، عن «**برجِ المستقبلِ المسربلِ بشيءٍ كثيرٍ من الضياء**»؟ ... الا تتألق المقطعات العشر المهداة الى سيدة البحيرة بالشمس والبهاء ؟ ويبلغ الشاعر في هذه المقطعات قمة السعادة ، وهي ذكرى رحلته مع حبيبته الى سويسرا حيث نقع على شريط من الصور الملونة الزاهية :

حديقتكِ فوق تعيشُ في ذاكرتي / كطاووسٍ يتالقُ على ذروةِ جدار .

وليست الصور لديه وسيلة للتعبير وحسب بل هي ايضا أداة ممتازة للاكتشاف وما تقتضيه الدقائق الظرفية للمكان والزمان . فلنسمعه في الموضوع ذاته :

هذه الحديقةُ من المساءِ الى الصباحِ / ومن الفجرِ حتى المساء /
تجري ساعاتِ السعادةِ في الأقنيةِ الحرير ،
في أوراقِ الورد ، في افانينِ العنبر ،
في اليافِ الغاب ، في بقعِ الظلّ .
ساعةٌ رمليةٌ تصفّي الصيفَ قطرةً قطرة .

وفي مجموعته التي سنأتي على ذكرها ، وعنوانها « سلاما ياحبيباتي » قد تقود فكرة ضوئية جميلة الى سلسلة من التماثلات ، ويحتفل بظاهرة الحب كعيد او كعرس عجائبي يغني التحام الحبيبين :

كندى الصباحِ الذي يغدو عطرَ الظهيرة واريجَ المساء ،
كالوردةِ الرئيسةِ التي تقودُ الأزهارَ الى النصر ،
كاللؤلؤةِ التي تمسكُ بوساطتها البحرَ باكمله بين اناملنا ،
كالخطوةِ التي تأتي فتسرعُ السعادةَ في سيرها بدافع من ذاتها ،
كالمرآةِ التي لاتتوقفُ والتي تحفرُ في الجدارِ صورةَ الغرفةِ الأخرى اكثرَ جمالاً ،

افتتنَ قربكِ بالاحتفالِ العجائبيِّ لحياتكِ التي موضوعها حياتي .

لعبة الخيال والذكرى : في الذاكرة صور مهيمنة تنبثق من الواقع المعيش أو من الاعمال الفنية ، وتظهر كتزيينات خارجية لأحلام تتكرر . وهذه إحداها وقد استوحاها من احدى لوحات بيكاسو في قصيدته التي اوقفها الشاعر على الفنان ، وهي من مجموعته (النهار الجميل) :

الشرفةُ تكبل الضياءَ الساطع بالاغلال
كحدادٍ يمسكُ بملقطه الحديدَ المحمرَّ (...)

اشارة الى ساعة الغروب والى الموسيقية المأساوية لهذه اللوحة . على ان الشمس تعاود الظهور في شرفة المنزل المطل على ضفة البحيرة ، ولكنها هنا تشعر بالغبطة والصفــاء :

الشمسُ في الشرفةِ سعيدة في قفصها .

بيد أن السعادة لا تدوم سواء كانت سـعادة الشمس او سعادة الكائـن البشري . وها هو شاعرنا يصاب بصدمة قاسية بعد هاتف تلقاه من مجهـول بأن حبيبته (إس : S) تخونه مع شخص آخر . وتراكمت عليه دواعي القلق واليأس والارق، وانعزل عن اصدقائه ومعارفه . وحاول احد اصدقائه المخلصين ان يستطلع الحقيقة ، فاجتمع بالحبيبة S وتأكد من انها بريئة وان الوشاية كاذبة . ولكن الصدمة كانت قد زلزلت كيان الشاعر ، واغرقته في الكآبة في البدء، ثم لم يلبث ان استرد وعيه ونشاطه . وسنرى آثار ذلك كلـه في مجموعتيه الاخريين (بورا سيتا Pura Seta او حرير صاف) و « سلاما يا حبيباتي ! » .

في قصيدته (قولي لي) و (كابوس) من مجموعته (حرير صاف) تتلاحق الصور المحمومة . لكأن الكابوس الذي ناء به الشاعر لا يقظة منه . وكان يخشى في خطر الحزن الذي ألم به ان يلتقي بصورته الخاصة أو بما يسميها (مرآته) لئلا يتذكر من جديد سعادة الماضي فيأس لها :

كلُّ شيءٍ تدمَّرَ ولم تعد تملك شيئاً ،

ذكرياتك خطرة كمتاهة متهدِّمة (...)

وكان منذ زمن يشكو من ظواهر سمعية مؤلمة سببها الارق والحمى :

تمرُّ أصوات العالم بلا انتهاء / مدحاتها الحديدية على أحلامي .

وكان قد التقى حبيبته S بعد القطيعة في لقاءات نادرة حزينة :

مرة اشفقت عليَّ فقالت لي انس انس / امامك الليل والنهار لتنسى

ولكن ما تراه يفعل بالذكريات وهي تتأكد على الدوام وبمزيد من الدقة :

اينتها الذكرياتُ كوني طيبة من اجل حاضري

الذي يشرد كانسانٍ لم يعد لم مكان على الارض

الا ليطرد منه / اينتها الذكريات ، يا اينتها الطيبة كوني جسدها الحار

في حرير ذاكرتي المتناهي في الصفاء / فان (يوراسيتا) ستستيقظ ...

و (يوراسيتا) ستستيقظ في قلب الظلمات كما في الماضي :

وصدركِ حيث الحريرُ الصافي / يَهبُ للضوء ثماراً (...) وكتابي

ككتابٍ مفتوح / ما ان اجدك فيه حتى تضيعي .

يقول الشاعر : « مع ان هذه القصائد شديدة العتمة فانها تؤدي الى انحدار اليأس انها مقطعات اعتراف، اعتراف انسانيناضل ضداليأسوينتصر بصعوبة» .

ولكن هناك التماعات أفراح صغيرة قد تهل أحيانا :

همٌ صغيرٌ جداً يصرخ صراخ البكَرَةَ حتى قلب الليل

لكثرة ما يريدُ ان يخرج من البئر دلواً من النجوم .

على ان دوليف لا يهمه في نهاية المطاف سوى سعادة الاخرين ، كما في قصيدته (الورقة البيضاء) او في قصيدته (الديك) وهي نوع من انواع القصائد المازحة الخارقة ذات الايقاع الواقعي :

صِحْ اذا شئت او انقد واستدعِ العيون العدم للفجر

صح او انقد لآلىء الاحلام ، وانبش الكنوز التي يختطفها النهار

ويعود الشاعر الى الواقع ، ويستطيع ان يعيش من جديد عواطف الاخرين بما فيها من هناء وشقاء ، كما يعيش عواطفه الخاصة . ويمكن القول ان قصيدته (الالبانية) انما هي صورة عن (لوحة غرنيكا) الشهيرة لبابلو بيكاسو :

سقط الرغيفُ من يدِ طفلكِ / الذي مات فجاة بين ذراعيك /
كان الطائرُ الحديديُّ يطير على مستوى راسكِ /
يا ايتها الام ، يا مَنْ كنتِ تعضّين على دموعك .
سقطَ الرغيفُ هنا في المستنقع الرمادي لكآباتنا /
وتفتتَ منه بلا مبالاة تَماثيلنا(٨) الجميلات اللامجديات .

ونصل الى (الخطوات الاربع) وهي عنوان آخر قسم من مجموعته (حرير صاف) . وتختصر هذه الخطوات الأربع المراحل الاربع للطريق التي قطعها من العزلة المطلقة لـ (للابن الضال) ــ وهي من اجمل قصائده ــ الى الفرح بالحياة وقد اشرق من جديد ، وذلك على الرغم من البؤس الذي اصبح يعيش فيه بعد ان اقعده المرض عن الذهاب الى العمل ، واجبره على دخول المشفى . ثم جرى تسريحه لاهماله الرد على انذار وجهته اليه الشركة ، وكانت بنيته متينة فتعافى فجاة وغادر المشفى . وفي هذا تبدو لنا ارادته القوية في التغلب على أوجاعه وعلى الكآبة التي استبدت به :

لم افقدِ التوازن / لقد قاومت وبمقاومتي انتشيت ،
يا ايها اللحن العظيم للفرح بالحياة .

ويلتقي بزنجية حسناء ، وكان في هذا اللقاء خلاصه وشعوره بـ « **عظمة الحياة** » التي عاشها معها :

اقبلتِ ايتها الجميلةُ وسالتني على ما اظن كمِ الساعة
سابقى هنا في الشارع امامك حتى الأبد (...)

ويحتفل بعودة العافية والفرح بالحياةاليه في عدة قصائد . يقول في احداها:

عافية القلب بالحب ، وعافية الروح بالشعر ، وعافية الجسد
بالهواء النقي واسترواح عطرك البشري وهو الجلد (القبة الزرقاء) .

ويتغنى بحسنائه الزنجية وبمسقط رأسها وطفولتها :

إفريقيا الهائلة حيث يشتعل باليه من الانعكاسات

ليحتفل خطوة خطوة بطفولتكِ المشمسة ...

على ان الشاعر لا ينسى ، في غمرة حبه الخاص ، واقعه المدهش وحبه العام للبشر ، ودعوته الى التضامن الانساني :

نافذةُ الحبُ تفتحُ الضوء على صفحة العجيب .

كما انه لا ينسى هموم العصر ، وقدرته الشخصية على السخط تجاه القنبلتين المدبتين اللتين ألقيتا على هيروشيما وناكازاكي ، واللتين يسميهما ساخراً « **قنبلتي الفضيلة والنظافة** » . وهو يريد الحب للجميع لا لنفسه ولا لحسنائه الزنجية وحسب :

ان احبك يعني ان احب الحب ، ان انشره ،

ان ادافع عنه ، يعني انني اريدك سعيدة ،

وانني اريد للجميع سعادة يخلقها الجميع .

وظلت حسناؤه الزنجية مجهولة ، ولا نعرف شيئاً يتعلق بها خارج ما ذكره الشاعر في قصائده عنها . كما نجهل متى كان بينهما الفراق . يقول في قصيدة عنوانها « الأبواب » :

اقرع الباب الابيض / هل حبيبتي هنا / هل هي

على قيدِ الحياةِ ام ترى ادركها الهرم ؟

ولعل تلك الحسناء الافريقية نفسها لا تدري هي ايضا اية قصائد اوحتها الى الشاعر .

* * *

بعد خروجه نهائيا من المشفى في ايار ١٩٥٥ ، وجد نفسه بلا عمل ولا سكن ولا تعويض ، فاضطر الى الاقامة لدى عمتين عجوزتين تسكنان بلدة (رانصار) في الجنوب من بلجيكا . ولم يحصل على حقوقه في الضمان الاجتماعي الا بعد دعوى طويلة . ولم ينقطع في تلك الاثناء عن كتابة الشعر او ترجمة شكسبير ودانتي ووليم بليك . وحاول الحصول على عمل بلا جدوى ، فالوظائف الموقتة

التي شغلها ، ودعوى تعويضه في القضاء ، وقصائده اليسارية ، والتهاب القصبات الذي كان يعاوده كلما اكثر من التدخين ، كلها او بعضها كان عائقا يحول دون عثوره على عمل . واخيرا حصل على وظيفة متواضعة ، وسكن في بروكسل لدى قريبة اخرى عجوز هي ايضا . الا انه فقد وظيفته بعد مدة لان الشركة صفت اعمالها ، فعاد الى عمتيه العجوزتين في (رانصار) . ثم عين من قبل مكتب البطالة موظفا اداريا في دير للراهبات ، وكتب قصيدة في تحيتهن عنوانها (قصيدة الى الاخوات السود والبيض والرماديات والورديات) ،وادرجها في مجموعته (حرير صاف) . ومنحته الاكاديمية الملكية اعانة مالية ساعدته في طبع هذه المجموعة . واستقبلتها الصحافة البلجيكية والفرنسية بترحاب ، واطراها معظم النقاد .

ثم لم يلبث بعد مدة قصيرة ، اي في آذار ١٩٦١ ، ان اصدر مجموعته (سلاما ياحبيباتي !) ، وفيها قصيدته الغزلية الطويلة (من بين جميع النساء) . وحيا النقاد شاعريته ، وكتب رينه لاكوت في (الآداب الفرنسية) : « انا واثق الآن بأن ارنست دوليف سيتبوأ مكانة مرموقة بين شعراء عصره » .

وكتبت جانين مولان في (الآنال) : « على الرغم من النبرة السردية ، توصل المؤلف الى اعلى درجة من درجات الغنائية المتوقدة (....) السحر في الكلمات ، الانسيابية في الاسلوب ، الصدق في العواطف ، كل شيء يبهرنا في هذه الاغاني ... » .

وتحركت مصلحة الفنون الجميلة والآداب في وزارة التربية فقدمت الى الشاعر (منحة العمل لعام ١٩٦١) ، وكانت مبلغا جيدا مكنه من زيارة فرنسا وقضاء عطلة ممتعة في الشاطىء اللازوردي .

وحين تقدم بمجموعته الجديدة (إشباع جوع الذئب الى الكلمات الليلية)، رفضت لجنة القراءة في الاكاديمية الملكية هذه المرة منحه المساعدة التي عودته عليها . وسوغ هو عدم حصوله عليها بأن قصائده تتسم بمناوأة الملكية والفاشية والاستعمار ... ونأخذ على سبيل المثال قصيدته الساخرة التي يهاجم فيها فرانكو ؛ وتذكرنا بالهجاء الهازىء المر الذي وجهه فيكتور هوغو في مجموعته الشعرية (القصاصات) الى نابليون الثالث إثر اغتصاب هذا الاخير السلطة :

تحية الى الزعيم (الكوديو) المنتفخ بالاوسمة
كواجهة تغص بالبضائع (...)
ليسرد قائمة ضحاياه / كانه يعترف الى الكاهن كل ليلة (...)

ولمعظم قصائد هذه المجموعة (لإشباع جوع الذئب الى الكلمات الليلية) شكل الصرنيته (اربعة عشر بيتا)، وهي ذات رنين يذكرنا برنين قصائد مالارميه ويتحدث فيها عن كارثة منجم ، او عن الاكواخ والفقراء ، او عن الحدائق الصغيرة التي لا تخلو مع ذلك من اشجار مزهرة تهب شيئا من السعادة :

العندليب هنا ايضا / يحيي تحولات الطبيعة / ويغني للحب لا للهم/ قرب الفقراء والورود .

اما قصائده التي بقيت غير منشورة فهي كثيرة . ولعل من اجملها هــذه القصيدة وعنوانها (يوجد) :

يوجد احيانا ازهار جمالها يُقبِلُ من أرض افضل .
رائحة المطبخ للفقراء أكثر دفئا من دفء الحب .
هناك الانسان الذي يشحذ غريانا على صليب .
توجد الحياة بجمالها حول الخطايا اللواتي يقتلن الوقت
وهن يجعلنه يموت حبا .
يوجد اليأس ومستنقعاته الشبحية ، وغدرانه المتوامضة
التي تسيل باستمرار او تعود الى منابعها .
توجد في الحياة سلسلة من الالحان الجميلة المفرقة في التباعد
وعلينا ان نبتكر منها الاغنية المدهشة .
يوجد الشعر ككومة حجارة اصبحت حجارة فلسفية لانها
استخدمت في مهاجمة اعدائك ايتها الحرية ، وهي حجارة من
نار تصنع ما تصنعه زيزان الحصاد من شرارات الصحو .

لكأن ارنست دوليف يشير هنا مرة اخرى الى مآثر الحجارة في أيدي اطفال فلسطين ، وما ستحققه قريبا من استرداد للحقوق السليبة ومن احترام لكرامة الانســـان .

وقد ترك لنا الشاعر ايضا مجموعة نشرت بعد وفاته عنوانها (عيد ميــلاد العجيب) . ويمكن ان نُعرّف هذه المجموعة بانها استيحاء للعجيب عبر الوجود الانساني ، من الطفولة الى سن النضج ، ومن العواطف المتأججة المفوية الى الحب الهادىء الواعي ، ومن الشعر والتمرد حتى الوصول الى صميم العجيب لمن

« يؤمن بتقدم الانسان ، ويجرؤ على الذهاب لينظر الى الواقع في قلب المستقبل» كما قال الشاعر في احدى قصائده عن بول ايلوار .

في العديد من قصائد هذه المجموعة (عيد ميلاد العجيب) يحيي ذكريات ايام الطفولة ، وصوت الام ، وحكايات الجن ، والمصابيح العادية او السحرية ، واسراب العصافير ، ونجوم الصقيع :

طفولات : انطيفونا(٩) الخالدة تعود / أيها الشعر ، اينها البراءة التي يجب فك اسرها على الدوام / اينها الطفولة التي ينبغي ان تستعاد / اينها الاميرة التي يتوجب انقاذها ...

انها اشارة بلا شك الى انطيفونات الطفولة اللواتي سيظهرن في هذه المجموعة اكثر من مرة . وهذه باقة مقتطفة من ابيات بعض قصائدها :

كنت اختبىء في المصباح / وكنت احمل من غرفة الى غرفة .

الطعم البعيد البعيد لحليب الام .

تحرّك ولادة النهار الف اشارة فرح تواكبها السنونوات .

ومن اعماق المنزل الجنيّ / لا تستطيع اية صرخة بؤس ان تستدعيني الى الارض / وحده صوت أمي / كان يحتفظ بطهارته بين اصوات القديسات و الجنيات .

حين كانت الحياة كيد امراة أمام الضوء .

كان همه ان يثبّت قانون العجيب ، ولكن فلسفته من اجل ذلك لم تكن تخلو من ماساوية ، اذ كان يعلم بتجربته الخاصة وبالاحداث التي تدور في عصره، أن الخير ليس القوة الوحيدة التي تحاول ان تغزو العالم ، وان السعادة ليست واقع الوجود . بل ان الحياة بالاحرى انما هي الصراع بين **« العجيب »** وبين **« المرعب المضاد »** . حصة يومية ، وكاس لكل يوم **« لذيذة ومقرفة »** ، ومقابل **« انامل الحياة الخمس ثمة اصابع الموت الخمس »** . تناوب ابدي يعتبر كل يوم هاجسه الميلادي . ولكن (اورفيه) سيظل مع ذلك يسير ويسير باحثا حتى النفس الاخير عن الجزة الذهبية(١٠) . وفي قصيدته (كاسنا اليومية) ، تذكير

بهذه المأساة المانوية(١١) . بين العجيب وضده . يقول في قصيدة (الشاعر أو اورفيه) :

غنيت في البدء كما يغني اكثر البشر انسانية / ثم بلغت فيما بعد راحة انصاف الآلهة الذين يتعذبون .

ويشير الى موت الآلهة :

وكان الآلهة الموتى عراة / نضوا عنهم اكفانهم الرملية /
وكانت المعابد تعاود الظهور / على امواج ضوء القمر من
حين الى حين / كانها سفن ضائعة ...

ويصور لنا أورفيه في مهمته :

تمرّ / طيفك يشكل زوجا مع طيف كل ما احبه / وما تجده ايضا
مما قد كان محبوبا / في كل مكان تطلق الاسرار والمفاتن
فتتقبل لتشرد فيما بيننا ...

وهي مهمة متواضعة ولكنها ذات اثر شمولي :

وغدوت احد انصاف الآلهة الذين يصفون من اجل البشر .

اما في (كأسنا اليومية) فيقول :

غنى والآن يرتاح في عذابه على محرقة / متناهيا في الصبر /
متكوما ككنز كبير / يحلم ، يشرب ، ياكل ، ينام .

وهي اشارة مبطنة الى مصيره الشخصي الذي آل اليه .

والواقع ان مجموعته (عيد ميلاد العجيب) انما هي نهاية المطاف لهذا المفهوم الذي طال فيه التامل عن الدور الذي يؤديه الشاعر في هذا العالم . وهو دور يأتي في طليعة المسائل التي تكوّن اخلاقية دوليف . وتتوالى فيه عرائس الشعر والجنيات :

عرائس الشعر = انتظار نساء على شواطىء الكلمة او كثبانها ،
ارقّ نساء في مهجع الذكريات (...)
حلم يجعلك تقول الكلمات اللواتي يرغبن في قولها.

وكما راى اندره بروتون في الخيال او المتخيل ما يسعى اليه الشاعر ليصبح

واقعا ، رأى دوليف في العجيب متخيلا يسعى فيه الشاعر ايضا الى بلوغ الحدود القصوى لهذا الواقع .

واخيرا وجد دوليف عملا يليق به كشاعر وانسان اذ عين امينا لمكتبة شارلروا العامة ، وقد تم بناؤها على حداثة وابهة ، وبقي سعيدا بهذه الوظيفة حتى وفاته . واحب شقراء فاتنة كان يلتقي بها كل صباح في موقف الترام الذي ينقله الى مركز عمله . واوحت اليه بضع قصائد تنبض بالحب والدفء والعذوبة .

في احد دفاتره الخاصة وجد هذا التعريف للشعر : «**الشعر ، اهو بقية شمس في اعماق نافذة ام هو رشيم من رشائم الشمس ؟** »

ومع ان شاعرنا قضى شتاء رديئا بسبب التهاب القصبات المزمن الذي كان يشكو منه ، فانه لم يلبث ان عاد الى التدخين بكثرة بعد ان احس ان صحته تحسنت .

بعد ثلاثة اسابيع ، وفي الرابع عشر من تموز ١٩٦٩ ، فوجئت قريبته العجوز بانه لم يغادر منزله مبكرا ، وانه لم يهيء لها على عادته طعام الفطور . وصعدت الى الغرفة التي ينام فيها فرأته جثة هامدة . لقد مات موتا هادئا في اثناء الليل .

كان ارنست دوليف شاعرا كبيرا وصاحب رسالة سامية ، اذ اراد ان يكون احد صناع العالم الافضل الذي يعمل لبنائه المخلصون والشرفاء على هذا الكوكب ، فدعا الى الاخوة ، والعدالة ، ونبذ الانانية والتعصب ، واحترام كرامة الانسان ، وحرية الكلمة ومقارعة الفاشية والاستعمار والطغيان والتمييز العنصري ؛ كما احب الحياة واحب التقدم والجمال والمرأة الطيبة الخالدة وغناها كلها اجمل اشعاره واعذبها . وعلى ذلك نرسل الى روحه الصافية تحية محبة واكبار واعجاب في هذه الذكرى العشرين لوفاته ، آملين ان نكون قد وفقنا الى ايفائه بعض حقه علينا ــ كمبدع وحامل رسالة ــ في هذه الدراسة المختصرة .

هوامش :

(*) عنوان المحاضرة التي القيت في فرع اتحاد الكتاب العرب بحمص مساء الثلاثاء ٢١ شباط ١٩٨٩ بمناسبة مرور عشرين عاما على وفاة الشاعر البلجيكي الكبير .

(١) بندار Pindare شاعر غنائي اغريقي (٥١٨ ـ ٤٣٨) ق. م. كان تلميذا لعازف الفلوت او الناي سكوبيلينوس Scopelinos، وكذلك تلميذ الشاعرتين كورين Corinne وميرتيس Myrtis. استضافه عدد من الطغاة الذين حكموا صقلية ، واغدقوا عليه الرواتب والنعم .
مات ميتة سعيدة . في اشعاره جميع الانواع الغنائية الكورالية من اناشيد الشكوى والحرب والنصر والفرح بالحياة ... لم يصل الينا منه سوى مؤلفه الوحيد الكامل (القصائد المظفرة) ، وهو تحفة غنائية اغريقية .

(٢) إيشيل او إسخيلوس Eschyle : شاعر مأساوي اغريقي (٥٢٥ ـ ٤٥٦) ق.م . من اعماله : المتوسلات / الفرس / السبعة ضد ثيبة او طيبة / بروميثيوس مقيدا / ثلاثية الاوريستيا Orestie (اغا ممنون ، الكويفوز ، الاومينيد) . انصرف الى الفن المسرحي فابدع في المأساة حتى اصبح حقا ابا الفن التمثيلي بقوة خياله وعمق عاطفته الدينية والانسانية.

(٣) سافو Sappho او Sapho : شاعرة اغريقية ولدت في جزيرة ليسبوس Lesbos (اليوم ميتيلين Mytilène) في اوائل القرن السادس ق.م كانت قصائدها تشكل تسعة كتب تحوي أغاني زفاف ، واناشيد حب ، ومراثي ، لم يبق منها سوى مقطعات .

(٤) غوستاف مورو Moreau : رسام فرنسي ، ولد بباريس (١٨٢٦ ـ ١٨٩٨) .. خلق في فنه نوعا من الاساطير يتسم بالتالق القصصي والرمزي . كان استاذ الرسامين : ماتيس وروو Rouault (من المدرسة التوحشية ـ الفوفية ـ) وماركيه Marquet (من المدرسة التعبيرية) ، وجميعهم فرنسيون .

(٥) بول ديلفو Delvaux : رسام بلجيكي ، من اتباع السريالية .

(٦) آشيل شافيه Chavée : شاعر بلجيكي (١٩٠٦ ـ ١٩٦٩) . احد الوجوه البارزة في السريالية البلجيكية . مؤسس عدة جماعات من الشعراء . حارب في الكتائب الاممية الى جانب الجمهوريين في اسبانيا . شاعر غنائي بشكل خاص ، ومكتشف موجع لعالمه الداخلي . يؤمن بالانسانية والحب والصداقة ، ويسلك في اشعاره مسلكا شديد الخصوصية ليصل الى الدعابة والفكاهة . من اهم مجموعاته : قشورالزمن ، رباعيات لهيلين ، الفيل الابيض ، وسواها .

←

(٧) اشجار جوز الالتنبرغ Les Noyers De L'Altenburg : رواية لاندره مالرو ، نشرت عام ١٩٤٣ . تشكل الكتاب الاول من سلسلة كتب عنوانها الرئيس (الصراع مع الملاك) . تجري حوادث هذه الرواية في عدة اماكن (معسكر اعتقال شارتر ، تركيا ، الشرق، التنبرغ ـ وهي مدينة شرقي المانيا ، من قطاع لايبزيغ ، ٨٠ الف نسمة ـ ، الفلاندر) وذلك في حقب مختلفة (قبل ١٩١٤ ، في عام ١٩١٧ ، في عامي ١٩٣٩ و ١٩٤٠) . يؤدي فيهامعدة اشخاص بالتناوب دور البطل الرئيس (بيرجيه ، ثم والده فنسان ، ثم بيرجيه من جديد ...) ، وتشغل المناقشات الثقافية فيها حيزاً هائلا ، وتدور حول التاريخ ومفهوم الانسان ، والفن ... الخ . وهي موضوعات أساسية في فكر مالرو ، تتيح لنا التعمق في فهم هذا الفكر . والرواية وقفة بين روايتين لهذا الكاتب هما (الامل) وهي رواية ثورية ، و (أصوات الصمت) وهي روايـة جمالية أو هي مغامرة وتأملات في الفن . ففي روايـة (الامل) يعلمنا مالرو بان الثورة كثورة بحد ذاتها سلاح غير كافٍ في مواجهة القدر . وليس للمجهود الثوري معنى الا بمقدار ما يكون تعبيراً عن حرية البشر وارادتهم : فما له قيمة فعلية انما هو « القوة البشرية في صراعها مع الارض » . ويجب التساؤل فقط ما اذا كانت هـذه القوة سلاحاً ينتصر على القدر ، او تحركاً او ثورة لا جدوى منها .

اما في (اشجار جوز الالتنبرغ) فيحاول مالرو أن يمسك بهذه القوة البشرية في وضعها الخام ليعارض بها القـدر بجميع اشكاله . انـه يحـاول « ايجاد علـم للكائن Ontologie ـ اونطولوجيا ـ البطل أو البطولي » فيجعل الانسان والملاك يتجابهان في معركة فريدة ولا تنفجر الانسانية الثورية هنا الا لتوسع ابعاد الانسان ذاتها فيما وراء حدود الزمان والمكان . ويمكن ، الى حدٍ ما ، ان نقارن بهذه الرواية سنفونية بتهوفن الخامسة (هكذا يقرع القدر الباب) حيث البطل هو الانسان ، وحيث ينتصر هذا الانسان على جميع المصاعب والآلام التي يضعها القدر في طريقه .

(٨) التم : طائر مائي جميل وانيق يشبه الإوز ، اطول منه عنقاً ، منه الابيض والاسود . مؤنثه (التمة) وجمع المذكر والمؤنث منه (التمات) . وهو غالباً ما يعيش على بحـيرات اوروبا وانهارها . والتم (او التمة) هو الترجمـة الصحيحة لكلمات Cygne بالفرنسية و Cygnus و Swah بالانكليزية . اما البجع (او البجعة) فهو ترجمة لكلمة Pelican بالفرنسية والانكليزية . وهو طائر اميل الى القبح ، قائمتاه قصيرتان ومنقاره طويل عريض . وقد شاع خطأ على السنة الكتاب والعامة واقلامهم في العالم العربي قولهم (بحيرة البجـع) للموسيقار الروسي تشايكوفسكي ، والصحيح (بحيرة التمات) . امـا

←

قصيدة الفريد دو موسيه الشهيرة Le Pelican فتجب ترجمة عنوانها بـ (البجع) .

(٩) انطيغونا Antigone : ابنة اوديب ، وشقيقة إيتيوكل Etéocle وبولينيس Polynice . حكم عليها بالموت لانها دفنت اخاها بولينيس الذي صرع امام اسوار طيبة ، مع ان الملك كريون Créon منعها من ذلك . و (انطيغونا) عنوان مسرحية فاجعة لصوفوكليس ، وفيها تجابه البطلة انطيغونا الملك كريون وتدافع عن الشرائع « غير المكتوبة » التي يمليها الواجب ضد العدالة الزائفة للقرارات البشرية . ـ وهي ايضا فاجعة للكاتب الايطالي الفييري Alfieri ـ ودراما (ماساة) للكاتب الفرنسي جان انوي Anouilh (١٩٤٤) .

(١٠) الجزة الذهبية La Toison d'Or : هي جزة الكبش المجنح الذي نقل في الاجواء فريكسوس Phrixos وهيليه Hellé . احتفظ بها في بلاد الكولشيد بآسيا الصغرى وقام على حراستها تنين . حصل عليها الملك جازون Jason والارغونوت . وقاد جازون معه ، لدى عودته من منطقة الكولشيد Colchide ، ميديه Médée ثم تزوجها . والارغونوت ابطال ابحروا في سفينة اسمها Argo ـ ومنها اسمهم ـ ، وذهبوا بقيادة جازون لاستعادة الجزة الذهبية .

(١١) المانوية : نسبة الى مذهب (ماني) الفارسي ، صاحب عقيدة الصراع بين النور والظلام .

★ ★ ★

ابن الساعاتي

شاعر مجهول

عبدالغني العطري

في تاريخ الادب العربي ، اخبار عن كثير من الشعراء ، ظهروا وقالوا من الشعر ما هو جيد، وجدير بالحفظ والبقاء . ولكن هذا الشعر ، لسبب او لآخر ، طواه الزمن ، وعفت عليه الايام ، فضاع كله ، أو وصل الينا النزر اليسير منه ، وورد في هذا الكتاب ، او ذاك السفر من تراثنا العربي الخالد .

بين الشعراء الذين طواهم الزمن ومحا ذكرهم ، الشاعر بهاء الدين ابو الحسن علي بن رستم، المعروف بابن الساعاتي.

سالت عنه كثيرا ، ونقبت طويلا ، فلم اعثر الا على اقل من القليل من شعره واخباره ... سالت بعض الاخوة الادباء عنه ، وصدمت حين صارحني احد البارزين منهم ، بانه لم

يسمع به ... ثم ارشدني اخ كريم آخر الى ديوان شاعر مصري ، يدعى محمود صفوت الساعاتي ، الذي ولد في القاهرة عام ١٢٤١ للهجرة . ولم يكن هذا الشاعر قصدي ولا مطلبي .

وتجلت لي الحقيقة ناصعة فيما بعد ، حين علمت ان انيس المقدسي استاذ الادب العربي في الجامعة الاميركية ببيروت سابقا ، قام بتحقيق ديوان الشاعر وطبعه في العام ١٩٣٨ ، اي منذ اكثر من خمسين عاماً ، وظل الديوان حتى بعد طبعه مجهولا ، لاني لم اعثر عليه في المكتبات التجارية ، ولا لدى احد من الاصدقاء الادباء . ولعل النسخة التي عثرت عليها في المكتبة الظاهرية بدمشق احدى النسخ القليلة الموجودة منه .

ويطيب لي اليوم ان القي قليلا من الضوء على هذا الشاعر ، الذي غابت اخباره ، وطوى الزمن اشعاره ، ولم يقدر له ان يندرس وينال حقه من الشهرة والتقدير :

ابن الساعاتي من شعراء القرن السادس للهجرة ، ولد في دمشق ونشأ فيها وترعرع ، وقضى الشطر الاعظم من حياته في ربوعها . ومن اجل هذا يعرف بالشاعر الدمشقي ، وبعد ان جاوز الثلاثين ، رحل الى القاهرة ، واقام فيها حتى توفي عن واحد وخمسين عاما .

يقول محقق الديوان ان الشاعر لم يرحل عن دمشق زهدا بها ، او كرها لها ، لكنه رحل مرغما ، وهدفه الحصول على المال . وفي هذا الصدد يقول :

ماسرت عن جلّق ابغي البديل بها ... لـولا طـلابي محلاً للعلى قذفا

طول المقام لاهل الفضل منقصة ... والمسك لولا النوى ماادرك الشرفا

لولم تجردسيوف الهند مارهبت ... والدر ماجلّ حتى فارق الصدفا

ولعل من اسباب رحيله عن دمشق ايضا ، انه لم يشعر بالتقدير الكافي ، فقد كان حوله عدد من الادعياء والحاسدين ، الذين كانوا يتعصبون للشعراء القدامى ، ولا يحلونه المكان اللائق . وفي ذلك يقول :

ذمّ الورى كل محمود وما تبعوا ... غير الأوائل فيما قيل والسلفا

طرق ابن الساعاتي جميع ابواب الشعر من مدح وفخر ، وهجاء وغزل ، ووصف وإخوانيات ، ولكن المدح ابرز واوسع ابواب شعره ، فقد داب على

مدح حكام الدولة الايوبية ، وفي طليعتهم القائد البطل صلاح الدين الايوبي وابنائه الملوك : المعز ، والمؤيد ، والافضل ، والظافر ، ولعله لم يترك مناسبة أو سانحة الا واهتبلها ، ليقول في هذا الحاكم او ذاك الوزير أو الامير بعض شعره، وهذا بالطبع مما يؤخذ عليه .

وكانت صلته بالقائد الظافر صلاح الدين قوية ، وكان اعجابه ببطولته وانتصاراته لا يجارى. وبلغت قصائده بصلاح الدين خمس عشرة قصيدة .

طرق شاعرنا باب الغزل ، كما طرقه سائر الشعراء ، من قبله وبعده ، وله في هذا الميدان غزل رقيق عذب . الا ان هذا الغزل ليس محصورا بامرأة بعينها ، بل هو غزل ينطبق على كل حسناء يهفو اليها القلب، لنستمع اليه يقول:

وناهدة راحت ولاية حسنها ... تجور على ضعفي وليس تجير
من الهيف إلا ردفها فهو ذو غنى ... يرجى واما خصرها ففقير

ويقول في مناسبة اخرى وقد ودع من يحب :

وماكنت لولا صبوتي يوم ودعوا ... واجفانهم تلك الضعيفة تفتك
ليسهرني من بينهم طرف راقد ... خلي ويبكيني الخلي ويضحك

انه والحق غزل رقيق ، يهز سامعه طربا ، وينشيه ويسكره ، ولله ماأجمل قوله ، وهو يصف من يحب :

ولو تراها وقد ألقت قلائدها ... مع الكرى لرايت الحلي في العطل
بيضاء مشرقة لونا اذا سفرت ... تضرجت وجنات الورد بالخجل
ظمآنة الخصر، ريا الردف جامعة ... بين النشاط الى الحاجات والكسل
مذ صاغها الله كم صاغ العواذل لي ... من ثروة اللوم اقراطا من العذل
لقد شغفت بها حبا كما شغف الـ ... ـسكندي بالمدح والعشاق بالعذل

من ابرز صفات الشعر في عصر ابن الساعاتي ، العناية بالبديع والمحسنات اللفظية . وقد خاض شاعرنا غمار البديع ، فكان مجليا فيه الى أبعد حد ، وبالغ بالتشابيه والاستعارات وجمع الاضداد . لنستمع اليه يقول :

كل يصح اذا تصح حياته ... الا النسيم يصح ساعة يمرض

فقد أكد في الشطر الاول ان الحياة في الصحة . اما النسيم فصحته في مرضه واعتلاله وضعفه .

ان شاعرنا ــ كما قلت ــ شديد الولع والهيام بألوان البديع ، سواء في المعنى او اللفظ من استعارة وتشبيه وكناية وجناس وطباق . وقلما تخلو قصيدة له من هذه الفنون البديعية الجميلة . لنستمع اليه يقول متغزلا :

فوالله ما ابكي لقسوة قلبه ولكنني ابكي لرقة خده

وقد جمع فيه بين قسوة القلب ورقة الخد .

ولنقرأ قولـه :

سَقَمٌ فيه مُذهِبٌ سقمَ جسمي كيف يَشفي من السقام السقامُ ؟

وقد اراد أن يقول ان ضعف الحبيب وسقمه ، يذهب مرضه وسقمه . وفي الشطر الثاني يعجب من السقام الذي يشفي السقام ! . انه ولـع الشاعر بالتلاعب بالالفاظ والمعاني .

وبلغ من اسرافه وولعه بالاناقة الفنية ، انه كتب الى القاضي الفاضـل تسعة ابيات ، والزم نفسـه بأن تكون قافية كل بيت منها وصف لون فكانت البيضاء والخضراء والصفراء والغراء والشهباء والسوداء والحمراء والدهمـاء والغبـراء .

يروى عن ابن الساعاتي انه كان من ظرفاء عصره ، محبا للهو والشراب ومجالس الطرب . ويظهر اثر هذا كثيرا في قصائده الشامية ... اما حين هاجر الى مصر ، فكان قد جاوز معظم سن الشباب ، كما أنه فجع بثلاثة من ابنائه الامر الذي صرفه عن العبث واللهو ، وجعله كثير الانطواء على نفسه ، مكتئبا حزينـا .

كذلك كان الشاعر كثير الاعتداد بنفسه ، عظيم الاعتزاز بشعره ، يصنف ذاته في عداد الشعراء الاوائل . ومن اجل هذا كان يحز في قلبه عدم تقديـر الآخرين لمواهبه وشاعريته . كما كان يؤلمه عدم حصوله على التقديـر المادي الكافي من ممدوحيه .

طاب له ذات يوم ان يجعل من نفسـه اميرا للشعر والنثر ، فقال في قصيدة مدح بها الظافر عام ٥٩٦ :

ولستُ امـير النظـم والنثـر ان جـرت
الـى غـيرك الوجنـاء او وصل الحبـل

كفاها جلالا ان فكري وليتها
وانك يا نجل الملوك لها بعل
فما كان مثلي ابن الوليد وانما
تقادم ميلاد ولا مثلك الفضل

وابن الوليد الذي ورد ذكره هو الشاعر مسلم بن الوليد المعروف بصريع الغواني والفضل هو ابن يحيى البرمكي .

ويبلغ اعجابه بشعره ، انه يزري احيانا بمن تقدموه من فحول الشعر ، ويرى ان الناس مخطئون في تعظيمهم للقدامى وتقصيرهم . ولو انصفوا لجعلوه اميرا على من تقدموه . لنستمع اليه يصف مدائحه الشعرية :

مدّح تذهب الليالي وتفنى وتحوز البقاء والتخليدا
كشباة الهندي سلّ رقيقا وسنان الخطي هزّ سديدا
محكمات الاعجاز تسلم اعجازا الى الفي مسلما والوليدا

والوليد كما نعرف هو البحتري ، الذي يحسب ابن الساعاتي ان شعره يزري بشعره .

وكان صاحبنا كثير الضيق بحاسديه والتذمر منهم . عرّض بهم في كثير من المناسبات ، وندد بتطاولهم عليه . ولعل مرجع هذا الحسد والتطاول ان ابن الساعاتي ، كان يحظى بمجالسة الملوك والامراء والقضاة واهل العلم والفضل ، بينما كانوا هم يحلمون بالوصول الى بعض ما وصل اليه . ويبدو انه كان لاقوال هؤلاء الحاسدين بعض الاثر في نفوس من يمدحهم ، لذا نراه يخاطب الامير المعز في احدى قصائده بقوله :

حاشاك من ان تسترد مواهبا
تخفى وعادة مثلها ان يظهرا
ولقد منحتك من بنات خواطري
غيدا اقل ثوابها ان تمهرا
فاذن لسمعك ان يطلق بعدها
ذاك المعاد من الحديث المفترى

وابن الساعاتي من الشعراء المبدعين المحلقين في كثير مما قال ونظم. أليس رائعا وساحراً قوله :

وهيفاء تقتل عشاقها برمح القوام وسيف الحوَر
تسدد بالجفن سهم الفتور وتفتح في الخد ورد الخفر
اذا ما هدت بصباح الجبين قلباً اضلت بليل الشعر
اسرّ اليها بشكوى الهوى فتجهر باللوم في من جهر
فنحن كما قيل فيما مضى اريها السهى وتريني القمر

وما الطف قوله :

وشادن في يده فدية جردها للفتك من غمدها
ما كان محتاجا الى مثلها ولحظه اقطع من حدها

وما أرق دعابته لجارية سوداء :

زعموا اني لجهلي تعشقتك سوداء دون بيض الغواني
ليس معنى الجمال فيك بخاف انما انت خال خد الزمان

ومهما كان الامر فابن الساعاتي يبقى واحدا من شعراء الدولة الايوبية البارزين . ومن حقه على الادباء والباحثين ان يدرسوا شعره دراسة عميقة ، ويحللوا ديوانه ، ويقدموا الدراسات الوافية عن عصره .

★ ★ ★

ندوة الشهر

«ابلا وأوغاريت في المدرسة التوراتية»

المشاركون :

د. علي ابو عساف
أ. قاسم طوير
د. محمد محفل
أ. مفيد عرنوق

ادارة الندوة :

عبد الرحمن الحلبي

عبد الرحمن الحلبي :

لست ادّعي انني احسن التقديم لندوة تبحثفي نصوص ترجع الى خمسة آلاف سنة ، بل ان المؤهلين للبحث في مثل هذه النصوص قلة قليلة ، او تكاد تكون ، لدينا ، في حكم النادر .

اما ما يقع بين ايدينا من كتب صنفت خصيصا عن « ابلا » او «اوغاريت» فلها وضع آخر ، ربما كانت قد اضرت بالموضوع الذي تناولته اكثر مما احسنت اليه ، رغم حسن نية اصحابها ، ورغم احترامنا لما بذلوه من جهد في هذا الجانب .

لقد اتيح لي ان اجالس عددا من هذه الكتب ، فتبين لي ــ رغم معرفتي اليسيرة في مدى صحة حقيقة بحثها ــ انها مشحونة بالعاطفة اكثر من امتلائها بالعلم . ونحن بحاجة ، في مثل هذه الموضوعات ، الى العلم اكثر من حاجتنا الى العاطفة .

من هذا المنطلق ستحاول هذه الندوة ان تبحث في اثرين منشورين بين الناس . احدهما بعنوان « ابلا » وهو ، كعنوانه ، خصص لبعض مكتشفات ابلا ، وضعه (باولو ماتييه) رئيس بعثة جامعة روما للتنقيب الاثري في تل مرديخ الواقع قرب سراقب في المنطقة الشمالية من سورية ، والذي غدا اسمه الآن « ابلا » بعد اكتشافها . وقد ترجم هذا الاثر عن الايطالية الاستاذ قاسم طوير مدير مركز البحث والتدريب الاثري في المديرية العامة للآثار والمتاحف في الجمهورية العربية السورية . والآخر بعنوان « اللآلىء » وهو الذي ينقل لنا نصوصا اوغاريتية منسوبة الى كبير كهنة « اوغاريت » المسمى في هذا الكتاب (ايلي ميلكو) ترجمة ودراسة (العالم هـ . ي. ديل ميديكو) وفقا لما وصفته الترجمة العربية لهذا الكتاب التي قام بها الاستاذ (مفيد عرنوق) المتفرغ لمطالعة التاريخ القديم والكتابة فيه .

والاثران « ابلا واللآلىء » سيقودانـنا الى نقطة نراها على غاية من الاهمية، هي سعي « المدرسة التوراتية » الى تزوير الواقعة التاريخية ، وقسرها على السير في الطريق التي ترسمها هي لا تلك التي ينتجها التاريخ . وهو الخط ذاته الذي انتهجته الصهيونية في سرقة حضارات الشعوب ، وتنتهجه « اسرائيل » في سرقة موروث الانسان العربي ـ في فلسطين بخاصة ـ ترابا وملبوسات وفنونا ومآكل ، رغم وجودها النشاز في الايقاع العام لمجريات الحضارة الانسانية .

إن المنتدين ، د. علي ابو عساف المدير العما للآثار والمتاحف في سورية والاستاذ محمد محفل ، استاذ التاريخ القديم بجامعة دمشق ، مع الاستاذين طوبر وعرنوق ، قادرون ـ فيما اعتقد ـ على تغطية هذا الموضوع وتفرعاته نظرا لاختصاصهم ، ونظرا لما يمتازون به من صبر وأناة في مضمار البحث العلمي . وعلى ذلك سابدأ اسئلتي بهذا المقتبس من قول للاستاذ باولو ماتييه . يقـول :

« بعد اكتشاف القصر الملكي والمكتبة الوثائقية في ابلا ، اصبح بين ايدينا عناصر جديدة كل الجدة ، ستجعلنا نعيد اساليبنا السابقة في كتابة التاريخ (. . .) وكي ندرك اهمية الوثائق اللغوية في ابلا لا بد من الاشارة الى ناحيتين اثنتين . الاولى هي :ن ان اقدم الوثائق المكتوبة بلغة سامية شمالية غربية قبل اكتشاف ابلا هي النصوص المسطرة باللغة الاوغاريتية التي تعود الى القرنين الرابع عشر والثالث عشر ق. م.

اما الناحية الثانية فهي ان نصوص ابلا تتضمن ، حتى الآن ، اقدم واوسع مجموعة لمفردات لغة سامية شمالية غربية الى جانب الاوغاريتية والعبرية القديمة » . ا. هـ . المقتبس . وتساؤلاتنا هي :

١ ـ عن اية لغة تتم ترجمة الوثائق المكتشفة ، وكيف نرجح الترجمة الاقرب للصحة ؟

٢ ـ ما مدى علاقة اللغات القديمة : اكادية ، اشورية ، بابلية ، ثمودية باللغة العربية وبما يسمى «العبرية» ؟

٣ ـ ما القيمة التاريخية لمكتشفات ابلا ، وكيف نتعرف على الضجة التي اثيرت حولها في كل من اوربا وامريكا ؟

د. علي ابو عساف :

هناك اعتماد كلي ، في تفسير نصوص ابلا ، على الدراسات السابقة التي تمت في هذا المجال حتى الآن . منها كتابات الملوك الاكاديين او الملوك السومريين او وثائق مدينة (ماري) ، وايضا قسم منها يعتمد على لغة (اوغاريت) ثم اللغة العبرية .

تتم قراءة الوثائق ـ عادة ـ حسب الاستاذ الذي يقراها . فمثلا الاستاذ (بنيناتو) ، الذي قام لاول مرة بدراسة هذه النصوص ، له خلفية توراتية

باعتباري اعرفه جيدا نتيجة زمالتنا في الدراسة بالمانيا ، فهو خريج كلية لاهوتية في ايطاليا ، ومثله يدرس التوراة جيدا ، وكاد يصبح كاهنا ، الا انه ترك الكهنوت في المانيا وتزوج امراة المانية. وهو بحكم دراسته للتوراة، لا يعرف من اللغات السامية الغربية سوى العبرية(١) . يعرف ايضا اللغات المسمارية التي هي الأكادية والآشورية والبابلية . ومن هنا كان لا بد له من الاعتماد على اللغة العبرية في بعض التفسيرات . وهذه التفسيرات اوقعته في مشكلات عدة، منها انه وجد بعض الاسماء الناقصة ، كهذين المقطعين : (م . . . د) فاكملهما بمقطع ثالث من عنده رآه مناسبا هو (ج) فاصبح اسم مدينة في فلسطين هي (مجدّو) . وانطلاقا من هذا المنهج الذي اتبعه وقع بأخطاء جعلت العلماء يعيدون النظر بالدراسات التي قدمها لعدم دقتها .

الحلبي :

هل كانت اخطاء (بتيناتو) ناجمة عن اعتماده على العبرية في القراءة ؟

ابو عساف :

ليس على العبرية فقط ، بل نتيجة التسرع ، فلكي نقرأ قراءة اقرب للصحة ينبغي ان ناخذ معطيات كثيرة اضافة الى المعطيات اللغوية ، كالمعطيات التاريخية ، حيث لدينا نصوص من مدينة (آلَ تخ) [تل عطشانة في سهل العمق الآن] . ولدينا نصوص من مدينة (ماري) ولدينا نصوص افضل من موقع (ابو صلابيخ) في العراق ، وهو معاصر لـ (ابلا) ، والوثائق التي اكتشفت في هذا الموقع معاصرة ، ايضا ، للوثائق المكتشفة في مدينة (ابلا) . وسيكون علينا الاعتماد على هذه النصوص كافةلنصل الى الترجمة الاقرب للصحة ، والتي ستساعد من ثم للوصول الى الحقيقة .

بالنسبة لمدى علاقة هذه اللغات ببعضها فهي جميعا من نسب واحد واسرة واحدة . فلو اخذنا بعين الاعتبار وجود ابجدية سامية قديمة تتمثل في ثمانية

---

(١) اعتاد العلماء أن يقسموا اللغات السامية تقسيما جغرافيا : « اللغات السامية الشرقية » ويقصد بها بلاد ما بين النهرين والعراق حاليا ، وتكتب بالخط المسماري . ثم « اللغات السامية الغربية» المنتشرةفي بلادالشام وفي شبهالجزيرة العربية. وقد قسمت اللغاتالسامية الغربية بدورها الى قسمين : شمالية غربية ، وتشمل بلاد الشام . وجنوبية غربية ، وتشمل شبه الجزيرة العربية مع الحبشة أو السواحل الشرقية الافريقية »

وعشرين حرفا ، تمثلها اللغة الاوغاريتية وكذلك اللغة العربية لوصلنا الى نتيجة هي ان اللغة العربية قديمة قدم اللغات الاخرى ، وان لم تتوافر ، حتى الان ، كتابات في الجنوب العربي . فاذا ماتم الاعتماد على تصريف الافعال وعلى اسماء الاعلام وعلى الاعراب .. فاننا نجد تشابها كبيرا بينها وبين اللغة الابلاوية [نسبة الى ابلا] واللغات السامية الاخرى .

هناك نص ابلاوي — على سبيل المثال — يتحدث عن غزو (إنا دَجَنْ) وحروبه . ترد في هذا النص عبارة « سامْ القوم » . وكلمة « سام » بمعناها الابلاوي تحمل ذات المعنى الذي يحمله فعل « سام » باللغة العربية ، علما بان كلمة بأن كلمة « سام » لم ترد الا باللغتين الابلاوية والعربية ، اي انها لم ترد فيأي من اللغتين الاكادية القديمة والاوغاريتية .

اللغة العربية — اذن — تظل جامعة لمفردات اللغات السامية اكثر من اية لغة اخرى . وهذا امر طبيعي باعتبار ان اللغة العربية وريثة تلك الحضارة جميعها .

اما بالنسبة للقيمة التاريخية لمعطيات ابلا فان الواقع يؤكد ان اكتشاف مدينة ابلا من اعظم الاكتشافات التي حدثت في النصف الثاني من القرن العشرين . ثم ان اهمية هذه الاكتشافات لا تقتصر على الرقم ، على الكتابات، على النصوص التي بين ايدينا وحدها بل تشتمل المخلفات التراثية الاخرى عمارة ونحتا .

ففي مجال المنحوتات الكثيرة التي اكتشفت في ابلا ، وتمثل — على الغالب — ملوكا وامراء ، هي مادة هامة في كتابة تاريخ فن النحت في بلادالشام وتدلنا على العلاقات بين مدن بلاد الشام : ماري وابلا ثم ابلا وال لخ .

كنا نعلم من كتابات الملوك الاكاديين الذين حكموا بعيد منتصف الالف الثالث، ق.م أن ثمة مدينة هامة — كانت قائمة — اسمها ابلا ، وثمة مملكة قوية — في بلاد الشام — اسمها ابلا . ولكن لم نكن نعرف المدى الجغرافي لهذه المملكة ،ولا نعرف شيئا عن علاقاتها الدولية ولاعن دورها السياسي اوالحضاري في بلاد الشام .

بعد اكتشاف ابلا تبين لنا ان هذه المملكة كانت ذات بقعة واسعة جدا ، نستطيع بشكل مبدئي ان نحدد حدودها من حماه في الجنوب حتى اعالي

الفرات في الشمال ، حتى جبال الامانوس وساحل المتوسط في الغرب ، ثم الفرات شرقا .

ثم نستطيع ان نتعرف على ابلا ودورها السياسي ، من بعض المعاهدات التي وصلتنا من ارشيف ابلا ، كالمعاهدة التي بينها وبين مملكة « ابرزال » ثم بينها وبين مملكة « خمازي » التي يقال انها كانت قائمة بين نهري الزاب الاعلى والاسفل في الشرق . فاذا كانت هناك معاهدة بين مملكة في الشرق وبين مملكة في بلاد الشام فهذا يعني ان ابلا كانت تستطيع ان تحمي تلك المملكة البعيدة ، او لنقل : كانت تستطيع أن تهب الى نجدتها في الوقت المناسب .

قاسم طوير :

لابد من توضيح يجعلني اذكر ــ بأسف شديد ــ ان الغرب كان قد اخذ بزمام المبادرة في دراسة حضارتنا ، قبلنا ، بزمن بعيدعبر مدارسه الاستشراقية التي تتميز بناحيتين اساسيتين ــ بغض النظر عن الاستثناءات القليلة ــ هما: « الفصل » و « التجريد » .

حاولت المدارس التي التزمت « الفصل » ان تفصل الشعب العربي ــ الموجود في هذه المنطقة ــ دونما شك ــ عن حضارته . فاعتمدت منذ خطواتها الاولى عناوين انفصالية ، مثل « معهد دراسات الشرق الاوسط ، معهد دراسات الشرق الادنى ، معهد الشرق .. » ، وقد اعطى علماء هذه المعاهد حضارة المنطقة بكاملها صفة مبهمة جغرافيا . ليس لها موقع جغرافي ، بل لها اتجاه جغرافي : « شرق ، غرب ، شمال ، جنوب » الامر الذي جعل حضارة المنطقة العربية تحمل اسما هلاميا ، ليس له اية صفة او اية رابطة جغرافية بالمنطقة العربية ذاتها ، هو : « الشرق الاوسط » وكان المنطقة التي يتشكل منها الوطن العربي لا وجود لها في الجغرافيا .

كذلك فعلت مدارس « التجريد » بالنسبة للشعب الذي يرتبط بهذه الحضارة ، فهو غير موجود في تسمية علماء هذه المدارس الذين يلحون على مصطلح « شعوب الشرق الاوسط » ويتجاهلون حقيقة وجود شعب اسمه « الشعب العربي » . وبهذا تم لهم فصل الحضارة عن الشعب بتجريده من هويته ومنحه ــ قسرا ــ هوية مبهمة : « شرق اوسطي » او « شرق ادنوي » .

استغلت الصهيونيـة هذه الحالة ، او هذه الوليمة المجانية ، فسارعت اليها بملعقة كبيرة اسمها : « دراسات توراتية » ، ولم يكن المقصود بهـذه التسمية المعنى الديني للتوراة ، بل كان قصدها الدراسات التراثية والحضارية والتاريخية لما يسمى بـ « منطقة الشرق الاوسط » وربطها بالتوراة ، ليس بصفته الدينية ايضا ، بل بصفته الاسمية والاعتبارية التي تجعله وقفا ـ في العقلية الغربية ـ على فئة معينة ، عرفها الغرب باسم « الشعب اليهودي » .

بهذا الاسلوب اللصوصي المنهجي انطلقت مثل هذه المدارس ، وانتجت مجلة (الاثري التوراتي) Biblical Archaeologisl وربطتهـا بالتـوراة مباشرة . ولهذا اجدني مختلفا مع زميلي د. ابو عساف من حيث نظرته الـى (بتيناتو) في تركه الكهنوت والانصراف الى الدراسة في الآثار . وكأن الصدفة وحدها هي التي جعلته يتخلى عن الكهنوت الى الآثار ! .

تعتمد معاهد الدراسات التوراتية اعتمادا مطلقا على اللغة العبرية في دراسة اللغات القديمة ، او حسب مصطلح غير الدقيق « اللغات الشرقيـة القديمة » بمعنى انه يتوجب على الطالب في الجامعات والمعاهد الاوربيـة والامريكية ان يدرس « العبرية » لا محالة اذا كان يريد ان يدرس في اللغات « الشرقية القديمة » مثل : الاكادية ، الآشورية ، البابلية ، الآرامية الثمودية .. بغية مقارنة كلماتها مع مفردات عبرية . ولم تعتمد هذه المدارس اي لغـة سامية اخرى غير العبرية ، لان اصحاب هذه المدارس يعدون انفسهم ـ بموجب اللغة العبرية ـ الورثة الشرعيين لهذه الحضارة دونما منازع . ثم بغية ربط الاستمرارية الحضارية بهم وعزل الشعب العربي عنها . لهذا ارى ان (بتيناتو) كان مهيئا لهذه المهمة .

الحلبـي :

هل المقصود هو (جوفاني بتيناتو) العالم الايطالي المختص بدراسـة الكتابات المسمارية ، والذي اثار في كل من اوربا وامريكا ضجة حول الواح ابلا؟

طوبـر :

نعم ، هو المقصود بحديث زميلي وحديثي . وساضرب مثلا على احادية النظرة عند امثال بتيناتو من العلماء والباحثين الذين وقعوا تحت تاثير المدارس التوراتيـة .

هنالك نص ثمودي كان بين يدي عالم لغات سامية ، جاء ذلك العالم يستشيرني - واستشار زميلي أيضا - في بعض الكلمات التي التبست عليه في النص . كانت أحرف : « س. ل. م ... » باعتبار ان الثمودية دون احرف علة أيضا. فقرأ ذلك العالم اولى كلمات هذا النص بـ « شالوم » بدلا من « سلام » مع انه نص ثمودي كائن في الجزيرة العربية ويحمل لغة العرب ، والنص صريح يقول : سلام على - فلان - بطيب ابدي » . فاذا سلام تغدو « شالوم » لدى ذلك العالم لان العبرية هي الاساس ، في اعتباره ، لكل مقارنة.

سقت هذا المثل ، الذي جرى لي شخصيا ولزميلي د. ابو عساف ، لنتبين كم لديهم من محاولات لنزع الهوية الحضارية عن الشعب العربي .

ابو عساف :

نحن نظلم المدارس الاثرية اذا قلنا انها تعتمد على اللغة العبرية فقط . فالزميل قاسم وأنا درسنا في هذه المدارس ، في المانيا مثلا .

علم الآثار لم ينشأ في هذه المنطقة الا من خلال دراسة التوراة ، باعتبار ان بعض الاسفار تسرد حوادث يقال انها تاريخية . الامر الذي شجع بعض الهواة في العالم الغربي منذ القرن السابع عشر والقرن السادس عشر ، عن طريق التوراة ، ليتعرفوا على أسماء المدن والدول التي نقلتها هذه الاسفار عن هذه المنطقة . وكان لديهم أيضا بعض الكتب اليونانية ، كبعض كتب (هيرودوت) وبعض الجغرافيين . وبعد ان أصبح هناك دراسات نقدية وتحليلية لبعض ما ورد بما يسمى بكتاب « العهد القديم » من معلومات تاريخية ، وبعد ان ازدادت المادة المحلية الوثائقية التي تحكي تاريخ هذه المنطقة ، سواء كانت مكتبة (آشور بانيبال) في نينوى ، أو وثائق مدينة بابل او وثائق مدينة ماري ، كان لا بد لهذه المدارس من الاعتماد على هذه الوثائق اكثر من اعتمادها على معطيات « العهد القديم » كمادة تاريخية . الا ان « اللغة العبرية » ظلت اساسا لدى علماء هذه المدارس في تفسير كلمات بعض اللغات السامية ، كالاكادية والبابلية .

أما « الاثري التوراتي » فقد تنحرف بحوثها عاطفيا احيانا ، ولكن ليس الى الحد الذي يجعلنا ننظر اليها بهذه الحدة .

طويسر :

عندما سئل الاستاذ (غيلب Gelb) عن رأيه في الاهمية التاريخية الحقيقية

لمكتشفات « ابلا » قال : « إنها تقدم الدليل على لغة جديدة وتاريخ جديد وحضارة جديدة . انها لغة بلاد الشام وتاريخها وحضارتها » .

رغم هذا الجديد كل الجدة في مكتشفات ابلا حاول (بتيناتو) ربط حضارة ابلا بأحداث التوراة وفق عدد من النقاط. قال انه اهتدى اليها من النصوص الابلاوية . وهذه النقاط تشير بوضوح الى ان مثل هذا « العالم » لا يستطيع الخروج من دائرة « التوراة » حتى اذا حسنت نيته .

وفي ايرادي لهذه النقاط ، هنا ، رد على السؤال الذي تفضل به الاستاذ الحلبي عن الضجة التي اثيرت في الغرب غداة اكتشاف الواح ابلا ، وفيه - بالتالي - التوكيد على هيمنة المدرسة التوراتية على عقول عدد من العلماء . لقد ادّعى بتيناتو :

١ - وجود اسم « يهوا » او « يا » مركبا في اسماء الاعلام الواردة في نصوص ابلا ، وأن (يهوا) حل - خلال حكم الملك (ايبريوم) - محل الإله (إيل) مما يدعو للافتراض بقيام عملية ارتقاء نحو التوحيد الإلهي في ديانة ابلا .

٢ - بأن لغة ابلا هي لغة كنعانية قديمة ، وهذا يعني أنها سلف العبرية والفينيقية .

٣ - بأن اسماء اعلام مشابهة لاسماء اعلام توراتية ، مثل : ميكائيل ، داوود ، تتردد بكثرة في نصوص ابلا .

٤ - بأن بعض النصوص الادبية تنطبق في محتواها على قصة الخليقة وقصة الطوفان في التوراة .

٥ - بأن عددا من اسماء المدن الفلسطينية ، مثل : مجدّو ، شكيم ، غزة ، سودوم ، عامورة ... تتردد في نصوص ابلا .

٦ - بأن ثمة تشابها مدهشا في الاعراف وطريقة الحكم بين ابلا والتوراة مثل: مسح الملوك بالزيت ، وحكم البلاد بواسطة القضاة .

كانت هذه اهم النقاط التي اعتمدها بتيناتو واعلنها العام ١٩٧٥ ...

الحلبي :

وطبيعي ان تتلقف كل من الصحافة الصهيونية والصحافة التابعة في كل

من اوربا وامريكا هذه النقاط ، وتعلنها بالخطوط العريضة على الملأ بلسان « العالم الباحث المنقب المختص باللغة المسمارية جوفاني بتيناتو » .

طوير :

هذا ما حدث فعلا ؛ مع انه غير مختص باللغة المسمارية ؛ بل بفك رموز اشاراتها . وهناك فرق بين اللغوي و « الابيجرافست » .

ابو عساف :

ولقد اشبع العلماء اطروحة بتيناتو درسا وبينو عدم دقتها ، بل عدم صحتها ، ولقد تراجع بتيناتو ذاته عن اطروحته هذه .

محمد محفل :

لست ارى ضرورة لما يمكن ان يضاف على ما اورده الزملاء ، لكني احب ان اتوقف قليلا عند بعض التعاريف ، وبخاصة مصطلح « السامية » حيث ان استعمال هذا المصطلح ــ الذي قيل به لاول مرة في نهاية القرن الثامن عشر ــ يوقعنا من جديد في اطار الشرك التوراتي ، وذلك نسبة الى سفر التكوين الذي يقول : « وولد لنوح سام وحام ويافث » . ولهذا ارى ان نقول : « لغات الشرق العربي القديمة » . حيث ان الاكادية ، البابلية ، الآشورية ، الكنعانية والآرامية بفروعها المختلفة ، تترابط او تتقارب بعضها ببعض ، كما راى الزملاء . فلو اخذنا قاموس الكتاب المقدس ، وهو معتمد ومعترف بـه لشرح التوراة ، وكذلك تفسير الكتاب المقدس الذي هو انجاز امريكي ، للاحظنا فيهما تعابير عـدة : سامي . عبري . كنعاني ، واحيانـا آرامي . علما بأن نصوصـا سامية لا توجد ، كما ان « العبرية » كلغة لا توجد .

لقد كتب التوراة الذي بين ايدينا من القرن الخامس ق.م حتى القرن الأول ميلادي . اي بدءاً بعزرا الكاتب ، بعد السبي ، حتى الفترة الرومانية الأولى في سوريا ، على وجه التقريب . ومع ذلك فان كثيراً من الكلمات التي ترد في نصوص (آل لخ) وفي « نينوي » وفي « ماري » وفي « اوغاريت » ينسبونها الى العبرية ، مع انها كنعانية او آرامية .

سفر اشعيا يعلن صراحة قوله : « وتكلمنا شفة كنعان » . وهذا يعني ان اللغة المستعملة في التوراة كنعانية ، عدا سفري دانيال الذي هو آرامي

بحث ، وعزرا الذي قسمه الأعظم آرامي ، وما تبقى منه فكنعاني اوسط .

على ذلك لا بد من الاتفاق فيمابيننا على التعاريف او الاصطلاحات فالسامية توراتية ، بل هي شرك توراتي ، وهي مرفوضة لدي لعدم وجودها في الواقع التاريخي ، هذا مع احترامي وتقديري للاستاذ ماتييه الذي استعملها في المقتبس الذي قدمه الأستاذ الحلبي .

اما العبرية فماذا نقصد بها ؟. هل هي لغة الاسرائيليين القدماء ، عندما بدأوا يتسربون من سيناء الى فلسطين ، وهل لغة التوراة التي بين ايدينا هي لغتهم ، أم هي لغة فلسطين وكنعان ثم اللغة الآرامية ؟! .

وهكذا تجدنا نقع ــ مع الاسف ــ بنفس الشرك الذي نسجوه لنا حين اخذنا نقتفي آثارهم ونردد أقوالهم : لغة ابلاوية ولغة اوغاريتية . بدلا من قولنا ، بثقة ، « اللغة الكنعانية الشمالية » بالنسبة لاوغاريت . و « اللغة الكنعانية الاولى » بالنسبة لابلا .

صحيح ما ذكره الزميل د. ابو عساف من أن كتابة ابلا قريبة جدا من الكتابة الاكادية الرافدية ، وهي مسمارية اساسا ، مسمارية أولى ومقطعية لكن المحتوى له علاقة بالعالم الكنعاني ككل .

والعالم الكنعاني ليس هو فلسطين ، كما ورد في التوراة ، بل هو كل تلك المنطقة الممتدة من كيليكيا حتى رفح ، حتى سيناء . اي مناطق غربي نهر العاصي ونهر الليطاني ونهر الاردن .

وبحدها شرقا العالم العموري . فالآرامي فيما بعد .

ابو عساف :

بالنسبة لمصطلح « اللغات السامية » منتقد من العلماء كافة ، وبخاصة الذين يهتمون بالدراسات السامية ، وليس من العلماء العرب وحدهم . غير انه لا بديل لنا عنه حتى الآن .

اما بالنسبة لمصطلح اللغة العبرية فمن الخطأ الاعتقاد بوجود كتابة عبرية من القرن الخامس ق.م حيث بدىء بكتابة التوراة ، بل كانت كتابة آرامية .

الحلبي :

بعد توقفنا عند الخطوط العريضة لبعض معطيات ابلا ، وبعد هذاالتوضيح لمسالة المصطلح ، اتمنى ان نبحث في « لآلىء » ايلي ميلكو ، الموصوف بـ « التوراة الكنعانية » ، مع الاشارة الى ان الاستاذ عرنوق كان قد نقل هذا الكتاب عن الفرنسية بحسن نية اراها غاية في الصفاء . بدليل شروحه المبنية في هامش الكتاب التي سعت جاهدة للرد على ادعاءات المدرسة التوراتية ، بل على توراتها بالذات . مما يجعلني اعتقد بانه يبحث ــ كما العلماء ــ عن الحقيقة مهما كانت صعبة . ويجعلني اعتقد ــ بالتالي ــ بانه سياخذ بالعلم الموثق المنوي عرضه هنا .

لقد راى الاستاذ عرنوق ان اهم مايشده الى النصوص التي قدمها ديل ميديكو عن كبير كهنة اوغاريت (ايلي ميلكو) هي النواحي التاريخية والحضارية والتراث الادبي واللغوي . وراى في مقدمته المخصصة للطبعة (العربية من كتاب (اللآلى) ان : « افدح المصائب التي وقعت فيها البلاد ــ الممتدة من اوغاريت الى فلسطين ــ هو اجتياح اليهود لقسم من فلسطين بقيادة « يشوع » ثم « يهوذا » » ، ولقد كان ذلك في القرن الرابع عشر ق.م ص ٩ .

والاستاذ عرنوق يعتمد (هـ. ي. ديل ميديكو) من العلماء ، بل يعطيه لقب عالم منذ صفحة الغلاف الاولى . ولكنني ــ ربما لاطلاعي المحدود ــ لم اسمع باسم (ميديكو) قبل هذا الكتاب ، فلعل زملاء النقاش كمختصين ومتابعين يعرفونه ، ولهذا اود ان اسال :

١ ــ ما مدى صحة الاجتياح اليهودي لقسم من فلسطين ، بشخوصه وتاريخه . وفقاً لما طرحه عرنوق في مقدمته .

٢ ــ كيف ننظر الى ما ورد في هذا الكتاب من نصوص اوغاريتيه على ضوء مقارنتها بالنصوص الاوغاريتية الاصلية ، وفق تصنيفها العالمي ؟.

مفيد عرنوق :

الأقوام الموسوية ، كما يقول بها اكثر المؤرخين ، وصلوا بقيادة النبي موسى الى جبل (نبو) الواقع جنوبي البحر الميت ، وفي هذا المكان وافته المنية ، فاستلم قيادة وزعامة القبائل (يشوع) . فتآمر هذا ــ حسب التوراة ونصوص اوغاريت ــ مع احد ملوك كنعان ، وهو ملك جبعون ، حيث ان

المنطقة كانت مؤلفة ، اداريا من اتحادات ملوك . كل سبعة ملوك يؤلفون وحدة فيما بينهم للدفاع عن انفسهم وعن البقعة التي يعيشون فيها ويحكمونها . وهذه الاتحادات مرتبطة — بحسب نصوص أوغاريت — بادارة مركزية على أساس حكم كونفدرالي واسع . حيث كان يحكم البلاد في ذلك الطرف شخص اسمه (الملك الكبير) ، لم تعط النصوص اسمه الحقيقي . بل اكتفت بنعته بهذا اللقب ، ولقد كان اهتمامه منصبا ، في ذلك العهد ، على منطقة فلسطين وهو من اوغاريت التي كانت تمتد بنفوذها الكونفدرالي الديني حتى آخر منطقة فلسطين ، والا لما اهتم (الملك الكبير) بما كان يجري في تلك البقعة .

من هنا وقع الاستنتاج ان اتحادات الملوك كان لها ارتباط بالحكومة المركزية .، فاستطاع (يشوع) عبور نهر الاردن دون حرب نتيجة المؤامرة مع ملك جبعون . فاحتل يشوع اول ما احتل « عاي » و « اريحا » وقد جرت مذبحة في اريحا لم تبق احد لا من انسان ولا من حيوان . ثم امتدت فتوحات يشوع الى حيز من المرتفعات الوسطى باتجاه الجنوب . وتوفي يشوع فاستلم قيادة الجيش (يهوذا) وامتد بالفتوحات حتى وصل « قادش » . وهكذا وقعت كل المرتفعات الوسطى التي تبدأ من عاي واريحا حتى قادش تحت سلطة الموسوية .

هذا ما جاء في نصوص رأس شمرة (اوغاريت) التي ترجمها (ديل ميديكو) .

ابو عساف :

هل يمكن للأستاذ عرنوق ان يعرفنا : من (ديل ميديكو) هذا ؟.

عرنوق :

حسب كتاب (اللآلىء) هو عالم ولد في تركيا . أصله ايطالي من فينسيا اشتهر بالحياد والنزاهة ، وعندما اطلع على نصوص رأس شمره ترجمها من جديد وقدمها الى اكاديمية الفنون والمدونات الفرنسية ، ومن ثم اعطى كتابا على اثرها .

ابو عساف :

هل نشرته الاكاديمية له ؟

عرنوق :

لا ادري . لكننا نعرف جيداً ـ من اشخاص عديدون ـ ان ميديكو حورب على اساس هذا الكتاب حرباً شعواء ، كما حورب شخصياً ومات مقهوراً .

وكان قد اعطى لكتابه هذا عنواناً مثيراً جداً ، خاصة بالنسبة لليهود ، سماه « التوراة الكنعانية » ، وضح فيه مختلسات « التوراة » من التراث الكنعاني . كما ارجع التراث اليهودي الذي جاء بالتوراة الى تراث ما بين النهرين والى تراث كنعان والى تراث مصر . فاعتبر ان التوراة منسوخة عن التراث القديم الرافدي والكنعاني والمصري معاً ، ولا يوجد فيها الا النزر القليل يهودي .

طوبـر :

بعد اطلاعي على كتاب « اللالىء » بترجمة الاستاذ عرنوق بحثت في الكتب الاختصاصية الاكاديمية للعلماء المختصين في الاوغاريتية فلم اجد فيها ايما اسم او مجرد اشارة للمدعو (دبل ميديكو) . وهذا يعني ان ايا من العلماء الاكاديميين لم يعتمد مؤلفه رغم انه صدر في الاربعينات من هذا القرن العشرين . الامر الذي يعني ـ بالتالي ـ انه لا وجود لصاحبه في الوسط العلمي الاكاديمي الجدي مطلقاً . اضافة الى ان عدداً كبيراً من المعطيات الاوغاريتية قد اضيف على ما كان مكتشفاً غداة تأليف ميديكو لكتابه الامر الذي يعني كذلك انه بات متقادماً . واذن فلماذا ترجمه الاستاذ عرنوق الآن ؟!.

الحلبي :

ارجو ان يسمح لي الاستاذ طوبر بالاعتراض على هذا السؤال ؛ ذلك لان الكتاب موجود بين ايدينا الآن ، وكان المترجم قد نقله ، كما هو ؛ من الاربعينات الى الثمانينات ؛ وساهم في شرحه والتعليق عليه . ولقد حدثنا ـ كما لا حظتم ـ بمسيرة ما اسماه : « الاجتياح اليهودي لقسم من فلسطين حدث في القرن الرابع عشر ق.م » . وفي مثل هذه التواريخ والقراءات تكمن المشكلة ، لان الكتاب غدا واقعاً راهناً بين يدي قارئه العربي . واذن كيف يمكننا المساهمة في تصحيح هذه القراءة ، للقارىء ذاته ؛ كيلا يظل نهب الخطأ ، ان لم نقل : سوءنية المدرسة التوراتية ، رغم حسن نية مترجمه العربي ورغم موقفه الرافض بوضوح للادعاءات التوراتية ذاتها ؟.

محفــل :

قبل التعليق على ما أثاره الاستاذ الحلبي من اشكالية التواريخ وخطورتها اريد ان اشير الى مسألة صعوبة القراءة المسمارية على العلماء الذين لا يجيدون اللغة العربية ، لأنها ذات جذر ثلاثي ساكن ، كما في العربية تماماً .

ناخذ مثلا توضيحياً على ذلك : فعل « كتب » حيث نقراه ثلاث قراءات واحدة بفتح الكاف وفتح التاء . وواحدة بضم الكاف وكسر التاء . وواحدة بضم الكاف وضم التاء . وكل قراءة تؤدى معنى . ربما كان الخطأ متاتياً — بغض النظر عن حسن النية او سوئها — من عدم معرفة قارىء النصوص المقطعية ، باللغة العربية ، كما الح الاستاذ طوير . فلو ان قارىء النص المسماري عرف العربية لامكنه التغلب على كثير من الاشكالات التي يقع فيها .

لقد لفت نظري فعلا تاريخ التسرب اليهودي الى فلسطين بما أسماه المترجم « الاجتياح » وحدده في القرن الرابع عشر ق.م . ذلك لأن مختلف المصادر العلمية تنظر الى الامبراطورية المصرية الحديثة على انها في حدود /١٢٣٠/ ق.م، وهذا يعني أن (موسى) كان متواجداً في حدود هذا التاريخ . وهذا يتناقض مع ما ورد في كتاب (الالىء) فيما يتعلق بقيادة النبي موسى ومسيرته « الاجتياحية » .

كذلك يتابع الكتاب اخطاءه ليعلن في / ص ٩١ / منه احتلال اورشليم على يدي (يهوذا) حوالي / ١٤٠٠ / ق.م ، مع ان بين هذا التاريخ وبين احتلال اورشليم خمسة قرون . اضافة الى أن لفظة (فلسطين) لم تكن قد وجدت في التاريخ الذي اعتمده (ميديكو) . بل لقد جاءت متأخرة ، وربما طارئة بعد / ١٢٠٠ / ق.م . وهذه كلها دلائل واضحة ومثبتة في وثائق تاريخية تؤكد عدم صحة الاجتياح المزعوم .

عرنوق :

انا اعرف انها تواريخ وقعت متناقضة مع الاحداث ، لكنني آثرت نقلهـا عن ميديكو بأمانة .

الحلبـي :

على مبدأ ناقل الكفر ليس بكافر . لكن المسألة التاريخية تختلف جذريا .

وبخاصة حين تؤول الى مضمون سياسي ، غايته سلب حقوق شعب متجذر في التاريخ من اجل فئة ارادوها « مختارة » من لدن اله فرعوم ، وهي مختـــارة الآن من لدن الامبريالية ، كما هو عليه الحال في المسألة الفلسطينية واشباهها من المشكلات . واني لارجو الاخ د. ابو عساف المتابعة من حيث انتهى اليـــه الاستاذ محفـل .

ابو عساف :

بين الزميل الاستاذ محفل بعض الاخطاء التاريخية ، وخاصة الاجتيـــاح اليهودي المزعوم لفلسطين ، وساحاول المتابعة في كتاب ميديكو تحديدا وليس في ترجمة الاستاذ عرنوق ، باعتبار انه نقله بامانة كما اخبرنا .

« الملك الكبير » لا وجود له في نصوص اوغاريت . ومن الملاحظ انه ، حيثما وجد في هذا الكتاب ، يرد بين قوسين ، مما يعني انه مستنتج استنتاجاوليس بشخصية حقيقية .

عرنوق :

يقول ميديكو حول هذه النقطة : استغرب لماذا لم يضعوا اسمه بجــلاء ، هذا يعني انه كان فاسدا الى درجة انهم ارادوا ان ينسى الشعب الكنعاني حتى هذا الملك وتاريخه .

هناك ايضا عادة شعبية كانت سائدة عند الكنعانيين هي الغناء في مواســم الحصاد ، كما هو الحال عندنا الان ، ولقد كانوا يرددون في اغانيهم : « ليلعن ابي مالك . ليلعن ابي مالك . ليلعن ابي مالك » . فهل يا ترى « ابو مالك » هو نفسـه الملك الكبير ؟ هذه هي اشارة الاستفهام التي ينبغي توضيحها . فقد نستطيع ذلك وقد لا نستطيع لكن ثمة اشارات معينة تشير الى ان هنالك ملكا فاسدا اراد (ابلي ميلكو) ــ كاتب النصوص ــ ان يغفل اسمه .

ابو عساف :

في الواقع ، هذه النصوص عبارة عن اساطير ولا تدور حول حياة ما يسمى بـ « الملك الكبير » . ثم ان اي نص من النصوص المترجمة هنا لا يمكن لاي عالم ان يجد فيها اشارة ما للملك الكبير .

هذه النصوص هي للرب « بعل » وليس غير . والرب « بعل » من الارباب الكبار الذين قدسهم الاوغاريتيون . وقد انشئت هذه النصوص حول الخلاف

الذي حدث ، اسطوريا ، بين « بعل » وبقية الارباب مثل رب البحر ورب الشمس والربة « عشترة » والربة « اثرة » والربة « اثيرة » . لان الرب بعل طالب في يوم من الايام بأن يبنى له معبد ، فرفض الارباب طلبه وقتلوه ، فنزل الى العالم الاسفل ــ عالم الاموات ــ ثم جاءت الربة « عنة » فأخرجته من هذا العالم ، ثم بني له المعبد على جبل « صفون » وعادت له امجاده . واثناء غيابه ، في الموت ، اجتاحت البلاد سنون عجاف . .

لست اريد التوسع في هذا الموضوع ، لعدم حاجتنا في هذه الندوة اليه ، الا في حدود تصحيح مسار الاسطورة التي تمحورت في كتاب اللالىء وبوضع مغاير تماما حول شخصية مختلفة ، مع ان « بعل » اسم علم ومعروف في جميع اللغات السامية .

لدي نص يحمل الترقيم العالمي 5 AB منشور في عدد من الكتب ، ومنها كتاب الاستاذ (غوردون) بعنوان (عنة) . يهمنا الجزء الاخير منه بغية مقارنته ، كنص اصلي من نصوص اوغاريت ، مع ما ورد في [ص ٢٣] من كتاب اللالىء . يقول نص اللالىء :

« . . . عندما يتقدمون

العبرانيون حدد حدودا للعبرانيين

لتكن قيلة الى العبرانيين

وشمشير اي واعالي الصحراء

لدغي واشيرة / منذ عاي حتى

قادش امورو

ونحو مصائبك سوف لا تدير وجهها

مصر القاسية

انهم باللعنات دمروا كريت

حجبوا مساكنها بقوى سماوية » .

بينما يقول النص ذاته ، ولكن بالاوغاريتية ،لغته الاصلية :

« ع ب ر / ج ب ل / ع ب ر

ق ع ل / ع ب ر / ا هـ ت

و ن ب س م ش م ش د /

ل د ج ي / ا ث ر ت / م ض ا /

ل ق د ش / ا م ر ا د /

ا ل / ك ل هـ / ك ف ت ر /

ك ر س ي و /

ت ب ت هـ / ح ك ف ت / . »

وقراءة هذا النص عربيا هي :

« عَبَرَ الجبل وعَبر الكروم والاودية

والانهر وشَمَّر

لاجتياز التيار ، ثم عرّج على سماك

الربــة اثــرة

ومضى لقدس امراوت لعبد الرب

امورو اله الكل ــ

الذي مقر عرشه في (كفتر) ومجلسه في

« حكفتا » .

الفرق الكبير بين النصين واضح ، تماما كوضوح الفرق بين فعل عَبَّر واسم العبرانيين . وكذلك الفرق بين ان تكون « شمشيراي » و « اعالي الصحراء » اسمي مكانين في كتاب اللآلىء ، وبين نصها الاصلي الذي يقول ــ حسبما ثبتناه بالاحرف المقطعة : « تبشتم شَمشَر باعتبار ان كلمة « نبشتم » معروفة عالميا وعند اصحاب الاختصاص منهم بخاصة ، بانها اسم جمع للتيارات المائية في البحر . وهي واردة في لغات سامية اخرى .

اما « شمشر » فهي فعل على وزن « شفعل » بمعنى : شَمَّر لخوض هذه التيارات المائية .وقد استخدمت العربية فعل شمر ، ومازالت تستخدمه للدلالة على الحالة ذاتها ، واذن فكيف انقلب هذا الفعل ــ شمر ــ عند(ميديكو) الى اسم مدينة « شمشراي » التوراتية ؟! .

ثم كيف صاغ قوله : « منذ عاي حتى قادش أمورو » اي منذ (تل عي) في فلسطين حتى القدس ، اقول : كيف صاغ ميديكو قوله هذا عن النص الاوغاريتي الذي يقول : « امض الى قدس امرار » باعتبار أن (مضـى) التي ذكرناها بأحرفها المقطعة (مض ا) تصبح في حالة الامر (امض) . واما « قدس امرار » فهي معبد « الرب أمورو » وليس اسم مدينة توراتية !! . .

لا جواب لدى اي عالم عن هذه التساؤلات . وهي ، بالفعل ، أخطاء رهيبة وقد حولت على هذا النحو ــ فيما ارى ــ لاغراض توراتية . ولست اعتقد ان الاستاذ عرنوق كان قد لاحظها ، وما ادري فيما اذا كان يعرف الاوغاريتية ، لادعه يقرأ معنا النص الحرفي لما تقدم .

عرنوق :

لا . . لا اعرفها .

ابو عساف :

لكننا نعرف جميعا ان لا وجود ، اصلا لاسم « عبرانيين » في القرن الرابع عشر ق.م . بل ان هذا الاسم لا يرد ــ حتى في التوراة ــ أكثر من ست مرات.

عرنوق :

لا اعتراض لي على ما قدم د. ابو عساف من قراءة ، لانه صاحب اختصاص . وليس لي دور في هذه المغالطات . لقد قمت بالترجمة عن الفرنسية وفقا لفهم (ميديكو) نصوص أوغاريت .

الحلبي :

انا متيقن أن الاستاذ عرنوق ليس ضد تصحيح نصوص (ميديكو) ؛ ولولا ان كتابه « اللآلىء » الذي حوى هذه النصوص غدا واقعا راهنا ، انتقل من الاربعينات ــ كما قلنا ــ الى الثمانينات ، لصرفنا النظر عنه ، لكننا ملزمون الآن في هذه المهمة ، ليس تاريخيا فحسب بل وطنيا واخلاقيا . ثم ان (بعل) لم يرد في موروثنا ــ حسب اطلاعي المتواضع ــ الاها للاموات ، بل كان ابـدا إله العطاء والخصب والخير . .

ابو عساف :

يقولون في العربيـة : « فقـدت بعلها » اي الزوج والمعيـل والمالك . . .

و (بعل) يجمع صفات ربوبية كثيرة حيثما ورد ، وكذلك هو عند الاوغاريتيين .

الحلبي :

ارجو ان نتابع في موضــوع النصوص ذات الفاعلية المزدوجة مــن حيث المغالطات التاريخية ومن حيث الدعوة للايمان بها كونها انجاز تراثي يقرأه لنــا « عالِم » اسمه هـ . ي . ديل ميديكو .

ابو عساف :

بين يدي نص آخر ، احضرته للمقارنة ، يحمل الرقم AB 4 يبين عددا آخر من المغالطات التي وقع فيها (ميديكو) . بيد أني أحب الانتقال ـ كيــلا اطيل ـ الى النص الاوغاريتي الموصوف بالرقم AB 1 بغية مقارنته بما ورد في / ص ٥٥ / من كتاب اللآلىء .

تقول هذه الصفحة ، حسب ميديكو ، بترجمة عرنوق :

« اظلم بيت إيــل
انه بتصعيد الشكاوى يتم طرد القاتلين
اما اشيرة ففي يوم الجحود
ويوم مذبحة الكنعانيين
وعندما افتتح بيت اللعنات
وتغطى بيت الشقاق بالظلام
وعندما ارتمى الى الحضيض بيت الكنعانيين
في هذا اليوم غطت (آشيرة) البيت بالغيوم المكثفة » .

اما النص الاوغاريتي فهو :

« م ث ب / إ ي ل / م ظ ل ل / » ... الخ

حيث اول كلمة في هذا النص هي : مثب او مثاب . والمعنى :

« مأوى إيل مظلة لبنيه » . فكلمة « مثاب » لاتزال تستخدم في العربيــة للمعنى ذاته التي كانت عليه في الاوغاريتية . واذ أورد هذا النص فليس مــن اجل التصحيح فقط بل بغية التوكيد على ان هذه الاسطورة تدور حول الرب

(بعل) ، وهذا النص مناجاة مـن الربة (عنة) لابيها بصفته كبير الارباب ، فتقول له :

مأواك ـ اي مثابك ـ مأوى لابنائك ، أي بقية الارباب ، مأوى اثرة ومأوى كثرة ومأوى عشتار .. وانت ليس لك مأوى .

ثم تطلب منه ان يعود معها من عالم الاموات الى الربوبية ...

اما السطر الذي يقول : « ويوم مذبحة الكنعانيين » فليس له ايما صحة، وذلك لعدم وجود اسم الكنعانيين مطلقا في النص الاصلي ، وانما الموجود هو :

« كنه ، كنيه ، كنن » .

فكلمة « كنه » معروفة حتى يومنا هذا بأنها زوجة الابن .. وقد غدت في نص (ميديكو) « كنعانيين » . وكلمة « كنن » اصبحت في نصـه « مذبحـة للكنعانيين » . بينما المقصود في النص الاصلي الاوغاريتي هو أن كنه (عنة) التي هي الربة (أثرة) تدافع عن (بعل) .

في / ص ٦٥ / يتابع ميديكو مغالطاته قائلا :

« الى مصائبك سوف لايدير وجهه

ذلك الشعب الذي يستقي قوته من الشريعة

والشعب العدو شعب الامير ماج MAG

شعب التلال فاني سأدمر ثروته

فاستجر العدو رئيس اليهوديم YUDIM

الى حليا اللاستيلاء على رهاتيم REHATIM

اما النص الاصلي المقابل لنص ميديكو هذا فيقول :

« عِمْ غَرْ تَرْغَنَسْ / عِمْ غَرْ ثَرْ مَجْ /

عِمْ تِلمِمْ غَفَرْ أرْضْ / تين غَرْ عَسْ يَديمْ » .

الشاهد في هذا النص عبارة « عَلْ يَديمْ » التي تعني في العربية : « على اليدين » والتي حولها (ميديكو) في نصـه الى كلمة « اليهوديم » وفقا لمنطقه الخاص ، مثلما زج ، بالمنطق ذاته ، اسم المدينة التوراتية (رهاتيم) في السطر الاخير من نصه اعلاه ، تمشيا ـ على مايبدو ـ مـع ما ورد في سـفر القضاة

/٢١/١/ من ذكر لهذه المدينة ، في الوقت الذي لا نجد فيه ايما ذكر لهذه المدينة في النص الاوغاريتي ، بل اننا لنقرأ فيه هذا القول :

« ح ل ب / ل ظ هـ ر / ر ح ث م » اي « حليب لظهر راحتيهم » بمعنى : وضع الحليب في راحتي اليدين . والمقصود هنا بدا الرب بعل وذلك استطرادا لمجريات الاسطورة التي سبق ذكرها . باعتبار ان ما تقدم من وصف كان عبارة عن صورة للاجراءات التي اتخذتها الربة (عنة) من اجل عودة بعل من العالم الاسفل ، عالم الاموات .

لهذا استطيع القول : ان قراءة (ميديكو) لنصوص اوغاريت ، عبر كتاب هذا لا صحة لها في اي وجه من الوجوه النصية الموثقة ، وذلك بدليل المصادر المتعددة التي تتشابه في قراءتها للنص الاوغاريتي الذي قدمناه فيما سبق من هذه الندوة .

ثم ان في العالم اجمع قاموسين اثنين للغة الاوغاريتية لا ثالث لهما : احدهما بالالمانية ، والآخر بالانكليزية . وليس في اي منهما او في كليهما اية كلمة تحمل اسم (يوديم) او (يهوديم) او (رهاتيم) .. ابدا .

محفل :

اوافق الزميل د. ابو عساف فيما انتهى اليه ، لان سياق نص « اللآلىء » حسب (ميديكو) يناقض مابين ايدينا من نصوص او غاريتية مكتشفة . فهو يقع في القرن الرابع عشر ق.م بينما ترد فيه اسماء مثل : « شعب الشريعة » و « اليهوديم » و ... التي لم تعرف الا بعد اربعة قرون من هذا التاريخ . وورودها على هذا النحو لا يمكن ان يكون الا ترجمة خاطئة للنص الاصلي .

الحلبي :

عبر مقارنة النص بالنص ، الكلمة بالكلمة ، توصلنا الى نتيجة تشير بوضوح الى الغرض الذي تسعى اليه المدرسة التوراتية . سواء عن طريق « عالم » مفترض مثل (ميديكو) ، او عالم مبتدىء مثل (بيتيناتو) ، وبات لزاما علينا ان نسعى ، بجد ، الى قراءة تاريخنا بأنفسنا ، رغم احترامنا وتقديرنا لجميع العلماء الذين قراوه لنا ، حسب اجتهاد كل منهم .

واني لارجو ان نبدا الخطوة الاولى في هذا الاتجاه بانشاء معهد خاص بقراءة نصوص ابلا ، وباصدار دورية لهذا الغرض ، بالتعاون مع المخلصين لتراث الانسانية من علماء العالم . ومع شكرنا لكم على تفضلتم به من عطاء يستحق التأمل .

* * *

ردود وتعليقـــات

الــــذاكرة البصميّـــــة
والأمثــــال القـــرآنيــة

علـــي أمـــين

ورد في المقال المنشور في العدد المزدوج من مجلة المعرفة (٣٢٢ ، ٣٢٣) تموز وآب ١٩٩٠ بعنوان (الذاكرة) للكاتب عيسى بعجانو / هيشون / ، في فقــرة الذاكرة البصمية ، مثال ، هو الآية « الله نور السموات والارض ، مثل نــوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح في زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب دري ، يوقد من شجرة مباركة ، زيتونة لا شرقية ، ولا غربية ، يكاد زيتها يضيء ، ولو لم تمسســه نار ، نور على نور ، يهد الله لنوره من يشاء ، ويضرب الله الامثال للناس ، والله بكل شيء عليم » .

وانا ساتوقف للتعقيب على ورود هذا المثال ، ولا ارغب مناقشة الكاتب بمقاله ، بل أترك ذلك لذوي الاختصاص .

فقد عقب السيد كاتب المقال على الآية « المثال » بأن الشجرة أو المشكاة، الواردتين في الآية بقوله : « لم يدل عليهما احد حتى الآن ؟ » « فالبصمة التي عبرت عنهما لم نجدها بعد » وهذا النفي من قبله اغرب شيء في المقال والمثال ؛ وأعتقد أن ايراد مثل هذا المثال (الآية) عن الذاكرة البصمية حسب تعريفه لها ليس صحيحا . وان البحث عن دلالات بصمية للشجرة المباركة أو المشكاة ، حسب فهم الكاتب لها ، لن يجدها ، لا هو ولا غيره ، اذا قصد البحث المادي البحت عن هذه الشجرة ، فذكر الشجرة هنا لم يكن من أجل مادة الشجر كنبات بعينه ، وانما هي رمز قصد منه الباري تعالى ضرب مثل للناس على نور الله ، ذلك النور الذي لا ينبعث من مصدر ضوئي عادي ، وانما هو النور الذي يسطع في القلوب والعقول من آثار صنعة الله وبارع حكمته .

والزيتونة هنا ليست زيتونة عادية ، بل هي أيضا رمز لشجرة طيبة ، أصلها ثابت وفرعها في السماء ولن تجد شجرة بهذه الصفة ، ان كنت تبحث عن شجرة ذات ذاكرة بصمية ، فهي شجرة فريدة من نوعها ، لا شرقية ولا غربية ، والجهات هنا ليست للتحديد أيضا ، وانما اشارة لكون هذه الشجرة ذات صفة شمولية ، لا تحدها الجهات ، بل هي شرقية وغربية معا . ولا تحتاج لتربة عادية تمسك بها كبقية الأشجار . أنها شجرة مباركة ، معنوية أكثر منها مادية . والتمثل بزيتها المضيء ، الذي لم تمسسه نار ، رمز للعقيدة المباركة التي تسطع في النفوس من مصدر الوحي والالهام ، فلا نار ، وانما هو نور رباني متسلسل مع النبوات منذ بدء التكوين حتى وصل الى النبي محمد (ص) .

فالخطاب في هذه الآية خطاب تمثيلي ، قصد منه صاحب الوحي ضرب المثل للناس لتقريب مفهوم الإيمان والتوحيد . (ويضرب الله الامثال للناس) . والمثل ليس بالضرورة أن يكون ماديا ملموسا . فهذا مثال يضربه الله تعالى لتوضيح مفهوم نور الايمان ، فمثله نور ينبعث من مشكاة كما ورد في الآية ، والنبي محمد (ص) هو الذي يهدي الناس الى هذا النور المنبعث عن الله تعالى على شكل كلمة طيبة تشع في النفوس والعقول فتفيض أنوارها التي مثل لها الله بالنور المنبعث من زيت الزيتون (المادي) لتقريب ذلك من عقول الناس المتلقين المتعطشين للمعرفة السامية .

فاذا كنا نريد شجرة ذات ذاكرة بصمية ، أو نورا ينبعث عن نار ذات ذاكرة توليدية . فاننا نكون قد انحرفنا بهذا المثال التوضيحي عن غايته ومرماه.

وبذلك تكون قد اسأنا فهم التمثيل التشبيهي الذي اراده الباري ، والذي ورد كثيرا في القرآن الكريم .

واذا اصر الكاتب على طلب الذاكرة البصمية للشجرة او المشكاة ، ولـم يتمكن من الاستدلال على هذه الذاكرة ، فيمكنه العودة الى بعض المصادر التي كان من المفروض ان يعود اليها قبل ان يورد هـذه الآية الكريمـة في مقاله . (والله يهدي لنوره من يشـاء)(١) .

(١) انظر تفسير القرآن الكريم للشيخ الاكبر محي الدين بن العربي ، وكذلك انظر كتاب راحة العقل للكرماني ص (٥٧٦) . وغيرهما من المصادر .

ندوة دولية لتاريخ السويداء وآثارها

ضمن الفعاليات والنشاطات التي تقوم بها وزارة الثقافة والارشاد القومي في الجمهورية العربية السورية ، يعقد في مدينة السويداء ، يومي (٢٩ ــ ٣١) من تشرين الاول ، « الندوة الدولية لتاريخ السويداء وآثارها » . يشارك في هذه الندوة اكثر من مئة باحث ومفكر من عدة دول عربية وأجنبية : (سوريا ــ الاردن ــ فلسطين ــ لبنان ــ الولايات المتحدة ــ فرنسا ــ المانيا ــ بلجيكا) . يقدم المشاركون أكثر من ثلاثين بحثا ، تشمل عصور ما قبل التاريخ وعصر البرونز والحديد والعصر الهيلنستي والعصور الرومانية والبيزنطية اضافة الى الحضارة العربية الاسلامية .

كما تقوم مديرية الآثار والمتاحف بطباعة ابحاث الندوة في مجلد ضخم يصور اثر انتهاء الندوة . علما ان هناك ملخصات وافية عن هذه الابحاث سوف توزع على جمهور الحضور في حينه . اضافة لذلك ، يقام على هامش الندوة عدد من الانشطة والفعاليات الثقافية ، من اهمها :

١ ــ اصدار كتاب عن الامبراطور « فيليب العربي » ابن مدينة شهبا . الذي حكم روما وأصبح امبراطورا في الفترة الواقعة بين (٢٤٤ ــ ٢٤٩ م) .

٢ ــ معرض للفن التشكيلي يشارك فيه عدد من فناني المحافظة ، ومعرض آخر للصور الضوئية نفذه الفنان « مروان مسلماني » .

٣ ــ معرض للصناعات التقليدية لمنطقة السويداء ، وعرض للفن الشعبي .

٤ ــ يصدر عن وزارة الثقافة دليل وثائقي مزود بالصور والمخططات الايضاحية عن معروضات متحف السويداء الجديد .

وتجدر الاشارة الى ان محاضرات الندوة وزعت على خمس جلسات علمية ، يرافقها عرض افلام وشرائح ضوئية ملونة .

كتاب الشهر

● الكتاب : الظروف التاريخية للهجرات اليهودية من خزرايا الى اوروبا وامريكا ، الى فلسطين المحتلة .

تاليف نصر شمالي وهشام الدجاني

اصدار : دار المستقبل – دمشق–آذار ١٩٩٠.

هذا الكتاب من الكتب السياسية الجديدة والمهمة في هذه المرحلة ، حيث يتناول واحدة من أخطر القضايا ، وواحداً من أكبر التحديات التي تواجه الأمه العربية في هذه الأيام ، ونعني قضية هجرة اليهود السوفييت المكثّفة ، والمتقاطرة على الوطن المحتل .

ومن أجل تبيان حجم ومخاطر الهجرة اليهودية ، الى فلسطين المحتلة ، بصورة عامة وحجم ومخاطر هجرة اليهود السوفييت المعاصرة بصورة خاصة ، بتحليل علمي هادىء ، بعيداً عن التهويل أو التقليل ، كان لابد من وضع عملية الهجرة ككل في سياقها التاريخي الصحيح . حتى

يمكن أن نعي وندرك معاني وأبعاد هذا التدفق الجديد لموجات الهجرة . وهذا ما دعا المؤلفين إلى تناول الظاهرة من جانبين :

الأول : الجانب التاريخي ،وليس المقصود هنا بالطبع السرد التاريخي لبدايات الظاهرة وتطوراتها وحركتها ، بل تحليل وتحديد السياق التاريخي لمجمل هذه الظاهرة . **والجانب الثاني هو الجانب العملي** ، ونعني به المتابعة التفصيلية الدؤوبة لمسار وتوجهات هذه الهجرة ، بعد عام ١٩٤٨ ، عام نشوء « الدولة » الصهيونية ، مع عملية رصد دقيقة وموجزة للخلفيات و « المؤامرات » التي حيكت لترتيب وتنفيذ كل موجة من موجات الهجرات اليهودية الكبرى .

ومن المفيد أن نشير أن لكلا المؤلفين باعاً في مجال الكتابة والتأليف في ميدان الصراع العربي – الاسرائيلي ، من خلال العمل في بعض مراكز الأبحاث الفلسطينية المتخصصة بالشؤون الاسرائيلية ، ومن خلال المتابعة الجادة بصورة عامة .

الكتاب إذن محاولة لالقاء بعض الأضواء على بعض الجوانب الأساسية والمهمة لمشكلة كانت بالغة الخطورة في الماضي ، حيث أوجدت وكرست الاحتلال واغتصاب الأرض العربية ، وهي بالغة الخطورة في الحاضر والمستقبل ، من خلال تدفق موجات الهجرة الجديدة ، حيث تعطي الاحتلال مزيداً من القوة والغطرسة ، وتفتح الباب واسعاً أمام التوسع والعدوان .

لنلق نظرة سريعة على كيفية معالجة هذه الظاهرة ، من خلال أهم فصول الكتاب

يؤكد الكتاب منذ البداية على دحض فكرة استقلالية الهجرة اليهودية إلى فلسطين المحتلة ، وإلى ارتكاز هذه الهجرة إلى عوامل يهودية محضة . ذلك أن مثل هذا الفهم ، أي فهم الهجرة اليهودية على أنها عامل ذاتي ، يقودنا إلى تجاهل موقع الهجرة اليهودية والاستيطان في ستراتيجية الدول الاستعمارية وفي نطاق المصالح الامبريالية .

وهنا لابد من العودة إلى الأصول . والتأكيد أن فكرة استيطان اليهود لفلسطين هي فكرة بريطانية محضة ، ولدت في وقت مبكر يعود إلى عام ١٦٤٩ . صحيح أنها ظلت مجرد فكرة مطروحة في التداول بين وقت وآخر ، إلا أنها أدرجت منذ أواخر القرن الماضي وبدايات القـــرن الحالي في مخططات بريطانيا الاستراتيجية في المنطقة . ولابد أن نشير في هذا السياق إلى فكرة أساسية ألح على تأكيدها الكتاب في أكثر من موضع ، وهي فكرة الصهيونية غير اليهودية ، أو لنقل الصهيونية المسيحية تحديداً . بمعنى أن الصهيونية لم تكن من اختراع اليهودية ، بقدر ما كانت من ابتكار وايحاء دهاقنة السياسة البريطانية في القرن التاسع عشر ، من أمثال لورد شافتسبري الذي كان من أوائل من طرح فكرة استيطان اليهود لفلسطين وإقامة دولة لهم تدور في فلك المصالح البريطانية وترعى هذه المصالح . وبعد شافتسبري تبنى بريطانيون مسيحيون كثيرون ، في موقع المسؤولية ، فكرة الدولة اليهودية ، من أمثال بالمرستون وجولر . ولم يكن ما دعا إليه تيودور هرتزل في كتابه « الدولة الصهيونية » إلا محصلة للفكر السياسي الرسمي السائد ، وبتشجيع ودفع من دهاقنة السياسة الاستعمارية البريطانية . ولعل هذا ما أكده تماماً ليوبنسكر — أحد زعماء الصهيونية

في القرن التاسع عشر - في كلمته المشهورة « لو لم تولد الصهيونية لكان على بريطانيا أن تعلنها » .

ونصل إلى الانتداب على فلسطين ، وهو المحصلة الطبيعية للمخططات البريطانية ، ولوضع وعد بلفور البريطاني موضع التنفيذ . وبدأت الهجرات اليهودية تتوالى لتجسيد فكرة « الدولة اليهودية » تدريجياً .

في هذا السياق التاريخي كان لابد من الاشارة إلى دور النظام الألماني النازي الذي كان له فضل أساسي في إقامة الكيان الصهيوني ، من خلال دفع جماهير اليهود نحو الهجرة ، وتمكينه لأصحاب رؤوس الأموال اليهود في ألمانيا من نقل أموالهم إلى فلسطين .

ولكن بالرغم من جميع جهود الحكومة البريطانية طوال فترة الانتداب ، والمؤامرة النازية ، ثم جهود الصهيونية الأمريكية ، كانت المحصلة قيام « الدولة » مخيبة للآمال ، حيث بقي اليهود ، رغم جميع موجات الهجرة إلى فلسطين ، أقلية بالقياس إلى السكان العرب .

وهنا كان لابد من عملية مزدوجة ، تعاونت على تنفيذها السلطة المحتلة والدوائر الاستعمارية ، وهي الترحيل والتهجير القسري لأكبر عدد ممكن من السكان العرب من جهة ، والتهجير القسري لأكبر عدد ممكن من اليهود إلى فلسطين المحتلة من جهة ثانية . وتبدأ الهجرات اليهودية الكبرى إلى الكيان ، حيث يحدثنا الكتاب كيف جرى عبر التواطؤ والتآمر اقتلاع جاليات يهودية بكاملها من مجتمعاتها لحقن الكيان الصهيوني الغريب بها . من هذه الجاليات يهود أوروبا الشرقية والغربية (يهود المعسكرات) بعد الحرب العالمية الثانية ، ويهود الأقطار العربية .

وخلال ثلاث سنوات فقط (١٩٤٨ – ١٩٥١) جرى حقن هذا الجسد الغريب بما يزيد عن ٦٠٠ ألف يهودي ليتحقق للكيان أغلبية يهودية نسبية بعد أن جرى بالمقابل طرد الآلاف من العرب من أرضهم .

بيد أن الكيان لم يكتف بموجات الهجرة المتقاطرة في الخمسينات والستينات . فقد كان دوره الوظيفي في المنطقة ، ككلب حراسة للمصالح الامبريالية في المنطقة ، وقمع طموحات شعوبها القومية ، يتطلب مزيداً من أفواج المهاجرين . . مزيداً من اقتلاع مجموعات يهودية من مجتمعاتها عبر مختلف وسائل الحض والاغراء والمساومات الدولية والتواطؤ . وفي هذا النطاق تدخل عملية تهجير يهود اثيوبيا (الفلاشا) ، وتهجير اليهود السوفييت ، وهو ما يتحدث عنه الكتاب بالتفصيل ، موضحاً كافة الملابسات التي رافقت وترافق هذه الموجة الأخيرة والخطيرة ، موجة الهجرة اليهودية السوفييتية ، التي ابتدأت بشكل ملفت للنظر مع بداية السبعينات ، واستمرت ، بين مد وجزر ، حتى نهاية الثمانينات وبداية التسعينات حيث شكل هذا الجسر الجوي المتدفق .

إن تاريخ زرع هذا الكيان الصهيوني في أرضنا وتاريخ نشأته وتوسعه واضطلاعه بدوره العسكري المرسوم ترتبط جميعها بحركة الهجرة . إن فهمنا لآلية هذه الحركة ودوافعها وللقوة الكامنة خلفها . ولأهدافها ومراميها البعيدة لهي أمر بالغ الخطورة إذا كانت القيادات العربية جادة فعلاً في الوقوف في وجه مزيد من الاحتلالات الاسرائيلية ومزيد من القضم والضم للأرض العربية .

هـ . د

من وزارة الثقافة صدر حديثاً

وبمناسبة الندوة الدولية لآثار محافظة السويداء

دليل متحف السويداء

عدد من المؤلفين

* * *

الامبراطور فيليب العربي

٢٤٤ ـ ٢٤٩ م

تاليف

بشير زهدي

عن وزارة الثقافة صدر حديثاً

وبمناسبة الندوة الدولية للثقافة العربية الاسبانية

* * *

رحلة الى الاندلس

١٨٩٣

احمد زكي

دراسة وتقديم : محمد كامل الخطيب

* * *

رؤى اسبانية في الثقافة العربية

مجموعة من المؤلفين ترجمة : صالح علماني

من وزارة الثقافة صدر حديثاً

المختـار من محاضـرات الادبـاء ومحاورات الشـعراء والبلغـاء

للراغب الأصفهاني

السفر الرابع

اختار النصوص وعلق عليها وقدم لها

محمد أحمد درويش

* * *

فؤاد الشايب

المؤلفات الكاملة

المجلـد الرابـع